الحيوان

في القرآن الكريم

رسالة

مقدمة

١٠٠٢٩٩٧ ر

الى

كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

إعداد

فوزية يوسف بغدادي

تحت إشراف

الدكتور عبد العظيم المطعني

جامعة أم القرى - مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٩٤١

الحيـــــــــوان

فـــــي القـــرآن الكريـــــــم

رســـالة مقدمـــة

الـــى

كلية اللغة العربيـــــــة بجامعة أم القـــــرى

اعـداد

فوزية يوسف بغـــــدادى

١٠٠٢٩٥٦

تحت اشراف

الدكتور عبد العظيم المطعني

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المعلومات
UMM AL-QURA UNIVERSITY

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م

*

٩٤١

المقدمـــــــة

الحيوان من عجائب خلق الله ومن دلائل قدرة الله بل ومن أروع آيـات الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفيه وفى أشكاله وأنواعه وطباعه تتجلى قـدرة الخالق فى الخلق والابداع .

وقد كان لموضوع الحيوان صدى عند الأمم جميعا وان كانت نظرتهم فـى السابق محدودة فى ذلك الا أنهم قد خلّفوا لنا تراثا أثبت اهتمامهم بهـذا الكائن الحى ..

ففى عصر اليونان كتب الفيلسوف اليونانى العظيم والمعلم الأول " ارسطو " أول كتاب عن الحيوان ولفت فيه الأنظار الى هذا الكائن فى الكون ، وقـد عرّب كتاب الحيوان هذا لأرسطو ابن البطريق فاستفاد منه العرب فيما بعد .

وفى العصر الجاهلى تحدّث العرب عن الحيوان فى اشعارهم واتخذوه مضربا لأمثالهم فى حياتهم لكن نظرتهم له كانت محدودة اذ أنهم اهتموا بالحيوان من الناحية النفعية فى حياتهم أى أنهم كانوا يهتمون بالحيوانات التى كانـوا ينتفعون بها اما الحيوانات التى لا ينتفعون بها فى حياتهم والتى لم تكـن موجودة فى حياتهم فلا يهتمون بها فمثلا (الفيل) لم يسجلوه فى أشعارهم لأنه ليس من حيوانات البيئة التى يعيشون فيها .

وعندما جاء الاسلام ونزل القرآن على خير الأنام رسول الله محمد عليـه الصلاة والسلام الرحمة المهداة للعالمين بما فيهم الحيوان وتحدث عن الكـون وما فيه من علامات دالة على قدرته سبحانه كالانسان والملائكة والجن تحدث أيضا عن الحيوان كعلامة من علامات قدرة الله فى الكون فى أكثر من خمس وخمسين سورة

وجاءت وصايا الرسول (ص) تفصيلا لما جاء فى القرآن فكم من حيوان رحم وكم من حيوان رفق به وكم من حيوان عطف عليه فكان بذلك قدوة ومثلا رائعا فى الرحمة بالحيوان والعطف عليه كيف لا وهذه هى مهمته : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فجعل من علامات المسلم الحق الرفق بالحيوان والعطف عليه فلا يحرم من الطعام حيث نبه صلى الله عليه وسلم الى أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ولا يحمّل فوق طاقته اذا كان مما يحمل الأثقال كالحمير والبغال وغيرها ، حتى فى حالة ذبح الحيوان أمر بالرفق به فلا يذبح بسكين غير ماضية اذا كان مما يباح ذبحه فلا يذبحه شخص لا يحسن طريقة الذبح الى ما هنالك من الأمور التى أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم فحفظت للحيوان حقه كمخلوق حى عاجز عن أن يثبت لنفسه تلك الحقوق وما كان الله ليخلق خلقا ثم ينساه جل جلاله !

وأجمل من هذا كله فان القرآن قد أحال موضوع الحيوان الى موضوع تأمل ونظر : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟) فتكلم عن الابل والبغال والحمير والخيل . . . ومالى ذلك من أفراد المملكة الحيوانية التى كان منها من خدم الأنبياء والأولياء ومنها من وقعت فيه معجزات أو كان جزءا من المعجزات التى وقعت للأنبياء فكان لمجموعة الحيوانات التى ذكرت فى القرآن الحظوة فى أن تسجل اسماءها وتحفظ فى القرآن المحفوظ حتى قيام الساعة حيث تولى سبحانه حفظه : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

وبالاضافة الى هذا وذاك وكونها آية من آيات الله وعلامة على قدرته سبحانه فى الخلق والابداع فقد كان لذكر تلك الحيوانات فى القرآن أغراض ومقاصد بيانيه

وتربوية فقد ذكر القرآن كل ما أراد منه غرض حتى الحيوانات المستحقره مثل الذبابه والبعوضه لم يستح الله أن يذكرها ويضرب بها مثلا (ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها) فذكرها كما ذكر الحيوانات الضخمة والنافعة فلكل غرض من ذكره . وقد كان لهذا التناول القرآنى أثر كبير فى كتابات اللاحقين حيث توالت محاولات الكتاب فى موضوع الحيوان بعد أن جعله القرآن موضوعا قائما بذاته ودفعهم الى تناول هذا الموضوع من نواح عديدة وانار لهم الطريق فى كشف ما كان غامضا عن الحيوان وأكثر من ذلك جعلـه موضعا للتأمل والنظر والاعتبار (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟) فكان نتيجة هذه الدعوة كتاب الجاحظ (الحيوان) فى العصر العباسى الأول حيث عاش الجاحظ من (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) - فأثرى (غنى) هذا الكتاب المكتبة العربية ثراء كبيرا ثم توالت المؤلفات فى هذا الجانب الحى (الحيوان) فكتب القزوينى كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فى القرن السابع الهجرى ثم كتب الدميرى كتابه (حياة الحيوان الكبرى) فى القرن الثامن الهجرى .

ثم توالت المؤلفات فى العصر الحديث وتوالت الأبحاث والدراسات عن الحيوان وكانت التخصصات فى فروعه حيث أصبح علما مستقلا ومتشعبا . . كل ذلك بفضل ما كشفه القرآن عنه وما دعا اليه من التأمل فيه.وفى بحثنا هذا حاولت تسليط الأضواء ما استطعت على ما ورد ذكره من الحيوانات فى القرآن الكريم مستقصية تلك الأفراد التى ذكرت من المملكة الحيوانية وذلك فى الفصل الثانى بعد أن مهدت لذلك فى الفصل الأول حين تكلمت عن الحيوان فى العصور القديمة والحيوان فى الأدب الجاهلى ، أما الفصل الثالث فقد حاولت فيه معرفة الأغراض البيانية والتربوية من ذكر الحيوان فى القرآن الكريم حيث

تناولت كل حيوان ذكر بالبحث والتحليل جاعلة الحيوانات التى وقعت فيهـــا معجزات أولا ثم مجموعة الحيوانات الأخرى ثم الحيوانات التى أشيرَ اليها اشارة عامة كخلق من خلق الله مستعينة فى هذا الفصل بتفسيرات المفسرين للقـرآن كتفسير روح المعانى وتفسير أبو السعود والكشاف فى الناحية البلاغية وتفســير البحر المحيط فى الناحية اللغوية ثم تفسير فى ظلال القرآن فى الناحية الأدبية مع مجموعة أخرى من التفسيرات .

أما الفصل الرابع والأخير فقد بينت فيه أثر التناول القرآنى لموضوع الحيوان فى كتابات اللاحقين .

أسأل الله العون والسداد فما توفيقى الا به عليه توكلت وبه استعنت .)

فوزيـة بغـداد ى

تمهيـــــــد

" الحيـــــــوان "

الحيوان : هو جنس الحسى .

والحيوان : الحيـــــاة .

والحيوان : ماء فى الجنة .

والحيوان : نهر فى السماء الرابعة يدخله ملك كل يوم فيغمس فيه ثم يخـــرج فينتفض انتفاضة يخرج منه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يطوفوا بالبيت المعمور فيطوفون ثم لا يعودون اليه أبدا ثم يقفون بين السماء والأرض يسبحون الله الى يوم القيامة .(١)

والحيوان والحياة بمعنى واحد هكذا قال ابن عطيه الا أن مجيء لفظ حيوان على وزن (فعلان) مبالغه فى المعنى اذ فى هذا البناء (فعـــلان) من الاضطراب ما فيه وهذا يناسب الحياة التى تعنى الحركة كما أن الموت يعنى السكون .

فهذا البناء (فعلان) للحياة يعنى الحياة الدائمة ومن هنا فقد سمى الله سبحانه وتعالى الآخره حيوانا فقال : (وان الدار الآخرة لهى الحيوان)(٢) . أى أن حياة الآخرة حياة دائمة لا موت فيها ولا فناء فمن دخل الجنة حى فيهـا حياة طيبة ومن دخل النار ـ والعياذ بالله ـ فانه لا يموت فيها فيستريح مـــن العذاب ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل يحيا مستمرا فى العذاب كما أخبر عنه سبحانه (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهـــم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما)(٣) . أو قـــد

---

(١) أنظر ص ٢٨٥ حياة الحيوان الكبرى للدميرى .
(٢) آية ٦٤ سورة العنكبوت.
(٣) آية ٥٦ سورة النســـاء .

يكون المقصود بالآية ترغيب المؤمنين فى الدار الآخرة بأنها هى الحياة الدائمة التى لا فناء فيها .

أما عن أقسام الحيوان وأنواعها فهناك تقسيمات عديدة منها تقسيم الجاحظ الذى عاش فى القرن الثانى والثالث الهجرى من ١٥٠ - ٢٥٥ هـ حيث قسم الحيوان - بما فيه الانسان - الى أربعة أقسام فقال : (شىء يمشى وشىء يطير وشىء ينساح الا أن كل طائر يمشى وليس الذى يمشى ولا يطير يسمى طائرا ، والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام أناس وبهائم وسباع وحشرات)(١) .

والجاحظ هنا يدخل الانسان تحت هذا التعريف فيجعله من الحيوان وهو بهذا يقتفى أثر ارسطو الذى عرّف الانسان بأنه حيوان ناطق .

أما القزوينى الذى ألّف كتابه : (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) فى القرن السابع الهجرى فانه يجعل الحيوان - بما فيه الانسان - فى المرتبة الثالثة من بين الكائنات لأن المرتبة الأولى للمعادن وهى باقية على الجماديه لقربها من البسائط ، والمرتبة الثانية للنبات فانها متوسطة بين المعادن والحيوان بحصول النشوء والنمو وقوات الحس والحركة ، والمرتبة الثالثه للحيوان فانه قد جمع بين النشوء والنمو والحس والحركة وهذه قوى موجوده فى جميع أفراد الحيوان حتى فى الذباب والبعوض ، أما الحس فلأن الله تعالى لما قضى لكل حيوان أمرا معلوما ، وأبدان الحيوانات متعرضة للآفات المفسده بها والمهلكه اياها فاقتضت الحكمة الالهية أن تهبها القوة الحساسه لتشعر بواسطتها بالمنافى فتدفعه عن نفسها اذا أحست بألم فلولا هذه القوة لما أحس الحيوان

---

(١) أنظر ج (١) ص ٢٦ - ٢٧ من كتاب الحيوان للجاحظ

بالجوع الى أن يموت بغتة لعدم الغذاء ولكان اذا نام فأصابت يده أو رجله نار لم يكن يحس بها حتى يستيقظ من نومه فاذا هو بلا يد أو بلا رجل .

وأما الحركة فان الحيوان لما كان محتاجا الى الغذاء ولم يكن غذاؤه يحفه في جميع الأوقات اقتضت له الحكمة الالهية آلات ليتحرك بها الى الغذاء ولولا القوة لاحتاج الحيوان الى الغذاء ولم يقدر على المشى اليه فيموت جوعا كشجرة لا تجد الماء حتى تجف ولكان اذا أصابه آفة من حرق أو غرق بقى على مكانه حتى أدركه الغرق أو الحرق ، ولّما كانت الحيوانات بعضها عدو لبعض اقتضت الحكمة الالهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوه . فمنها ما يدفع العدو بالقوة والمقاومة كالفيل والأسد والجاموس . ومنها ما يسلم من عدوه بالفرار فأعطى آلة الفرار كالظباء والأرانب والطيور .

ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كالقنفذ والشهم والسلحفاة .

ومنها ما يحفظ نفسه بحصن كالفأر والهوام .

ومنها ما يحفظ نفسه باللدغ أو الفرار أحيانا كالحية .

ومقتضى الحكمة الالهية أن الله تعالى خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائدا ولا ناقصا ولذلك اختلفت أشكالها وأعضاؤها وتنوعت أنواعها بأنواع كثيرة .(١)

ان عالم الحيوان عالم عجيب لا يستطيع الانسان - مهما أوتى من خبرة ومعرفة - أن يدركه أو يحصر أنواعه وأشكاله .

---

(١) انظر ص ٣٣٧ - ٣٣٨ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى ط٣ بتصرف .

ان الحيوان أمم أمثالنا : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم)[1].

وهذا ما يزيد نفوسنا حبا لله وتعظيما له ويزيد ايماننا عمقا ورسوخا به - جل جلاله - فكثرة الحيوان وتنوع أشكاله من عظمة الله واضافة الى هذا وذاك قال الله عز وجل (ويخلق ما لا تعلمون)[2].

قيل فى شرح هذه الآية[3] : من أراد أن يعرف معنى هذه الآية فليوقد نارا فى وسط غيطة بالليل ثم لينظر ما يغشى تلك النار من أنواع الحيوان فانه يرى صورا عجيبة وأشكالا غريبة لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئا منها فى العالم على أن الذى يغشى تلك النار يختلف باختلاف المواضع من الفياض والجبال والبحار والصحارى فان سكان كل بقعة تخالف سكان غيرها (وما يعلم جنود ربك الا هو)[4] فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأوضح برهانه لا اله الا هو سبحانه .

وكيف اذا أضفنا الى ذلك تلك المخترعات والآلات الحديثة التى ساعدت الانسان فى العصر الحديث على أن يكتشف ويعرف الكثير عن ذلك العالم المجهول قديما وأن يتمكن الانسان فى الشرق من رؤية الحيوانات الموجودة فى الغرب بواسطة الرأى أو التلفاز فيضيف الى معلوماته معلومات جديدة ويرى أنواعا

---

(١) آية ٣٨ ك الأنعام ٦
(٢) ٨ ك النحل ١٦
(٣) انظر ص ٣٣٩ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ط ٣ للقزوينى
(٤) آية ٣١ ك المدثر ٧٤

وأجناسا جديده من الحيوانات مما يجعله يزداد اعجابا أكثر بتلك المخلوقات وايمانا أعمق بخالق تلك المخلوقات سبحانه .

ثم يقسم القزويني (١) بعد ذلك الحيوان فى كتابه الى سبعة أنواع :

النوع الأول : الانسان

النوع الثانى : الجن

النوع الثالث : الدواب

النوع الرابع : النعم

النوع الخامس : السباع

النوع السادس : الطير

النوع السابع : الهوام والحشرات .

فهو يجعل الانسان فى أعلى المراتب بين هذه الكائنات الحيه بل وأشرف هذه الحيوانات اذ يقول : (اعلم ان الانسان مجموع مركب من النفس والبدن وأنه أشرف الحيوانات وخلاصة المخلوقات ركبه الله تعالى فى أحسن صورة روحا وبدنا وخصصه بالنطق والعقل سرا وعلنا وزين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى وباطنه بالقوى ما هو أشرف وأقوى وهيأ للنفس الناطقة الدماغ وأسكنه أعلى محل وأوفق رتبه وزينه بالفكر والذكر والحفظ وسلط عليه الجواهر العقليه لتكون النفس أميره والعقل وزيره) (١) .

وبعد أن جعل الانسان فى أعلى المراتب من بين سائر الحيوانات الأخرى ، بين التفاوت بين بنى الانسان نفسه فى المكانه : (والنفوس الانسانية متصله أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية) (٢) .

---

(١) ص ٣٣٩ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ط ٣ للقزوينى

(٢) المصدر السابق

هذه هى التعاريف وتلك هى الأقسام لكلمة حيوان الا أن مفهوم كلمة حيوان لدى الكثير منا تعنى فقط تلك المخلوقات التى نراها فى هذا الكون الفسيح ، فى البر والبحر ، فوق الأرض وتحتيها تعنى تلك النعم والدواب والطير والسباع والحشرات والهوام ، وتلك المخلوقات هى موضوع بحثنا ولكن فقط تلك التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، كيف تحدّث القرآن عنها وما غرض القرآن من خصها بالذكر أو ما هى المقاصد البيانيه والتربوية من ذكر القرآن للحيوان وهل اختلف حديث القرآن عنها وتناوله لموضوعها عما كان عليه الناس قبل وبعد نزول القرآن الكريم ؟

هذا ما سنلقى عليه الضوء مستمدين من الله العون طالبين منه السداد ونيل المراد فهو الخالق لهذه المخلوقات وهو المجيب للدعوات . }

الفصـــل الأول

الحيوان فى العصور القديمة .

الحيوان فى الأدب الجاهلى.

أولا : الحيوان فى العصور القديمة

ان علاقة الانسان بالحيوان علاقة قديمة فقد جاور النافر والطائر والصاهل والسانح والسائح وراعه منها الناب وراقه منها موشى الاهاب (وربما رأى فـــى قرونها السلاح وفى أظلافها الكد والسعى ، وفى ثغائها السرور والخصب ، وفى ركضها المنعة والعزة ، وفى أجنحتها النهوض ثم صارعها و ختلها فى بطون الأوديه وعلى سفوح الجبال ، ورآها وهى تطوف بالقتيل وتلعق الدم وتأكـــل الجيفه وتثب وتصيح ، وتغرد وتنوح ، واتخذ من جلودها البيوت ،ومن أوبارها وأشعارها الكساء .

وكان له فى كل منها آية فمنها ما كان سببا من أسباب الوحشه ومنها مـا كان سببا الى الأنس والرحمة ، وقد عبدها حينا ثم كفر بها ، وامتدت اليهـا القدسيه ثم نزعت منها ، وبقيت آثار ذلك فى الأساطير التى توارى أكثرها مـن المعجم العربى وضربت لها الأمثال وذكرت بها الطبائع والصفات)[١] .

غير أن أهم جانب فى تلك العلاقه بين الانسان والحيوان هو الجانب الدينى اذ لو توغلنا فى التاريخ العربى القديم فى الفترات التى سبقت الفترة التى تسمى بـ (العصر الجاهلى) - والتى تحدد بـ ١٥٠ عام تقريبا قبل الاسلام - لنعرف تلك الجذور لوجدنا أن(الحيوان من بين الصور المهمه لمعبودات الانســـان

---

(١) ص ١٤١ - ١٤٢ عبقرية العربية د . لطفى عبد البديع .

القديم ، فهو اما طوطم الجماعة وجدها الأعلى ، واما معبودها الممثل والرمز للاله السماوى : الكوكب الذى تتوجه اليه الجماعه فى صلواتها)[١].

اذا فالحيوان هو الرمز للاله السماوى أو الكوكب السماوى ، والكواكب هى تقريبا أولى المعبودات التى عبدها الانسان القديم - عن جهل منه - من دون الله اذ (رأى بعض العلماء أن عبادة الجاهلية هى عبادة كواكب فى الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهه ، وان تعددت وكثرت ، الا أنها ترجع الى ثالوث سماوى ، هو : الشمس والقمر والزهره . وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هى الشمس ، ومن ابن هو الزهره . وذهبوا الى أن أكثر أسماء الآلهة ، هى فى الواقع نعوت لها ، وهى من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله فى الاسلام)[٢] تعالى الله وتعالت اسماؤه وما دام ان للحيوان علاقة بتلك الكواكب والتى هى الأصل فى عبادة كثير من العرب فى الديانات القديمة اذا فلابد أن نعرف تلك العلاقة - بايجاز - لكى نعرف من خلالها علاقة الانسان بالحيوان كيف تكونت وكيف تطورت على مر العصور بتطور الفكر الانسانى وباختلاف ظروف الحياة فى كل زمان .

لقد كانت ديانة العرب ديانة تعبد فيها الكواكب - كما أسلفنا - فقد عبدوا ثالوثا مكونا من : الشمس اما والقمر أبا والزهرة (عشتر) ابنا لهما . وقد استدل الدكتور (جواد على)[٣] على تدرّج انبهار سيدنا ابراهيم عليه السلام

---

(١) ص ١٢٣ الصوره فى الشعر العربى د . على البطل .

(٢) جـ ٦ / ٥٠ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠

عندما رأى كوكبا فقال عليه السلام : (هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما انا من المشركين) (١) .

أقول ان الدكتور جواد على استدل على أن معنى هذا التدّرج هو ان سيدنا ابراهيم عليه السلام قد تعبد لثلاثة كواكب قبل أن يهتدي الى التوحيد هي : القمر والشمس والمشترى أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين (٢) . الا انه ليس بالبعيد أن يكون ما حكاه القرآن عن ابراهيم عليه السلام في الآية السابقة قبل أن يهتدي الى عبادة اله واحد هو مسلك تربوى سلكه عليه السلام لا أنه كان معتقدا كما حكى عنه وانما أراد أن يبين لقومه عيوب هذه الكواكب التي إتخذوها آلهة لهم من دون الله المستحق للعباده . وهذا المعنى يقويه قوله تعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) (٣) .

واذا سلمنا بما قاله المفسرون فاني أرى الا نقول أن سيدنا ابراهيم عليه السلام (قد تعبد لثلاثة كواكب) وانما نقول : (انبهر بثلاثة كواكب وأراد أن يعبدها) ذلك انه عليه السلام كان في مجال البحث عن الحقيقة ولم يهتد بعد ، ويساعد على هذا المعنى تعاقب الكواكب فبمجرد رؤيته للقمر الذي رآه أكبر حجما واشد تلألؤا من الكوكب (الزهره) ظن أنه أولى بالعباده ولم يستقر بعد فبمجرد اختفائه (فلما أفل) ورأى الشمس وهي مشرقه وانها أكبر وأشد

---

(١) آية ٧٥ وما بعدها من سورة الأنعام.
(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٥٨ وما بعدها) تفسير القرطبي ، الجامع ٧/ ٢٥
(٣) آية ٥١ ك الأنبياء ٢١

ضياء وتلألؤا من القمر ظن أنها أولى بالعباده فلما اختفت (أفلت) اهتدى للحقيقه اذ أن الاله لا يختفى فتوجه اليه بوجهه وقلبه - الى الاله المستحق للعباده - اينما كان فانه سيهديه (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) . اضافة الى ذلك ان الله سبحانه قد عصم أنبياءه من الخطأ ، والتعبد للكواكب - أو أى شىء من دون الله - من أكبر الأخطاء بل ان الاشراك بالله ظلم عظيم لا يغفره الله ولا يمكن أن يفعل الأنبياء هذا الظلم العظيم - حتى قبل أن يكونوا أنبياء - لأن الله قد طهر قلوبهم واصطفاهم من بين سائر خلقه ، وانما أراد الله سبحانه بهذه الآيات أن يبين كيف كان الجهل مطبقا فى تلك الفترة وكيف نجا منه سيدنا ابراهيم عليه السلام لأنه أخلص قلبه لله ولم يترك العنان لنفسه أن تنساق وراء تلك العبادات الباطله مثل الكواكب التى انبهر بضيائها وجمالها بقية القوم فى ذلك العصر فتعبدوا لها ، وكان فى ذلك الموقف امتحان من الله لسيدنا ابراهيم عليه السلام خرج منه بسلام (مجرد انبهار بالكواكب وليس عبادة لها) أو ربما كان عليه السلام متعمدا فعل ذلك - كما أسلفنا - بأن قصد أن يسلك مسلكا تربويا بدافع من نفسه بعد أن هيأه الله لرؤية الحقيقة ولم يكن عليه السلام معتقدا ما حكى عنه من عبادة للكواكب بل كان قاصدا من هذا المسلك تعقيبا لعبادة أى معبود من دون الله مهما عظم كالشمس والكواكب الأخرى اذ ما هى الا مخلوقات للخالق الكبير وهو الله سبحانه ، كما قصد عليه السلام من هذا المسلك التربوى أن يرى قومه كيف أن الانسان يتميز عن الحيوان بعقله وأنه يستطيع أن يصل الى الحقيقة حتما اذا أراد ذلك لا أن يكون تابعا لغيره دون تفكير كالحيوان فلا يعرف ان كانت تلك العبادة صحيحة أم باطله فقط كلما يعرفه عنها أنه وجد عليها

آباءه وأجداده فعبدها مثلهم ومن ثم تدّرج معهم عليه السلام فى الانبهار بتلك الكواكب من الأصغر الى الأكبر فالأكبر ليصل معهم الى أن هناك من هو أكبر من كل شىء وخالق لكل شىء الله المستحق للعباده ولكن بأسلوب جميل فى ذلك المسلك التربوى فلو أنه عليه السلام طلب منهم أن يقلعوا عن عبادة الكواكب بالأمر لكان الفشل فى هذا الطلب ولكنه عليه السلام استطاع بذلك المسلك التربوى أن يوجههم الى الطريق المستقيم حيث جعل من نفسه القدوه حيث توجه بقلب خالص طاهر ونفس صافيه مقتنعه/بعبادة كل تلك الكواكب رافعا يده الى من ينشله من ذلك الظلم/بالظلام الذى يتخبط فيه القوم ، توجه بكل كيانه الى المستحق للعبادة أينما كان : (إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) فكان فى ذلك المسلك التربوى وفى تلك النتيجة التى انتهى اليها الفصل بين الضياع والهلاك وبين أن يجد الانسان نفسه ويتعبد لخالقه المستحق للعبادة .

وقد بين الدكتور جواد على (١) أسباب اتخاذهم لتلك الكواكب وعبادتهم لها وتأثير هذه الكواكب - وخاصة الجرمين السماويين (الشمس والقمر) - فى طباعه وعمله وفى تكوين ليله ونهاره والفصول التى تمر عليه ، كما بين المواضع التى تعبد العرب فيها للشمس والتى تعبدوا فيها للقمر ولغيرهما من الكواكب وأسماء الكواكب التى عبدت غير الشمس والقمر وتعدد أسماء تلك الكواكب وما الى ذلك من شرح وتفصيل فى هذا الثالوث حيث يقول : (وقد عجزنا عن الاهتداء الى كيفية ظهور هذا الثالوث . أو العائلة الصغيرة المختاره المكونه من ذكرين

---

(١) جـ ٦/ ٥٠ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام .

وأنثى . لأننا لم نعثر على نص جاهلي أو غير جاهلي يتحدث عن كيفية ظهوره . وعجزنا عن التوصل الى علاقة أعضاء هذا الثالوث بعضهم ببعض ، وذلك لسبب ماثل ، هو عدم وجود نص لدينا يشرح لنا هذه العلاقة . ولم نتمكن من العثور على أي مورد يشرح لنا كيفية ظهور هذه الآلهة ولا سيما الاله (عثتر) الذي يعد ابنا للقمر وللشمس)[١] وقد عقّب هذا المؤلف على عبادة العرب لتلك الكواكب بقوله : (وقد هدم الاسلام عبادة الكواكب ، وحرم السجود للشمس وللقمر والصلاة لهما ، وحاول اجتثاث كل ماله صله بتلك العبادة ، فلم يبق اليوم من العرب من يتعبد للثالوث السماوي المقدس . ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون اذا سب أحدهم الشمس أو القمر)[٢] .

وهذه وقفة أخرى أقفها أمام تعليق المؤلف الجليل عند قوله :

(ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون اذا سب أحدهم الشمس أو القمر) اذ أنه قد يفهم من هذه الكلمات أن المؤلف الجليل يجيز سب الشمس والقمر وكلنا يعلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ومن الطبيعي أن يهدم الاسلام عبادتهما وعبادة غيرهما من الكواكب وأن يحرم كل ما يعبد من دون الله ، وقد بين الله سبحانه حقيقة تلك الآيات فقال سبحانه : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون)[٣] . اذا فهما قبل وبعد العبادة لهما آيتان من آيات الله كغيرهما من آيات الله الدالة عليه سبحانه وعلى قدرته وعلى عظمته التي ليس

---

(١) جـ ٦ / ١٧٣ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام .
(٢) جـ ٦ / ١٧٧ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام .
(٣) الآية ٣٧ فصلت ٤١

لها حدود فمن خلالهما نزداد ايمانا/ومن مراقبتهما والتأمل فيهما تمتلئ نفوسنا بالله تعظيما لله وفي نظامهما الذي يسيران عليه والذي لا يكل ولا يمل ولا يختل (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)(١) . في هذا النظام ما يجعلنا نخر ساجدين ليس لهما وانما لمن خلقهما الا وهو الله جل جلاله كما فعل سيدنا ابراهيم عليه السلام اذ اهتدى من خلالهما على خالقهما (فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم اني بريء مما تشركون)(٢) لقد أيقن سيدنا ابراهيم عليه السلام ان هذه الكواكب جميعها ما هي الا آيات ومن خلالهما اهتدى الى خالقهما بقوله : (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما انا من المشركين) اذا فليس معنى أن يغضب الانسان اذا سب أحدهم الشمس أو القمر ان هذا الغضب من بقايا ذلك الدين القديم الذي كانوا فيه عبّادا للكواكب ولكن قد يكون ذلك الغضب هو كما أسلفنا من باب تعظيم خالق هذه الآيات وليس من باب تعظيم تلك الآيات نفسها ، الا اذا حددنا أن أولئك الذين يغضبون لسب الشمس أو القمر انما هم يغضبون لتعظيم تلك الكواكب في نفوسهم وليس لتعظيم خالق تلك الكواكب كما يقول الدكتور جواد علي : (وقد لاحظ بعض السياح أن آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل ، حيث تتجلى في تقدير هذين الكوكبين

---

(١) ٤٠ يس ٣٦

(٢) الأنعام الآية ٧٥ وما بعدها .

وفى تأنيب من يتطاول عليهما بالشتم أو بكلام مسيئ وفى تعظيمهما من بين سائر الكواكب تعظيما يشير الى أنه من بقايا الوثنيه القديمة على الرغم من اسلام أولئك المعظمين)[١] .

وعلى أية حال ففى نظرى لا يجوز سب الكواكب سواء كان التعظيم لخالقها أم لها فالعيب ليس فيها لكى نسبها وانما هو فى نفوس الناس وفى عقولهم وما هى الا آيات من آيات الله تبارك وتعالى . . والذى يهمنا من هذه كله هو :

علاقة الحيوان بتلك العبادة أو بتلك الكواكب :

لقد نتج عن عبادة الناس فى العصور القديمة لتلك الكواكب أن ربطوا بين الثور الوحشى والقمر جاعلين منه رمزا على الاله (ود) أو(سين)أو(شهر) فقد وجدت فى معابد جنوبى الجزيرة العربية صورا للثور قدمها عابدوه قرابين للاله أو نذورا كانت عليهم ، ولقد عرف القمر باسم (ثور) . ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال)[٢] .

كما ربطوا بين المهاة - أنثى الثور الوحشى - وبين الشمس ، وأخيرا فقد ربطوا بين الفرقد - ابن الثور الوحشى والمهاة - وبين الزهرة التى كانوا يعتبرونها ابن الشمس والقمر)[٣] .

اذا فقد كونوا ثالوثا من الحيوانات يقابل ذلك الثالوث من الكواكب .

كان ذلك فى تلك العصور الموغله فى القدم ، أما فى العصر الذى تلى تلك العصور

---

(١) جـ٦ / ٥٧ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام . د . جواد على .

(٢) جـ٦ / ١٧٤ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام . د . جواد على .

(٣) جـ٦ / ٥٠-٥٧ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام . د . جواد على .

والذى يسمى بالعصر الجاهلى ويحدد بـ ١٥٠ عام قبل الاسلام فاننا نجد آثارا لتلك الأساطير القديمة ولذلك الثالوث من الحيوانات (الثور الوحشى ، المهاة ، الفرقد) نستطيع أن نتبينها من الشعر العربى الذى وصلنا - وخاصة المعلقات - اذ لا يزال محتفظا بآثار منها (لا يمكن أن تكون هى الدين القديم بالطبع ولكنها صورة - مهما اعتورها من تشويه ونقص - وثيقة الصلة به الى جانب تأثرها بنماذج فنيه سابقه عليها كانت أكثر اتصالا وتعبيرا عن هذه الطقوس الدينيه والسحريه الموغله فى القدم ، لذلك فهى تطلعنا - بدرجة لا بأس بها من الوضوح - على نظرة أسطوريه الى الثور الوحشى وقرائنه من الحيوان وترينا كيف يؤثر التقديس الدينى فى تركيب عناصر هذه الصور وتطور الحدث فيها)(١) .

هذا ما سنتبينه فى حديثنا الآتى عن الحيوان فى الأدب الجاهلى .

---

(١) ١٢٥ الصوره فى الشعر العربى . د . على البطل .

الحيوان فى الأدب الجاهلى

لقد انتهينا فى كلامنا السابق الى أن التاريخ لم يحفظ لنا شيئا من الشعر العربى القديم وأن الأرض لم تكشف بعد عما تكن من أسرار حفريات العرب القدماء ، الا أن هناك أملا فى اكتشاف أسرار حفرياتهم عن طريق المكتشفات التاريخية فى مستقبل الأيام !

أما الشعر العربى الجاهلى فقد كان له حظ وافر مع التاريخ اذ وصلنا الشىء الكثير منه ، وبتتبعنا لما وصل من هذا الشعر نجد أنه لا يزال محتفظا بآثار من الطقوس والأساطير القديمه التى نتج عنها تكوين ذلك الثالوث من الحيوانات = (الثور الوحشى ، المهاة ، الفرقد) كما سنجد آثارا لحيوانات أخرى فى العصر الجاهلى غير حيوانات ذلك الثالوث وهذا هو محور بحثنا اذ سنلقى الأضواء الخفيفه على أدب ذلك العصر لنرى الحيوان فى ركضه وسكونه ، فى فزعه وسروره ، فى انتمائه الى أفراد جنسه وفى علاقته بالانسان ، ذلك أن الأدب هو المرآه التى تعكس حياة الشعوب ، ولكى نعرف الحيوان فى الأدب الجاهلى لابد أن نتعرف على تلك الحقبه التى مر بها التاريخ أو تلك الحقبه التى مر بها الأدب العربى فأثرى منها ثراء حسنا ، اذ ظهر فى تلك الحقبه نخبة من الشعراء العظام جادوا بقريحتهم أو أن قريحتهم جادت عليهم أو على الأدب العربى بمادة نادرة غنية ومن هؤلاء : امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم بدون حصر وكان لهؤلاء جميعا دور كبير فى اعطائنا صورة واضحة للحياة التى كانوا يعيشونها أو دور كبير فى معرفة الدور الذى لعبه الحيوان فى حياتهم وقيمته بالنسبة لهم ومدى اعتمادهم عليه ، أى أننا نستطيع أن نتعرف من خلال

شعرهم على الحيوان فى حياتهم أو فى الأدب الجاهلى اذ الحيوان جانب من جوانب الطبيعة الحيه الذى طالما ألهم الشعراء والأحاسيس الصور ليس فى العصر الجاهلى فحسب وانما فى كل عصور الأدب العربى ولم يكن لهذا الجانب الأدبى الطريف فى الأدب الجاهلى حظ فى القاء الأضواء عليه كما ينبغى فى الدراسات المعاصره حيث غفل عنه الدارسون غفلتهم عن دراسة موضوع الحيوان فى الأدب العربى ككل ، ويرجح البعض (١) هذه الغفلة عن دراسة موضوع الحيوان فى الأدب العربى الى الاستهانة بشأن الحيوان أو الازراء بنفعه فى الحياة . واذا عدنا الى ما قلنا بأن الأدب يمثل حياة البيئة التى ينشأ فيها ترى من خلال ذلك أن الحيوان كان له شأن كبير فى البيئة العربية فى العصر الجاهلى اذ كان يمثل المنفعة والمتعه والجمال والخيال ومن هنا انعكسب تلك الصورة فى الأدب الجاهلى اذ لا تكاد تخلو قصيدة فى الشعر الجاهلى من ذكر الحيوان - نجد ذلك واضحا فى شعر المعلقات - ذلك أن نظر الشاعر فى البيئة كان مصوبا الى الحيوان فى كل سبيل فقد كان يعيش وسط الطبيعة والتقاؤه بها كان مباشرا وطويل الأمد حيث لا تحجبه عنها جدران ولا تستره ستور ومن ثم كانت الفرصة متاحة لأن يعايش الحيوان ويتعرف على طباعه ، وأن يلعب الحيوان دورا كبيرا فى حياته فكان طبيعيا أن يجد له مكانة فى خياله الشعرى كما كان يجد له هذه المكانة فى حياته الواقعية .

وفى بحثنا هذا سنتبين - كما قلنا - هذه الصورة التى رسمها هذا الشعر الجاهلى للحيوان ونلم بمعالمها من حيث الكم والكيف ومن حيث الشكل والمضمون

---

(١) د . مصطفى عبد الواحد . الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان ص (أ) المقدمه .

وعلاقتها بالحس والعاطفة ، ونقنع فى هذه الصورة بالشاهد ونجتزىء بالمثل دون اللجوء الى الاستقصاء والجمع فليس هذا مجال بحثنا وانما هو مدخل الى بحثنا .

ولكى يتم لنا ذلك لابد من تحديد ما يلى :

أولا : اطار صورة الحيوان فى الشعر الجاهلى أو المجالات التى أحاط بها هذا الشعر من حيث أجناس وأنواع تلك الحيوانات التى اشتملت عليها تلك الصورة .

ثانيا : طريقة تناول الشاعر الجاهلى لموضوع الحيوان .

أما الاطار أو الآفاق التى أحاط بها هذا الشعر (فانها آفاق البيئة الصحراوية لا تعنى الا بما يقع تحت الحس وتتكرر صورته فى مشاهد الحياة ، ليس فيها نزوع الى الغريب ولا بحث عن الطريف والنادر ، فلا ترى فيها الا صوره للواقع الذى يلمسه العربى ويتعامل معه) (١) .

اشتملت تلك الصورة على الحيوانات المألوفة التى تمثل جانب المنفعة فى حياة الصحراء وأهمها : الناقة والفرس وهما أكثر ما صوره شعر الجاهلية من حيوان البيئة ، فقليلا ما تذكر الحمر فى الشعر الجاهلى ، واذا ذكرت فهو البيت المفرد والاشارة العابره ، وقليلا ما يعمد الشاعر الى وصف الحيوانات الأليفة الأخرى رغم منفعتها كالغنم والماعز . . كما اشتملت على الأوابد المفترسه والمتوحشه واقتصرت منها على ما تعرفه البيئة كالحمر والبقر الوحشية ، والظباء والذئب والضبع والحيه ، وخلت أو كادت مما لا يكثر فى تلك البيئة أو ينعدم كالأسد والفيل والثعلب) (٢) .

---

(١) ص ٢ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

(٢) ص ٢ الدراسات الأدبية فى مضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

أما منهج الشاعر الجاهلى فى تناول موضوع الحيوان فهو (منهج الوصف الحسى الذى لا يعدو المهارة فى تحديد الأوصاف وتوضيح الصور الحسية)[١] . ذلك أن الشاعر الجاهلى بارع فى نقل الصورة التى أمامه - كما يتضح لنا ذلك من عرض نماذج من الشعر الجاهى - فاذا ما رأى أمامه صورة لحيوان ما وأراد أن يصفه أفاض فى ذلك الوصف بدقة ومهارة وجسم ذلك الحيوان وكأننا نراه أمامنا بعد أكثر من أربعمائة وألف عام !!

فبكلماته الشعرية يرسم تلك الصورة فيجعلنا أمام لوحة مجسمة ولكن !! دون مزج تلك الصورة بمشاعره وأحاسيسه وانطباعه النفسى فهى مجرد صورة خارجية لا تمت الى داخل نفسه بصله ، وهو مجرد ناقل لتلك الصورة وهمه أن تكون الصورة التى يرسمها قريبة من الواقع وأن يفلح فى تجسيمها فهو بهذا كالكاميرا التى تنقل الصورة بدقة وأمانة واتقان دون اضافة مشاعر أو انطباع عليها فليس هذا ما يعنى الشاعر الجاهلى وانما الذى يعنيه هو رسم تلك الصورة التى يراها وتوضيح معالمها بأى طريقة ، وأهم طريقة استعملها الشاعر الجاهلى فى توضيح صورة الحيوان التى رسمها هى (التشبيه) اذ كان الأداة المفضله لدى الشاعر الجاهلى وكان له دور كبير فى نقل تلك الصورة . واذا أردنا تطبيقا لهذا الكلام وأهم من ذلك بحثا عن الحيوان الذى ذكر فى الأدب الجاهلى فليس أمامنا أمثل من (المعلقات السبع) فهى أشهر ما عرف عن الشعر الجاهلى .

---

(١) ص ٢ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان - د . مصطفى عبد الواحد .

المعلقـــــات

اذا ما طالعنا هذه المعلقات بحثا عن الحيوان فيها فاننا نجد لوحات جميلة بديعه مختلفة المناظر لحيوانات متنوعة كما أننا نجد تطبيقا لكلامنا السابق وهو : ان شعراء هذه المعلقات كغيرهم من شعراء العصر الجاهلى فى تصويرهم للحيوان (وان اختلفت الجوانب التى يهتم بها كل منهم فى رسم صورته ، الا انهم يلتقون جميعا عند الوصف الحسى ويبتعدون عن التأمل والايحاء)(١) .

وشعراء المعلقات هم : امرؤ القيس . طرفه بن العبد . زهير بن ابـى سلمى . لبيد بن ربيعه . عمرو بن كلثوم . عنترة بن شداد . الحرث بن حلزه .

صور الحيوان فى معلقة امرىء القيس(٢)

امرؤ القيس كما نعلم شاعر مجيد ومصور بارع فى الوصف فى العصر الجاهلى ولد فى أوائل القرن السادس للمسيح فى نجد ، وفى معلقته هذه التى مطلعها :

قفا نبـك من ذكرى حبيب ومنـزل

بسقط اللوى بـين الدخـول فحومـــل

نراه يجمع مناظر مختلفه عن حيوان البيئه منها الأليفه المألوفه ومنـها الحيـــوان الوحشى الآبـد .

وامرؤ القيس كغيره من شعراء عصره لا نكاد نحس أنه يفارق منهج الوصف كما لا نجد اختلاف بينه وبين بقية الشعراء فى أسلوب التناول !

---

(١) ص ه الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان ـ د . مصطفى عبد الواحد .

(٢) ص٢٩ وما بعدها . ديوان امرىء القيس. دار بيروت للطباعه والنشر ، ١٩٣٢ هـ ١٩٧٢م.

الصورة الأولى (١) في معلقة امرىء القيس

" ذئب جائع "

وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى : ان شأننا ... قليل الغنى ان كنت لما تسوّل

كلانا اذا ما نال شيئا أفاقه ... ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ففي هذه اللوحه يخبرنا بأنه قد قطع وادياً خالياً من النبات والأنس فيلجأ الى التشبيه حيث أراد أن يصف الذئب في الوادى القفر الخالى من النبات والأنس فيشبه هذا الوادى الخالى بجوف العير وهو الحمار الوحشي اذا خلا من العلف ، وقيل بل شبهه في قلة الانتفاع به بجوف العير لأنه لا يركب ولا يكون له در ، وزعم صنف منهم انه أراد كجوف الحمار ففير اللفظ الى ما وافقه في المعنى لاقامة الوزن ، وزعموا أن حمارا كان رجلا من بقية عاد وكان متمسكا بالتوحيد فسافر بنوه فاصابتهم صاعقة فأهلكتهم فأشرك بالله وكفر بعد التوحيد فأحرق الله أمواله وواديه الذى كان يسكن فيه فلم ينبت بعده شيئا ، فشبه امرؤ القيس هذا الوادى بواديه في الخلاء من النبات والأنس) يقول : رب واد يشبه وادى الحمار في الخلاء من النبات والأنس أو يشبه بطن الحمار ، طويته سيرا وقطعته وكان في هذا الوادى ذئب يعوى من شدة الجوع وهنا يعود مرة أخرى في البيت نفسه الى

---

(١) ص ٥٠ - ٥١ معلقه امرىء القيس . دار بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م .

(٢) الوادى : يجمع على الأودية والأوديات
العير : الحمار والجمع الأعيار
الذئب : يجمع على الذئاب والذياب والذؤبان .
الخليع : الذى خلعه أهله لخبثه .
المعيل : الكثير العيال .

استعمال التشبيه المفضل عنده حيث يشبه هذا الذئب الجائع بالمقامر الذى كثر عياله وهم يصيحون حوله ولا يجد ما يسد جوعهم به فيصيح بهم ويخاصمهم ثم يخبر بأن هذا الذئب يشبهه فى قلة التمول ومن ثم يصل الى غرضه من خلال تلك الوحة .

الصورة الثانية

" لفرس امرىء القيس "

وقد اغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل

على الذبل جياش كأن اهتزامه ... اذا جاش فيه حميه غلى مرجل

مسح اذا ما السابحات على الونى ... اثرن الغبار بالكديد المركل

يزل الغلام الخف عن صهواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقل

دريرٍ كخذروف الوليد امره ... تتابع كفيه بخيط موصل

له ايطلا ظبى وساقا نعامة ... وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ضليع اذا استدبرته سد فرجه ... بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

كأن على المتنين منه اذا انتحى ... مداك عروس أو صلاية حنظل

كأن دماء الهاديات بنحره ... عصارة حناء بشيب مرجل

لما كان للجواد أهمية قصوى فى حياة العربى فى العصر الجاهلى حيث كان يمثل أهمية السيارة والطيارة والقطار وجميع الوسائل السريعة فى العصر الحديث فقد انعكست تلك الأهمية فى الشعر الجاهلى فما الشعر الا صورة للحياة فى ذلك الوقت ومن هذه الأهمية كان تعلق العربى بالجواد اذ ما تعلق بشىء

(تعلقه بهذا الحيوان وما **ايهم شيئا ابهامه** لحقيقته ، فالخيل جمع لا واحد له من لفظه ، وواحده الفرس ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وللذكر بعد ذلك الحصان وللأنثى حجر) .(١) ومن ذلك التعلق تعلق العربى بالجواد كان الجواد محل لأقصى اهتمام ورعاية فى الشعر الجاهلى سواء فى مجال الصيد أو الحرب ، اذ أن هذين هما الغرضين الرئيسيين اللذين يعد من أجلهما الجواد .

وفرس امرىء القيس هنا جواد صيد لا جواد حرب ، وعلى هذا فقد كانت لامرىء القيس طريقة تختلف عن طريقة من يصف جواد الحرب ألا وهى

(التفصيل فى الوصف فى مجال الصيد)

وتعليل ذلك التفصيل ان رحلة الصيد والتريض (تتيح للشاعر أن يخلو بنفسه وحصانه اذ أنه لا يباشر الصيد ولا رفاقه ، وانما يقوم لهم بذلك الغلمان ، وليست الرحلة كلها حركة فهم يعقدون على مواقع الغيث مبكرين - حيث مظنة وجود الحيوان البرى . والجواد عماد مثل هذه الرحلة وأساس القيام بها ، وهو عدة الصيد وأداته . لذلك يذهب الشاعر كل مذهب فى تفصيل صورته ويظهره فى شكل مثالى . كأنه النموذج الذى خلقت الخيل على مثاله ، وقلما يخلو شعر شاعر من هذه الصورة ، نراها فى شعر : بشر بن ابى حازم ، وزهير ، وامرىء القيس ، والأعشى وفى شعر المفضليات) .(٢) واذا أردنا مثالا على ذلك التفصيل فى وصف الفرس فان امرأ القيس خير من نجتزىء بتصويره لجواد الصيد خاصة اذا عرفنا أنه ما نال شهرته

---

(١) ص ٢١١ عبقرية العربية - د . لطفى عبد البديع .

(٢) ص ١٥٥ الصورة فى الشعر العربى - د . على البطل . دار الأندلس

الذائعة كشاعر الا بهذا الوصف لحصانه ، فقد كان أول من قيد الأوابـــــد

حيث يقول :

وقد اغتدى والطير فى وكناتهـــا بمنجرد قيد الأوابد هيكـــــل

لقد باكر الصيـــــد قبل نهوض الطير من أوكارها على فرسه المنجرد أى الماضى فى السير حيث جعله لسرعة ادراكه الصيد أو الوحوش كالقيد لها لأنها لا يمكنها أن تسرع أكثر من سرعته فتهرب منه فقد لحق بها بل وتعدى آخرها ولحق بأولها هروبا وهى بعد لم تتفرق فشلّ حركتها وجعلها كالمقيده ليمكن صاحبه من صيـــد ما يشاء منها وهى فى الواقع ليست مقيدة ولكنها مذهولة من هذا الذى يركـــض خلفها فاذا به أمامها وهى فارة منه أو من صاحبه تطلب النجاة وتأمل فى البقاء ! ومن هذا التصوير البارع فى جعل الوحوش مقيدة للفرس نال امرؤ القيس شهرته فى الشعر حيث اعتبر أول من قيد الآوابد .

فأية سرعه لحصان بعد هذه السرعة ؟

أو أية تصوير للسرعة بعد هذا التصوير ؟

هذا هو المطلوب فى فرس الصيد : السرعه والخفة والرشاقة ليتمكن صاحبه من صيد ما يريد بيسر وسهولة .

ولم تكن السرعه هى الصفة الوحيده التى تغنى بها امرؤ القيس فى فرسه وفخر ، بل ان هناك صفات عديدة لفرسه جمعها فى هذه اللوحة . اذ انصرف فى هذه اللوحة (عن أمر الرحله كلها الى تصوير حصانه انصرافا يشعر بمـــدى اعزازه له ، حتى انه ليأخذ عليه خياله ، ويملأ عليه نفسه اعجابا ، فيمضى مع كـــل عضو من أعضائه واصفا مصورا حتى انه فى النهاية يجمع لنا فى حصانه حيـــوانات عديده ، بل عدة موجودات من الأحياء والجماد ، وكأنه يخلق لهذا الجواد صورة

اسطورية ينفرد بها ، ويجمع له صفات العتق والكمال دائما ، فهو قصير الشعر ، ضخم الجسم ، فائق السرعة ، لا يكل مهما عدا)[١] .

ولقد أشرنا سابقا الى أن العرب قد ربطت بعض الحيوانات بالكواكب نتيجة لاعتقاداتهم ودياناتهم القديمة ، ونضيف الآن (الفرس) اذ كان من بين تلك الحيوانات العلويه التى صورت بها الكواكب عند العرب القدماء ، وظهر الفرس فى ثلاث صور ، لا مجال لذكرها هنا[٢] الا أن الدكتور لطفى عبد البديع يعلق على ذلك بمفهوم جديد فيقول :

(واذا كانت الصورة الفلكية للفرس فى السماء تمتد على هذه الأشياء فلا عجب أن تتدفق المثاليه فى الأرض بالمطر والماء ، ومعلقة امرىء القيس التى بدأ فيها النقد واعاد دون أن يبلغ شيئا من حقيقتها لا يتضح معناها الا بذلك ، فهى أنشودة كونيه للمطر وابتهال للأطلال ، والفرس فيها قطب الرحى تتدافع فى سياقه الأنثى والوليد ، والصخرة والظبى ، والنعامة والذئب ، والصباح والليل وموج البحر ، لأنها من معالم الحياة التى تريد أن تدمر الموت ، والبقاء الذى يغالب الفناء)[٣] .

وبعد أن انتهى امرؤ القيس من تصوير حصانه تصويرا يجعله وكأنه أمامنا ، ووصفه عضوا عضوا حتى كاد - أو خيل لنا أنه كاد - أن يرضى نفسه فى فخره به واعزازه له نراه يصف قطيعا من بقر الوحش أو اناث الضأن فيقول :

فعن لنا سرب كأن نعاجه ... عذارى دوار فى ملاء مذيّل

فادبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد معم فى العشيرة محول

---

(١) ص ١٥٥ - ١٥٦ - الصورة فى الشعر العربى - د . على البطل .

(٢) انظر كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٢٦ ط الحلبى .

(٣) ص ٢١٣ عبقرية العربية - د . لطفى عبد البديع . ط ١٩٧٦/١م .

فهل هذه هى الصورة الثالثة لذكر الحيوان فى معلقة امرئ القيس ؟ مهلا !!

لقد ظننا أنه قد انتهى من وصفه لحصانه وأن نفسه قد رضيت بما صور ، ولكن الواقع أنه ما وصف تلك النماج الا ليعود من خلال وصفه لها الى وصفه لحصانه !!

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

أنه يعود الى أبرز صفه فى حصانه وأحب صفة عنده بل ومحور الفخر به ألا وهى (السرعه) ، اذ يخبر بأن فرسه يلحق بأوائل الوحش ويدع متخلفاته ، وهذه كناية عن شدة جريه وقوة عدوه اذ يدرك أوائلها وأواخرها وهى فى (صرة) أى مجتمعة لم تتفرق بعد !!

وأخيرا يختم ذلك الوصف والتصوير لحصانه غير راغب فى تحويل نظرة عنه ورؤية غيره من الموجودات ولكن لا بد وأن يكون لكل شيئ نهاية ولكل حديث خاتمة ، خاصة وأنه قد عجز عن ضبط حسنه واستقصاء محاسن خلقه :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسفل

فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعينى قائما غير مرسل

فودع صورة فرسه الرائع بتلك الحقيقه (متى ترق العين فيه تسفل) اذ أنه لحسنه وجماله كلما نظر الانسان الى أعالى خلقه أى جسمه من أعلى ، اشتهى أن ينظر الى قوائمه ليرى ما عسى أن تكون تلك القوائم التى تحمل ذلك الجسم الرائع القوى ، فهو كامل الحسن رائع الصورة وتكاد العيون تقصر عن كنه حسنه وجماله !!

صور الحيوان فى معلقة طرفه بن العبد

كان طرفه بن العبد فى حسب كريم وعدد كثير وكان شاعرا جريئا على الشعر ومن أحدث الشعراء سنا وأقلهم عمرا اذ قتل وهو ابن عشرين سنة فسمى ابن العشرين وقصيدته التى أولها :

لخولة أطلال ببرقة شهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

هى المعلقه الثانية من بين المعلقات السبع بعد معلقة امرىء القيس وقد قالها فى البحرين بعد أن أمر الملك عمرو بن هند بقتله حيث هجاه ببعض الشعر . والذى يهمنا من هذه المعلقه ما فيها من لوحات للحيوان اذ بعد تصفحنا لها وجدنا أن بها أربع لوحات :

الصورة الأولى (١)

فى معلقة طرفه لناقة عشيقه طرفه بن العبد

وفى هذه اللوحه يشبه الأبل وعليها هودج العشيقه المالكية غدوة فراقها بالسفن العظام :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من ردد

عدولية أو من سفين ابن ساميه يجور بها الملاح طورا ويهتدى

يشق حباب الماء خير ومهايها كما قسم الترب المغايل باليد

---

(١) ص ٦٢ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(١)
الصورة الثانية فى معلقه طرفه بن العبد

" لناقة طرفه بن العبد "

ويصف فيها ناقته فى ثمان وعشرين بيتا على غير العادة اذ كانت الناقه عادة ما تختفى بمجرد ذكرها فى القصيدة وراء رمز من الرموز المقدسه الا أن هناك صور نادرة توصف فيها الناقه لذاتها ومن هذه الصور النادرة هذه اللوحه فى معلقة طرفه بن العبد حيث يقوم باستقصاء دقيق فى وصف ناقته ويبين محاسنها وقدرتها على تحمل الصعاب فى الفلوات التى جعلته يظن أنه هالك :

وانى لامضى الهم عند احتضاره بعوجاء (٢) مرقال تروح وتغتدى

ويستمر فى وصف مظهرها العام :

أمون كألواح الاران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

جمالية وجناء تردى كأنها سفنجة تبرى لأزعر أربد

وفى هذه اللوحة تظهر بعض الحيوانات الأخرى التى يشبه ناقته بها كما فى البيت السابق حيث شبه ناقته فى عدوها بنعامة تعرض لظليم قليل الشعر يضرب لونه الى لون الرماد .

تبارى عتاقا ناجيات واتبعت وظيفا وظيفا فوق سور معبد

وبعد فخره لسرعتها يبين عنايته بها فى المرعى :

تربعت القفين فى الشول ترتعي حدائق مولي الأسرة أغيد

---

(١) ص ٦٥ شرح المعلقات السبع للزوزنى

(٢) العوجاء الناقه التى لا تستقيم فى سيرها لفرط نشاطها .

أما بالنسبة لخلقها مع أفراد جنسها فهى تحافظ على جسمها ليبقى قوى قادر على السير والسرعة وهذا ما يود الوصول اليه طرفه فى وصفه لها اذ جميع الأوصاف تخدم ذلك الغرض ومحافظتها على جسمها بأنها لا تمكن الفحل الذى يصفه بأن حمرته تضرب الى السواد متلبد الوبر فلا تمكنه من ضرابها واذا لم يصل الفحل الى ضرابها لم تلقح واذا لم تلقح كانت مجتمعة القوى وافرة اللحم قويه على السير والعدو ، ترعى وترجع الى راعيها حيث أنها ذكية القلب :

تريع الى صوت المهيب وتتقي بذى خصب خصل روعات أكلف ملبد

وذيلها ضاف كثير الحركه فتارة تضرب به على عجزها خلف ردیف راكبها وتارة تضرب على اخلاف متشنجة خلقة كقربه باليه وقد انقطع لبنها :

كأن جناحى مضرحي تكنفا جفافيه شكا فى العسيب بمسرد

فطورا به خلف الزميل وتارة على حشف كالشن ذاو مجدد

ثم يصف فخذاها بأنهما تاما الخلق :

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا حتيف ممرد

وفقار ظهرها قويه متراصفة متداخله كأن الأضلاع المتصله بها قسى ولها باطن عنق ضم وقرن الى خرز عنق قد نضد بعضه على بعض :

وطي محال كالحنين خلوفه واجرانة لزت بدأى منضد

وصدرها عريض :

كأن كناسى ضالة يكنفانها واطر قسي تحت صلب مؤيد

ومرفقاها مفتولان قويان بعيدان عن جنبيها فكأنها تمر مع دلوين من دلاء

الدالجين الأقوياء ، شبهها بسقاء حمل دلوين احداهما بيمناه والأخرى بيسراه فبانت يداه عن جنبيه ، شبه بعد مرفقيها عن جنبيها ببعد هاتين الدلوين عن جنبى حاملهما القوى الشديد :

لها مرفقان افتلان كأنهـــا تمر بسلمى دالج متشـــــدد

وجوفها :

كقنطرة الرومى اقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمـــد

وشعر لحييها ضارب بحمرة :

صهابية العثنون موجدة القرا بعيدة وخـــد الرجل موارة اليد

انما أن العثنون الشعرات تحت لحييها الأسفل والصهبه أن الحمرة ويجوز فى كلمة صهابية الرفع والجر ، أما الرفع فعلى أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : هى صهابية العثنون ، وأما الجر فعلى الصفه لعوجاء أى : أمضى الهم بعوجاء صهابية .

ويداها شديدتان ، وعضداها بارزان فكأنهما سقف اسند بعضه لبنه الى بعض:

امرت يداها فتل شزر واجنحت لها عضدان فى سقيف مســـــند

وهذا التركيب فى جسمها يساعدها على السير السريع :

جنوح دفاق عندل ثم افرعت لها كتفاها فى معـــالى مصعـــد

انها شديدة الميلان عن سمت الطريق لفرط نشاطها فى السير مسرعة غايـة الاسراع عظيمة الرأس وقد عليت كتفاها فى خلق معلى مصعد .

وهى ناقة صبوره تتحمل الصعاب ولا تكل والشاهد على ذلك آثار النسوع وأربطة الرحل فهى ظاهرة على ضلوعها :

كأن علوب النسع فى دأياتها موارد من خلقاء فى ظهر قردد

تلاقى وأحيانا تبين كأنهـا بنائق غر فى قميص مقـــــدد

وبعد أن استكمل صفات البدن عمد الى العنق والرأس يصورهما بدقة ، انها طويلة العنق فاذا ما رفعته فانه يشبه سكان سفينة فى نهر دجلة تصعد :

واتع نهاض اذا صعدت به كسكان يوحي بدجلة مصعـــد

وجمجمتها كسندان الحداد :

وجمجمة مثل العلاة كأنمـا وعي الملتقى منها الى حرف مبرد

ثم يأتى الى وصف ما فى الرأس :

فالوجـــــه عتيق أملس الخد :

وخد كقرطاس الشامى ومشفر كسيف اليمانى قده لم يجـــرد

وعيناها صافيتان كماء المطر الرائق مكحولتان تطرحان وتبعدان القذى عن أنفسهما ، ثم شبههما بعينى بقرة وحشية لها ولد وقد فزعها صائد أو غيره ، وعين الوحشية فى هذه الحالة أحسن ما تكون :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتى مذعورة أم فرقـــــد

وأذناها حادتا السمع اثناء سير الليل فتسمع الحركة الخفيفة كما تسمع الصوت العالى المرتفع :

وصادقتا سمع التوجس للسرى لهجس خفى أو لصوت منـــــدد

ثم ان هاتين الأذنين محددتان تحديد الآلة تعرف بخابتها فيهما وهما كأذنى ثور وحشى منفرد فى الموضع المعين ، وخص المنفرد لأنه أشد فزعا وتيقظا واحترازا :

مؤللتان تعرف العتق فيهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

(وبعد أن رسم صورة دقيقة لهيكلها الخارجي يتوقف عند العضو الذى تستقر فيه صفاتها النفسية - فى ظن العرب - وهو قلبها ، القوى كالصخرة)(١) فيقول : ان قلبها يرتاع لأدنى شيء لفرط ذكائه سريع الحركة خفيف صلب مجتمع الخلق يشبه صخرة يكسر بها الصخور فى الصلابه فيما بين اضلاع تشبه حجارة عراضا موثقة محكمة :

وأروع بناض أحذ ململم كمرداة صخر فى صفيح مصمّد

ثم يصف أنفها وكان موضع هذا الوصف مع العينين والأذن فى الوجه الا أنه أخر هذا العضو وكأنه نسى أن يصفه (أو كأن الرواة تأخروا به عن موضعه فجاء فى آخر الصورة)(٢) .

يقول : أنه أنف لين عتيق فوق مشفرها المشقوق اذا قربته من الأرض أثناء سيرها زادت سرعتها وسبقت النجائب ، وهذه الحركة حركة الظليم فى عدوه .

وأخيرا يبين مرونتها وطواعيتها فهى ليست ناقة وحشية وانما هى مذللة مروضة فان طلب منها الاسراع أسرعت فى سيرها وان طلب منها التمهل تمهلت فهى تهاب السوط لأنها مروضه على عكس الحيوانات المتوحشه فانها لا تنقاد ولا تهاب السوط مهما كان قويا :

وان شئت لم ترقل وان شئت ارقلت مخافة ملوىّ من القد محصد

وكما ذكرنا سابقا بأن طرفه يجعل جميع الأوصاف تخدم الغرض الذى يريده فى تصوير ناقته الاّ وهو السرعه اذ يعود فى ختام وصف شكلها العام الى وصف

---

(١) ص ١٥٢ الصورة فى الشعر العربى د . على البطل .

(٢) ص ١٥٢ الصورة فى الشعر العربى د . على البطل .

سرعتها فيقول : ان شئت جعلت رأسها موازيا لواسط رحلها فى العلو من فرط نشاطها وجذبى زمامها الى وأسرعت فى سيرها حتى كأنها تسبح بعضديها اسراعا مثل اسراع الظليم :

وان شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبيعها نجاء الخفيدد وبعد أن كاد يشبع رغبته فى وصف ناقته ، وبعد أن وقف امام كل عضو فيها يصفه ، يقول : ان مثل هذه الناقة النجيبه جديرة بأن امتطيها فى أسفارى وأبلغ مآربى :

على مثلها امضى اذا قال صاحبى الا ليتنى أفديك منها وافتدى

الا أننا نرى أنه لا يزال يريد الوقوف امامها ليصفها ولا يريد الانتقال الى موضوع آخر غيرها ، فيختتم الكلام عنها مضطرا بقوله :

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت وقد خب آل الامعز المتوقد

أى أنه حين يضربها بالسوط فانها تسرع فى السير فى حال خبب آل الأماكن التى اختلطت تربتها بالحجارة والحصى .

وما أجمل وصفه لها بأنها تتبختر كما تتبختر جارية ترقص بين يدى سيدها فتريه ذيل ثوبها الأبيض الطويل فى رقصها ، لقد شبه تبخترها فى السير بتبختر الجاريه فى الرقص ، وشبه طول ذنبها بطول ذيل ثوبها :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سحل ممدد

. . . . . .

(١)
الصورة الثالثة في معلقه طرفه بن العبد

وفيها يشبه صوت القنيه بصوت الابل أو الناقه التى تصيح على وليدها الذى هلك ، وهذا يدل على مدى تأثر العربى انذاك بصوت الناقه لمعايشتهم الدائمة لها ، فصوتها فى أذنه حتى وهو يسمع غناء القنيه مما جعله يربط صوتها بصوت الناقه ليدل على أن كلاهما فيه حزن ورقه :

(٢)
اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب آظار على ربع ردِ

(٣)
الصورة الرابعه
فى معلقة طرفه بن العبد

وفيها يشبه فرسه - الذى ينقذ به الخائف - بالذئب فيقول :

وكرى اذا ناوى المضاف محنبا
(٤)
كسيد الغضا نبهته المتورد

فحينما أراد أن يصف فرسه بالسرعه شبهه بذئب اجتمعت له ثلاث خلال :

احداها : كونه ذئب الغضا وذئب الغضا أخبث الذئاب والغضا نوع من الشجر .

والثانية : ان هذا الذئب يثيره انسان .

والثالثه : ورود الذئب الماء واثارة الانسان له تجعله يزيد فى شدة العدو .

(١) ص ٨١ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٢) آظار : جمع ظئر ، والظئر الناقه التى لها ولد الربع من ولد الابل : ما ولد فى أول النتاج الردى . الهلاك .

(٣) ص ٨٣ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٤) السيد : الذئب ، والجمع السيدان .

(١)

الصورة الخامسة

في معلقة طرفه بن العبد

وفيها يشبه نفسه في خفة لحمه وتيقظه وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحيه وشدة توقدها :

انا الرجل الضرب الذى تعرفونه
خشاش كرأس الحية المتوقد

(٢)

الصورة السادسة

في معلقة طرفه بن العبد

وبرك هجود قد أثارت مخافتي بوادرها ، أمشي بعضب مجرد
فمرت كهاة ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالوبيل يلندد
يقول وقد ترالوظيف وساقها ألست ترى ان قد اتيت بمؤيد

في هذه الصورة يبين لنا شجاعته وبطولته وقوته وجرأته ويفخر بذلك من خلال موقف مر به وهو : انه مر بابل كثيره نائمه مطمئنه فعندما رأته فزعت ونهضت من مباركها وكان يريد نحر ناقة من هذه الابل حيث كان يحمل سيفا قاطعا ، وفي أثناء خوفها وتفرقها وفزعها منه واثارته لها مرت به ناقة ضخمة لها جلد الضرع وهي ناقة نجيبه كريمه مال شيخ قد يبس جلده أى كبر في العمر ونحل جسمه من الكبر حتى صار كالعصا الضخمة يبسا ونحولا وهو شديد الخصومة ،

---

(١) ص ٩٠ شرح المعلقات السبع للزوزنى .
(٢) ص ٩١ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(قيل أراد به أباه ، يريد أنه نحر كرائم مال أبيه لندمائه ، وقيل بل أراد غيره ممن يغير هو على ماله والقول الأول أحراهما بالصواب)[1] . فعقر هذه الناقه بمهارة فائقه ولم تكن له وانما هو تعدى منه على مال غيره مما أغضب الشيخ الكبير وقال له : ألم تر انك اتيت بداهية شديدة بعقرك هذه الناقه الكريمه النجيبة :

يقول وقد تر الوظيف وساقهـا ألست تران قد أتيـت بمؤيـد

واستشار هذا الشيخ أصحابه فى شأن طرفه .

وقال : ألا ماذا ترون بشارب شـديد علينا بغيه متعمـد

واذا كان هذا الشيخ اباه فان الجريمة تكون أهون اذ ان طرفه فى هـذه الحال يكون قد عقر كرائم أموال أبيه وليس شخصا غريبا وان كان ذلك دون اذن من أبيه وانما بتعمد من طرفه وقصد لذا فان رحمة الآباء بابناءهم تسعف فى مثل هذه الأمور فنرى هذا الشيخ يتدارك الأمر ويستقر رأيه على ترك طرفـه وشأنه دون عقاب له :

وقال ذروه انما نفعهـا لـه والا تكفوا قاصى البرك يـزدد

وقوله (انما نفعهـا له) فى حالة كون الشيخ والد طرفه فتكون أموال الشيخ بما فيها الناقه التى عقرها طرفه ترجع لطرفه بعد موت الشيخ حيث يرثهـا .

وقوله : (والا تكفوا قاصى البرك يزدد) أى أن الشيخ أمرهم باعادة الناقه لطرفه بعد أخذهم لها منه لئلا يعقر طرفه ناقة أخرى غير التى عقرها وأخذوها منه . وتم لطرفه ما أراد حيث استولى على الناقه :

---

(١) ص ٩٢ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

فظل الاماء يمتللن حوارهـــا ويسعى علينا بالسديف المسرهد

والاماء أى الخدم والملة هى الجمر والرماد وقوله يمتللن أن يضعون أجـزاء هذه الناقه فى الجمر والرماد لينضج بالشواء والحوار للناقه بمنزلة الولـد للانسان يعم الذكر والأنثى وذكر طرفه (حوار الناقه) أن ولد الناقـه ليبين أن هذه الناقه كانت نجيبه وحبلى فحين عقرها خرج من بطنهـا وليدها ومن ثم يبين شجاعته وجرأته بأنه قد عقر ناقه من أنفس الابل عندهم فأخذ الاماء هذا الحوار الذى خرج من بطن الناقه وظللن يشوينه فـى الجمر والرماد الحار ويسعى الخدم على طرفه ومن معه بتقديم أطايب هذه الناقه لهم كالسنام وغيره وتركوا ما بقى منها للخدم . (وطرفه بهذا التصوير يقدم ناقته أمامنا هيكلا جسديا كامل الخلقه ، وهو لا يقيمها ساكنه بـل يعرضها فى كل حال : مرتبعه فى المرعى ، وسائرة على الطريق ، تعدو رافعة رأسها أو مسفه بأنفها الى الأرض ، شائقه بذنبها أو مرخيتـه على فخذيها . كل ذلك فى لوحة جميلة ، ولكنها لوحة تستند الى الواقع المعاش ، لا الى الموروث الدينى القديم) .(١)

---

(١) ص ١٥٣ الصورة فى الشعر العربى د . على البطل ، ط : ١ ، ١٩٨٠ م .

صور الحيوان فى معلقة زهير بن أبى سلمى

زهير بن أبى سلمى هو والد كعب بن زهير الشاعر المخضرم الذى مدح رسول الله (ص) بقصيدته اللاميه التى سميت (البردة) ، معنى هذا أن زهير عاش فى أواخر العصر الجاهلى ، ويعرف زهير بأنه صاحب الحوليات لأنه كان ينقح قصائده ويخرجها بعد حول ، كما لقب بالشاعر الحكيم لأنه كان مشهورا برزانته وحكمه التى امتلأت بها قصائده خاصة معلقته التى نحن بصددها وهى الثالثة فى المعلقات . وقد كان الباعث لنظمه هذه المعلقه : هو مدح الرجلين الفاضلين : (هرم بن سنان والحارث بن عوف) اللذين أخمدا نار الحرب التى اشتعلت وحقنا دماء القبائل ، وقد حذر الفريقين المتحاربين من شر الخيانة وتوسع فى وصف الحرب ونتائجها المشئومة والذى يعنينا من معلقته هو ذكره للحيوان فيها وكيفية تناوله له :

(١)
الصورة الأولى
فى معلقة زهير بن أبى سلمى

بعد أن بدأ معلقته بوقوفه على اطلال زوجته وفى أثناء وقوفه على تلك الاطلال رأى بقر وحش واسعات العيون وظباء بيضاء يمشين حول اطلال زوجته وأولادها ينهضوا من مرابضهم لترضعهم أمهاتهم الظباء فقال :

بها العين والآرام يمشين خلفهٌ واطلاؤها ينهض من كل مجثم (٢)

---

(١) ص ١٠٠ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٢) العين : أى البقر العين ، فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه .
والعين : الواسعات العيون .
الآرام : جمع رئم وهو الظبى الأبيض خالص البياض.
خلفهٌ : اى انها تسير خلف بعضها فاذا مضى قطيع منها جاء قطيع آخر ومنه قوله تعالى : ﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خلفهً﴾ .

(١)
الصورة الثانية

في معلقة زهير بن أبي سلمى

(٢)
تعفّى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

لما امتدح هرم بن سنان والحارث بن عوف على موقفهما النبيل من اطفاء نار الحرب بين القبيلتين ، بين أن تلك الجروح التي خلفتها الحرب ، قد ضمدها هذان الرجلان الفاضلان ، وذلك بدفع الديات من الابل التي ينجمانها أي يعلمانها وهما بمعزل عن اراقة الدماء ولم يكن لهما أي دور في اشعالها ولكن !! كان لهما كل الفضل في اخمادها حيث دفعا لاخمادها كرائم أموالهما وهي الابل ، ودفع الديات من الابل عند العرب يبين لنا مكانة الابل عندهم انّ أنها تمثل شيئا نفيسا ، فهي أغلى ما عندهم بعد الانسان لذلك لم يجدوا ما يعوض به الانسان اذا قتل غير الابل تدفع لأهل المقتول دية لهم على المقتول عندهم . فتزال بها الجراح كما يقول زهير وتمحى ثم يزيد في توضيح موقف الرجلين الفاضلين اللذين أخمدا الحرب بتنجيم الابل ودفعها ديات للنفوس المجروحه العازمه على أخذ الثأر :

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم (٣)

---

(١) ص ١٠٨ شرح المعلقات السبع للزوزني .

(٢) تعفى : تزال وتمحى .
الكلوم : جمع كلم وهو الجرح .
ينجمها : أي يعطيها نجوما . والنجوم جمع نجم وهو الدفعه من الغرامة تؤدى في وقت معين .
المئين : الابل

(٣) المجمجم : كأس الحجام ، والجمع المحاجم .

أى أن هؤلاء الذين ينجمون الديات لم يريقوا مقدار ما يملأ محجما من الدماء . وعندما تصل هذه الديات أو هذه الابل لأهل المقتول يهدأوا وتخمد ثورتهم حيث حصلوا على مغانم قد يمم موروثه نفيسه الا وهى الابل :

فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مغانم شتى من افال مرنم .(١)

وقد خص (الصغار لأن الديات تعطى من بنات اللبون والحقاق والأجذاع . ولم يقل المزنمه وان كانت صفه الافال حملا على اللفظ لأن فعالا من الأبنية التى اشترك فيها الآحاد والجمود . وكل بناء انخرط فى هذا السلك ساغ تذكيره حملا على اللفظ)(٢) .

. . . . . .

---

(١) التلاد والتليد : المال القديم الموروث .
الافسال : جمع افيل
وهو الصغير السن من الابل .
المرنم : المعلم بزمة

(٢) ص ١١٠ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(١)

الصـــورة الثالثة

فى معلقـة زهـير بن ابـى سلمـــى

فتعرككم عراك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهـــم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطـــم

عندما أراد زهير أن يبين النتائج الدخيمه التى تسببها الحرب ، استعان بصور الابل لأنها قريبة من نفوسهم لمعايشتهم لها واعتمادهم عليها فى حياتهم ومعرفتهم بتفاصيل تطورها فى نشأتها ، فالحرب تفنى القوم كالرحى التى تطحن الحب فلا يبقى منه شىء ، واستعمل زهير التشبيه حيث شبه صنوف الشر تتولد من تلك الحروب بالنعجة أو الناقه التى تلقح مرتين فى السنة وبالغ فى ذلك فقال : ان هذا اللقاح الذى يحدث مرتين فى السنة يكون فيه الانتاج توأمين . أما الأبناء الذين يولدون فى أثناء الحروب فقد وصفهم بأنهم شؤم يضاهى كل منهم فى الشؤم عاقر الناقه فى قوم ثمود واسمه قدار بن سالف وهو أشقى الأولين حيث وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

(٢)

الصورة الرابعـــة

فى معلقـة زهـير بن أبى سلمـى

لدى أسد شاكى السلاح مقذف لـه لبد اظفاره لم تقـــلم

يصف حصين بن ضمضم الذى اضرم الغدر ونقض العهد فقتل رجلا من قبيلـــة عبس بعد أن اصطلحت القبيلتان عبس وذبيان ، ويشبه زهير حصن بن ضمضم

---

(١) ص ١١٢ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٢) ص ١١٥ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

هذا بأنه كالأسد الذى له لبدتان ، لم تقلم براثنه يريد بذلك ان حصن هذا لا يعتريه ضعف ولا يعيبه عدم شوكه كما أن الأسد لا يقلم براثنه .

---

(١)

الصورة الخامسة

فى معلقة زهير بن ابى سلمى

بعد أن وصف حصينا اضرب عن قصته ورجع الى تقبيح صورة الحرب والحث على الاعتصام بالصلح فى قوله :

رعوا ظماهم حتى اذا تمّ ورد وا غمارا تعزى بالسلاح وبالدم

فقضوا منايا بينهم ثم اصدروا الى كلا مستوبل متوخم

فصورة الابل هنا استعارة والمقصودين بالحديث هم قبيلتا عبس وذبيان فانهم كفوا عن القتال واقلعوا عن النزال مدة معلومة كما ترعى الابل مدة معلومه ثم عاودوا القتال كما تورد الابل بعد الرعى .

---

(٢)

الصورة السادسة

فى معلقة زهير بن أبى سلمى

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحات مال طالعات بمخرم

وفى مجال الحديث عن الحرب وما نتج عنها من قتل ، فانه يشير الى الديات التى تدفع لأهل القتلى من المسالمين الذين يريدون حقن الدماء فيد فعون

---

(١) ص ١١٦ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٢) ص ١١٧ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

من كرائم أموالهم تلك الابل الصحيحة التى تعلو فى طرق الجبال (طالعات بمخرم) عند سوقها الى أولياء المقتولين . وهذه كناية عن أن تلك الابل هى من أجود الابل التى يملكها العاقل اى الذى يعقل أو يدفع الديه ، فهى صحيحه قويه ، بحيث تستطيع أن تعلو فى الطرق الوعره من الجبال المرتفعه ولو كانت غير صحيحه لما استطاعت أن تعلو الجبال .

وبعد أن انتهى من وصف الحرب وما سببته من دمار للفريقين انهى معلقته بمجموعة من الحكم استحق بها لقب الشاعر الحكيم ومن جملة هذه الحكم قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيره
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

اقرار بالحقيقة ، حقيقة الخلق وحقيقة الموت الذى لا يعرف صغيرا ولا كبيرا ، ولدا ولا وليدا ، طفلا ولا رضيعا ، بل يختطف من يشاء على غير نسق ولا ترتيب ولا بصيره .

وحين كانت الناقه قريبه من نفوس العرب لمعايشتهم لها فانها تسعف الشعراء فى صناعتهم للشعر فيستعينوا بها فى تشبيهاتهم كما فعل زهير فتراه يشبه الموت فى تخطفه للناس بالناقه ليلا فانها تطأ على غير بصيره ، فمن يفلت من الموت وهو صغير فانه يعمر حيث يتزوج ويخلف ابناء يلاقوا نفس المصير ، ثم يهرم وماذا بعد الهرم الا الموت ؟ !!

وقد لاحظنا أن زهير قد استعان بالابل في تصوير ما في نفسه من أول القصيدة ، وهكذا نراه يعود الى ذلك مرة أخرى حيث يبين أن من لم يساين الناس ويدارهم ويكون مرنا معهم في كثير من الأمور فانهم يقهرونه ويغلبونه ويذلونه وربما يقتلونه . وهذه كناية قوله (يوطأ بمنسم) حيث أن المنسم في قدم البعير بمنزلة السنبك للفرس ، والجمع المناسم .

وهكذا فقد تغلبت المعايشه القريبه للعربي مع الابل (في تصويرها على الظلال الميتافيزيقية المترسبة حول هذين الحيوانين الألفين : الابل والخيل ، فتعامل معهما الشاعر تعامله مع معالم الواقع من حوله ، ومع ذلك فليس من النادر ظهور العناصر الاسطوريه في صورتهما في الشعر ، وان لم تكن بالصورة المباشره التي رأيناها عليها الحيوانات البريه السابقة ، وانما هي اشارات لروابط بعيدة ، تربطهما بمعاني الأمومه أو الخصب ، كما في تشبيه الناقة بالمهاة والدرة رمز الشمس وكما في الربط بين الحصان والماء ، باعتباره رمزا لشمس الشتاء (ذات بعدين) ولكن الغالب على صورتهما هو التصوير الواقعي بحكم المعايشه اليوميه - كما اسلفنا - فاذا كان العربي يعتز بهما ، ويبلغ الشاعر في وصفهما حد الكمال المثالي فلرغبته في اظهار نفاسة ما يملك ، وهذا من دواعي الفخر الشخصي لا من آثار التقديس الديني في الغالب الأعم من صورهما)[1] .

. . . . . .

---

(١) ص ١٥٠ - ١٥٢ الصورة في الشعر العربي - د . علي البطل ، ط ١ ، ١٩٨٠م .

صور الحيـــــوان

فى معلقـة لبيد بن ربيعـــه العامـــرى

لبيد بن ربيعه العامرى هو ابو عقيل وهو من هوازن قيس ، كان من الشعراء المعدودين فى الجاهلية ومعلقته هى الرابعه فى المعلقات وهـو أشهر من وصف الأوابد من الجاهلين وهو كغيره (من شعراء الجاهليـــة لم يقصدوا الى تصوير الأوابد لذاتها ولم يفردوها بالوصف والتصوير ، وانما كانوا يشبهون بها ويعقدون المقارنه بينهـا وبين ما يرتبط بأذهانهم بها ، فلم يكن بينها وبينهم صلة تأمليه محضة ولا انعطاف نفسى ولا علاقه وجدانية أيا كان لونها ، وانما كانوا يرون فيها صورة من الصور تقترن فى خيالهـــم بصورة واقعية أخرى فيربطونها بها ايضاحا لصورة أو ابتغاء للتأثير .)(١)

وهذه الصور من معلقته أمثلة على ذلك :

الصورة الأولـــى

فى معلقـة لبيـــــــد

بقـرة وحشـــية

أفتلك أم وحشـية مسبوعـــة خذلت وهاديـة الصوار قوامهـــا (٢)

---

(١) ص ١٠ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان د . مصطفى عبد الواحد

(٢) مسبوعة : أى قد أصابها السبع بافتراس ولدها .

الهادية : المتقدمه .

الصوار والصيار : القطيع من بقر الوحش .

(١)

خنساء ضيّعت الفريرَ فلم يـرم ... عرضَ الشّقائق طوقها وبغامها

لمعفر قهد تنازع شـــلوه ... غبس كواسب لا يمن طعامهـــا

صادفن منها غرّة فأصبنهـــا ... ان المنايا لا تطيش سهامهـــا

باتت وأسبل واكف من ديمـــة ... يروى الخمائل دائما تسجامهـــا

يعلو طريقة متنها متواتـــر ... في ليلة كفر النّجوم غمامهـــا

الى أن يقول :

حتى اذا يئست واسحق خالـق ... لم يبله ارضاعهـــا وفطامهـــا

فتوجست رز الأنيس فراعهـــا ... عن ظهر غيب والأنيس سقامهـــا

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ... مولى المخافة خلفها وامـــامها

حتى اذا يئس الرماة وارسـلو ... غضفا دواجن قافلا اعصامهـــا

فلحقن واعتكرت لها مدريـــة ... كالسمهرية حدّها وتمامهـــا

لتذودهنّ وأيقنت ان لم تذد ... أن قد أصمّ من الحتوف حمامها

فتقصدت منها كساب فضرجت ... بدم وغودر في الكرّ سخامهـــا

ان لبيد في هذه الصور يصف بقرة وحشية بالسرعة والنشاط وقد توصل الى هذا الوصف بأن وصف البقرة الوحشية بأنها ذهبت ترعى مع بقية القطيع وتركت ولدها فضاع منها حتى صادته السباع فجعلت تبحث عنه وتركض هنا وهنـــاك

---

(١) الخنس : تأخر في الأرنبة

الفرير : ولد البقرة الوحشية

الريـم : البـراح

العـرض : الناحيـة

الشقائق : جمع شقيقه وهي أرض صلبه بين رملتين .

البغام : صوت رقيـق .

وتجد فى طلبه ووصفه لهذه البقرة الوحشية فى هذه الحال يصور مدى سرعتها ونشاطها بأشد ما تكون السرعة والنشاط .

ثم يسترسل بعد ذلك فى وصف هذه البقرة الوحشية بأنه قد أتى عليها المطر وهى لا تزال تبحث عن ولدها الذى فقدته واختفت نجوم السماء بتلك الغيوم المتلبدة فأوت البقرة الوحشية الى شجرة تستتر من البرد والمطر بأغصانها ولكن هذه الشجرة لا تقيها البرد والمطر لأنها بعيدة عن بقية الأشجار . ثم يشبه البقرة فى تلالؤ لونها بالدرة وانما خص ما يسل نظامها اشارة الى أنها تعدو ولا ستقر كما تتحرك وتنتقل الدرة التى سل نظامها ، وانما شبهها بها لأنها بيضاء متلالئة ما خلا أكارعها ووجهها .

حتى اذا انكشف وانجلى ظلام الليل واضاء بكرت البقرة من مأواها فتزل قوائمها عن التراب الندى لكثرة المطر الذى أصابه ليلا . وعاودت البحث عن ولدها وظلت على هذه الحال فى البحث عن ولدها سبع ليال بأيامها ، حتى اذا يسئست البقرة من ولدها صار ضرعها الممتلىء لبنا خلقا لانقطاع لبنها لفقد ولدها . . وبينما هى على هذه الحال اذا بها تسمع صوتا ولم تر صاحبه فخافت ولا عجب من خوفها عند سماعها صوت الناس لأن الناس يبحثون عنها ليصيدونها فعثرت فزعة مذعورة لا تعرف منجاها من مهلكها لا تعرف ان كان الصوت الذى سمعته آتيا من أمامها أم من خلفها وهذا الموقف يصور لنا مدى اضطرابها وسرعتها وحركتها ونشاطها ، وهى على هذه الحال حاول الرماة صيدها ولكن فرط حركتها لم تمكنهم من ذلك فيئس الرماة من البقرة وعلموا أن سهامهم لا تنالها وأرسلوا كلابا مسترخية

الآذان معلمة ضوامر البطون أو يابسه السواجير فتمكنت هذه الكلاب من اللحاق بالبقرة وعطفت عليها لكن البقرة أقبلت على الكلاب بكل عنف وقوة لأنها أيقنت انها لم تقتل الكلاب قتلتها الكلاب لذا فقد انقضت عليها وطعنتها بقرنها الذى يشبه الرماح فى حدتها وتمام طولها فتمكنت من الدفاع عن نفسها ونجت بنفسها .

ثم يقول :

فبتلك اذا رقص اللوامع بالضّحى واجتاب أردية السراب اكامها
أقضى اللبانه (١) لا أفرط رييّة أو أن يلوم بحاجة لوّامها

أى بتلك الناقه التى أشبهت البقرة الوحشية التى وصفتها أقضى حوائجى فى الهواجر أى فى الأوقات الحاره شديدة الحرارة فلا يمنعه ذلك من قضاء وطلب بغيته (٢) .

ان صورة البقرة الوحشية كما وصفها لبيد (تحوى مشهدا صحراويا من تلك المشاهد التى تتكرر أمام أعين المسافرين فى الصحراء أو السائرين فى الأطراف . انطبع بها خيال الشاعر واختزنها حتى أراد وصف ناقته ، ذات الأثر الكبير فى حياته ، فأخرج الصورة بتفاصيلها الدقيقة ووضعها هذا الموضع الذى يفى بما أراد من وصف ناقته بالسرعه والنشاط (٣) اذا فهو لم يصف البقرة باعتبارها من الأوابد لذاتها وانما ليصل الى غاية فى نفسه وهى وصف ناقته التى هى من الحيوانات الأليفة فعقد المقارنه بينها وبين البقرة وشبهها بها .

---

(١) اللبانه : الحاجة ـ التفريط : التضييع ـ اللوام : جمع لائم
(٢) ص١٤٣ - ١٥٠ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف ـ دار القاموس الحديث بيروت .
(٣) ص ١٢ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان ـ د . مصطفى عبد الواحد .

صور الحيوان فى معلقة عمرو بن كلثـــوم

عمرو بن كلثوم هو ابو عبّاد عمرو بن كلثوم التغلبى ، وأمه ليلى بنت المهلهل ، كان أعز الناس وأكثر العرب ترفعا ، ساد قومه وهو فى الخامسة عشرة من سنه . ومعلقته هى الخامسة فى المعلقات ، أنشأ قسما منها فى حضرة الملك عمرو بن هند حين اجتمعت عنده قبيلتا تغلب وبكر وكان يرأس التغلبيين شاعرنا هـــذا عمرو بن كلثوم ، ويرأس البكريين النعمان بن هرم اليشكرى ، وكانت بين القبيلتين خصومة سببها ان البكريين أجلوا التغلبيين عن الماء ودفعوهم الى مفـــازه فتاهوا فيها وماتوا عطشا ، وكان الملك عمرو بن هند يفضل التغلبيين علـــى البكريين فوقع جدال بينه وبين النعمان غضب له الملك فطرد النعمان رئيـس البكريين ، وانشد شاعرنا عمرو بن كلثوم قسما من معلقته ، اما القسم الثانـــى فقد زاده عليها بعد قتله عمرو بن هند على أثر محاولة أم الملك أن تستخـدم ليلى أم عمرو بن كلثوم ، ولمعلقته قيمة تاريخية ، فهى تدلنا على حالة العـــرب من حيث الدين والاجتماع والعادات والصناعات والألعاب فتخبرنا عن طـــواف النساء حول الصنم وعن الرقص الدينى ، ومرافقة النساء للرجال فى القتال ، وعن لعب الصبيان بسيوف الخشب وقذف الكرة وغير ذلك من الفوائد التاريخية .(١)

اما صور الحيوان فى معلقة عمرو بن كلثوم فلم يكن لها حظ فى وصفه ، لقد انعدمت أو كادت تنعدم من ذكر الحيوان فيها اللهم الا من أبيات قليله يصف فيها عمرو بن كلثوم خيل قبيلته ويفتخر بها من باب بيان قوة قبيلته وسيادتها على القبائل الأخرى كما يظهر من أواخر الأبيات فى معلقته حيث يقول :

---

(١) ١٦٣ - ١٦٤ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف ، دار القاموس الحديث بيروت .

وانا لعاصمون اذا أطعنا وانا العازمون اذا عصينا

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا ان نقر الذل فينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

اذا بلغ الفطام لنا صبى تخر له الجبابره ساجدينا (١)

اذا فموقف الشاعر موقف حرب او استعداد للحرب وبيان مدى القوة فيهم حتى يهابهم أعداؤهم ، وكما نعرف فان موقف الحرب أو الاستعداد له يعجل الشاعر عن تصوير جواده ، ويشغله عن تبين تفصيلات جسده ، فما يهمه منه آنئذ هو سلوكه به ولنرى هذه الصورة فى معلقة عمرو بن كلثوم :

صورة الخيل فى معلقه عمرو بن كلثوم

وتحملنا غداة الرّوع جرد عزمن لنا نقائد واقلينا

وردن دوارعا وخرجنا شعثا كأمثال الرّصائع قد بلينا

ورثناهنّ عن آباء صدق ونورثها اذا متنا أو تهونا

ان عمرو بن كلثوم فى هذه الأبيات يصف الخيل ولكنه فى الواقع يريد أن يصف قبيلته بالقوة والمنعه ويبين مكانتها بين القبائل الأخرى.

فحين يخرجون فى الحرب يخرجون على خيل رقاق الشعور قصارها (جرد) وقصر شعر جسد الفرس ونعومته من أهم الصفات التى تبين نجابة الفرس وجودته ، ثم يبين أن هذه الخيل عرفها الناس أنها

---

(١) ص ١٨٨ - ١٨٩ شرح المعلقات السبع للزوزنى .

لهم فقد فطمت عندهم وخلصوهم من أيدي أعدائهم بعد استيلائهم عليها .

ثم يصف هذه الخيل عند ورودها الحرب فيقول أنها وردت وعليها تجافيفها وخرجن منها شعثا قد بلين بلي عقد الأعنه لما نالها من الكلال والمشاق فيها .

ثم يبين أن هذه الخيل ثروة عظيمة قد ورثوها من آبائهم الكرام الذين كان شأنهم الصدق في الفعال والمقال وسيورثونها أبناءهم اذا ماتوا يريد بذلك ان هذه الخيل قد تناجبت وتناسلت عندهم قديما .(١)

---

(١) ص ١٨٤ - ١٨٥ شرح المعلقات السبع للزوزني بتصرف .

صور الحيوان في معلقة

عنترة بن شداد

هو ابو المغلّس عنترة بن شداد العبسي ، وأمه زبيبه ، أمة حبشية . كان أبوه قد استعبده على عادة العرب في استعباد أبناء الاماء ، فاتفق أن أغار قوم من العرب على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون وعنترة معهم يومئذ فقال له أبوه : كرّ يا عنترة ! فأجابه : العبد لا يحسن الكر وانما يحسن الحلب والصرّ ، فقال له كرّ وانت حرّ ! فكرّ وقاتل قتالا حسنا فادعاه ابوه والحقه بنسبه .

كان عنترة بطلا شجاعا كبير النفس ، رقيق القلب ، رحب الصدر عفيفا . وقد أحبّ عبلة ابنة عمه مالك ، فهاجت شاعريته واتسع خياله ، وأشهر شعره معلقته وهي السادسة في المعلقات ، قيل أن سبب نظمه لها أنه كان في أحد الأيام في مجلس ، بعد أن كان قد أبلى في حروبه بلاء حسنا فشاتمه رجل من بني عبس وعيّره سواده وسواد أمه واخوته ، وأنه لا يقول الشعر ، فسبه عنترة وفخر عليه ، ثم أنشأ معلقته ، فبدأ بذكر عبلة وبعد دارها ، ثم وصف ناقته ، ونفسه بأنه لا يظلم ولا يجرؤ أحد على ظلمه ، وبأنه يشرب الخمر فيكون كريما شريفا في شربه وصحوه . ثم وصف بطشه ، وصور فرسه تصويرا جميلا رفعه فيه الى درجة الانسانية وفي معلقته من شرف المعاني وسهولة اللفظ ، وحسن الانسجام ، ومتانة التعبير والموسيقى ما جعل العرب يسمونها بالذهبية وما يهمنا من معلقته هذه هو ذكر الحيوان فيها فلنرى صوره في معلقة عنترة :(١)

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني بتصرف . دار القاموس الحديث - بيروت .

الصورة الأولى

في معلقة عنترة بن شداد

صورة ناقة عنترة

فوقفت فيها ناقتي وكأنها ... فدن لأقضي حاجة المتلوّم

بعد أن وقف على أطلال محبوبته عبله يذكر ناقته في معرض الحديث عن عبله ودارها فيقول أنه قد حبس ناقته التي وصفها بالقصر في عظمها وأنها ضخمة الجرم حبسها في دار عبله ليقضي حاجته في بكائه على فراق محبوبته وحزنه على الأيام التي مضت فيحاول أن يعيد ذكراها بوقوفه وناقته في دار المحبوبه.

ثم يقول بعد أن تحدث عن محبوبته في عدة أبيات :

ما راعني الاّ حمولة أهلها ... وسط الدّيار تسف حبّ الخمخم (١)

أي ما أفزعني الا استفاف ابلها حب الخمخم وسط الديار ، أن ما انذرني بارتحالها الاّ انقضاء مدة الانتجاع والكلأ فاذا انقضت مدة الانتجاع علمت أنها ترتحل الى دار جيهنا وهنا يعطينا عنترة صورة لحياة العربي المتنقل طلبا للكلأ ويبين لنا دور الابل في حياة العرب فهم يعتمدون عليها اعتمادا كبيرا باعتبارها حيوان نافع لهم فمنها يأكلون ومنها يشربون وعليها يركبون ، ومن ثم توجب عليهم أن يوفروا لها المكان الذي يتوفر فيه الكلأ حفاظا على حياتها .

كذلك فان الابل هي علامة من علامات الغنى عند العرب وكلما كثر عددها عندهم دل ذلك على غنى تلك القبيلة التي تملكها فهي المقياس التي يقاس بها الغنى عندهم ... نلمح ذلك من قول عنترة :

---

(١) راعه : أفزعه . الحمولة : الابل التي تطيق أن يحمل عليها .
الخمخم : نبت تعلقه الابل .

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الاسحم

أى أن تلك الابل التى يرتحل عليها رهط محبوبته ويحملون عليها متاعهم يبلغ عددها اثنتان وأربعون ناقة حلوب ولونها أسود كخوافى الغراب الأسود ، ذكر سوادها دون سائر الألوان لأنها أنفس الابل وأعزها عندهم ليبين مدى غنى رهط محبوبته فيدل بذلك على عزها .(١)

ثم يصف فرسه فى بيت عارض فيقول :

وحشيتى سرج على عيل الشوى نهد مراكله نبيل المحزم(٢)

أى أنه عندما يمتطى فرسه يشعر بالراحه وكأنه يجلس على حشية أى وسادة أو ما شابهها محشوة بالقطن أو الصوف فسرج فرسه هى حشيته يريد أنه يستوطئ سرج الفرس كما يستوطئ غيره الحشيه ويلازم ركوب الخيل لزوم غيره الجلوس على الحشية والاضطجاع عليها ،

ثم يصف فرسه بأوصاف يحمدها العرب ويحبون أن تكون خيلهم بهذه الأوصاف وهى :

غلظ القوائم وانتفاخ الجنبين وسمنها .(٣)

ثم يعود عنترة الى الحديث عن محبوبته عبله وبعدها عنه ويتمنى أن يصل الى ديارها على ناقة شديده قويه تصبر على معاناة شدائد الأسفار بأن لا تلد ولا ترضع فكثرة الحمل والولادة تكسبها ضعفا .

---

(١) ص ١٩٥ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف . دار القاموس الحديث، بيروت.

(٢) الحشيه من الثياب : ما حشى بقطن أو صوف أو غيرهما ،
الشوى : الأطراف والقوائم . العيل : الغليظ
النهد : الضخم المصرف ، المراكل : موضع الركل .
النبيل : السمين

(٣) ص ١٩٨ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف . دار القاموس الحديث، بيروت .

ثم يستمر فى وصف ناقته فيقول :

خطارة غبّ السّرى زيافة تطس الاكام بوخد خف ميثم (١)

وكأنما تطس الاكام عشية بقريب بين المنسمين مصلّم (٢)

أى أن هذه الناقه التى ستبلغه دار محبوبته رافعة ذنبها فى سيرها مرحا ونشاطا بعد ما سارت الليل كله متبخرة تكسر الاكام بخفها الكثير للأشياء لشدة وطئها ثم يشبهها فى شدة سرعتها بسرعة سير الظليم الذى يصفه بأنه :

تأوى له قلص النّعام كما أوت حزق يمانية لأعجم طمطم

فهو لا يصف الظليم - وهو من الحيوانات الآبده - لأنه يريد أن يصفه لذاته وانما لأنه يريد أن يصف ناقته بالسرعه فيشبهها بالظليم لأنه شديد السرعة فيقول :

تأوى الى هذا الظليم صغائر النعام كما تأوى الابل اليمانية الى راع أعجم عيي لا يفصح ، شبه الظليم فى سواده بهذا الراعى الحبشى ، وقلص النعام بابل يمانية لأن السواد فى ابل اليمانيين أكثر ، وشبه أويها اليه بأوى الابل الى راعيها ، ووصفه بالعي والعجمة لأن الظليم لا نطق له ويتابع ويصف الظليم مع صغائر النعام فيقول :

يتبعن قلّة رأسه وكأنه حدج على نعش لهن مخيّم

صعل يعود بذى العشيرة بيضه كالعبد ذى الفرو الطويل الأصلم

أى أن هؤلاء النعام تتبع أعلى رأس هذا الظليم ،أن جعلته نصب أعينها لا تنصرف عنه ثم شبه خلقه بمركب من مراكب النساء جعل كالخيمة فوق مكان مرتفع .(٣)

---

(١) خطر البعير بذنبه يخطر خطرا وخرانا اذا شال به .
الزيف : التبختر . الوخد : السير السريع . الوطس والوسم : الكسر .

(٢) المصلم = من أوصاف الظليم لأنه لا أذن له والصلم الاستئصال كأنه اذ نسه استؤصلت .

(٣) ١٩٩ - ٢٠٠ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف .دار القاموس الحديث بيروت .

شبه الظليم بعبد لبس فروا طويلا ولا أذن له لأنه لا أذن للنعام وشرط الفرو الطويل ليشبه جناحيه ، وشرط العبد لسواد الظليم .

ثم رجع عنترة الى وصف ناقته بعد أن شبهها بالظليم فى السرعة ووصف الظليم فى ثلاث أبيات ، فقال عن ناقته :

شربت بماء الدّحرضين فأصبحت

زوراء تنفر عن حياض الدّيلم

وكأنما تتأى بجانب دفّها الـ

وحشيّ من هزج العشيّ مؤوّم

هرّ جنيب كلّما عطفت له

غضبى اتقاها باليدين وبالفم

أى أن هذه الناقه عندما شربت من مياه هذا الموضع (الدحرضين) أصبحت مائلة نافرة عن مياه الأعداء المعروفه بـ (الديلم) .

ثم يصف ناقته هذه بالنشاط فى السير وأنها لا تستقيم فى سيرها نشاطا ومرحا فكأنها تنحى جانبها الأيمن خوف خدش سنور اياها . وكان هذا الهر الذى أزعجها وأقلقها يستقبلها بالخدش بيده والعض بفمه كلما أرادت أن تعفره ، وكلما أمالت رأسها اليه زادها خدشا وعضا .

ثم :

بركت على جنب الرّداع كأنما بركت على قصب أجش مهضّم

شبه أنينها من كلالها بصوت القصب المكسر عند بروكها عليه ،

وكأنّ ربّا أو كحيلاً معقداً حسّن الوقود به جوانب قمقم

ينباع من ذفرى غضوب جسرة زيافة مثل الفنيق المكدم

وشبه العرق السائل من رأسها وعنقها برب أو قطران جعل فى قمقم أوقدت عليه النار فهو يترشح به عند الغليان ، وعرق الابل أسود لذلك شبه بهما وشبه رأسها بالقمقم فى الصلابة ، وهذا العرق ينبع من خلف أذن ناقة غضوب موثقة الخلق شديدة التبختر فى سيرها مثل فحل من الابل قد كدمته الفحول ، شبهها بالفحل فى تبخترها ووثاقة خلقها وضخمها .(١)

صورة فرسه مرة أخرى فى معلقته

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك

ان كنت جاهلة بما لم تعلمى

اذ لا أزال على رحالة سابح

نهد تعاوره الكماة مكلّم

طورا يجرد للطعان وتارة يأوى الى حصد القسيّ عرمرم

يخاطب محبوبته عبله قائلا :

هلا سألت الفرسان عن حالى اذ لم أزل على سرج فرس سابح تناوب الأبطال فى جرحه ،أى جرحه كل منهم ، ونهد من صفة السابح وهو الضخم .

ثم بين قوة فرسه وتحمله الحروب فهو مرة يحمل عليه على الأعداء فيحسن بلاءه ومرة ينضم الى قوم أحكمت قسيهم وكثر عددهم أراد انهم رماة مع كثرة عددهم .

ثم يصف امرأة حسناء فيقول :

وكأنما التفتت بجيد جداية رشاء من الغزلان حرّ أرثم

---

(١) ٢٠٢ - ٢٠٣ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف - دار القاموس الحديث - بيروت .

يشبهها فى التفاتها اليه فى نظرها بالتفات ولد طبيه هذه صفته فى نظره .
ويعود الى وصف فرسه فى معرض الفخر بنفسه وبقوته وشجاعته واتقاء أصحابه به اسنة الرماح فى الحروب ووقوفه امام الأعداء

فيقول :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

فأزورّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلّمى

أى ما زال يرمى الأعداء بنحر فرسه حتى جرح وتلطخ بالدم وصار الدم له بمنزلة السربال ، أى عم جسده عموم السربال جسد لابسه ، فمال فرسه مما أصابت رماح الأعداء صدره ووقوعه به وشكا الى عنترة بعبرته وحمحمته ، أى نظر الى عنترة وحمحم ليرق له ، ولو كان يعلم الخطاب لاشتكى الى عنترة مما يقاسيه وبمعانيه ولكلمه لو كان يعلم الكلام ، يريد أنه لو قدر على الكلام لشكا الى عنترة مما أصابه من الجراح وهذه كناية عن مدى ما أصابه من طعن من الأعداء ومدى قوته وتحمله لهذه الاسنة وقدرته على الاستمرار فى مواجهة هذه الأسنه من الأعداء .

وهكذا نلاحظ فى معلقة عنترة :

ان صور الحيوان التى أوردها كانت :

١ - لناقته فوصفها بالسرعة والنشاط وهذه الصفات مطلوبه فى الناقه لتؤدى الغرض منها .

ثم وصف ظليم فى معرض وصفه لناقته أى أنه لا يريد أن يصفه لذاته فهو من الحيوانات الآبده والجاهليون كما عرفنا لا يصفون الحيوانات الآبدة لذاتها وانما يشبهون بها أشياء أخرى فيأتى وصفها .

٢ - فرس عنترة :

وكان وصفه له فى معرض بيان شجاعة عنترة ورباطة جأشه وتحمله للحروب فكان المقام مقام حرب وموقف الحرب - كما ذكرنا سابقا - يعجل الشاعر عن تصوير جواده ويشغله عن تبيين تفصيلات جسده ، وما يهمه منه آنئذ هو سلوكه به لذلك وجدنا عنترة فى الأبيات السابقة (يكتفى من تصويره له بالمنظر العام فى عجلة واجمال) (١) على عكس ما نجده فى شعر المفضليات فى أكثر من موضع وبالذات مفضلية عبد الله بن سلمه (٢) .

ذلك أن هؤلاء الشعراء وصفوا الفرس فى شعرهم عندما كانوا يصفون رحلة الصيد والتريض فهى التى تتيح للشاعر أن يخلو بنفسه وحصانه كما ذكرنا سابقا .

---

(١) ١٥٤ الصورة فى الشعر العربى ، د . على البطل ، دار الأندلس .

(٢) فى دواوينهم بالترتيب نفسه : بشر ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٢٠٩ .
وزهير : ١٢٨ .
وامرؤ القيس : ١٩ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٨٦ ، ١٦٣ ، ١٧٢
والأعشى : ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢٠٨

(٣) المفضليات : مفضلية عبد الله بن سلمة ١٠٦ - ١٧٦ .

صورة الحيوان
في معلقة الحـــرث بـن حلـــــزة

الحرث بن حلزه من بني بكر ، كان شديد الفخر بقومه حتى ضرب به المثل فقيل : أفخر من الحرث بن حلزة ، ومعلقته السابعه في المعلقات أنشد هـــا في حضرة الملك عمرو بن هند ، ردا على عمرو بن كلثوم وغضبا لقومه ، وكان قد أعد ها ورواهـا جماعة من قومه ، لينشد وها عنه لأنه كان به برص وكره أن ينشد ها الملك من وراء سبعة ستور ثم يغسل أثره بالماء كما يفعل بسائر البرص . ولمـــا طرد الملك النعمان بن هرم شاعر البكريين لا ساءته اليه ، خاف الحرث على قومه ، وقام ينشد بين يدى الملك من وراء الستور ، فأصلح ما أفسده النعمان ، وكان لقصيدته وقع حسن في نفس الملك كما أن بها من الدهاء في التعريض بالتغلبيين وسرد الحوادث التاريخية ومن الحكمة والرزانـة ما يجعلها في مصاف الشعـــر الخطابي ، وأفضل مثال للشعر السياسي في العصر الجاهلي ولكن . . .

ما عسى أن يكون حظ الحيوان فيها ؟

هذا ما سنبحثه فيها واذا وجدناه سنلقي عليه الضوء :

الصـورة الأولـــى
في معلقة الحرث بـــن حلـــــزه
ناقة الحرث

غير أني قد استعين على الهـمّ ... اذا خفّ بالثوىّ النّجـــاء

بزفوف كأنهـا هقلـــــة أمـ ... م رئـال دوّيّـــة سقفـــاء (١)

---

(١) الهقلة : النعامة
الرأل : ولد النعامة والجمع رئال .
والظليم : هقـل .

بدأ قصيدته بالنسيب كما هو الحال عند شعراء الجاهلية ثم انتقل من النسيب الى ذكر حاله فى طلب المجد .

فقال : انه يستعين على امضاء همه وقضاء امره عند صعوبة الخطب وشدة الخوف بناقة مسرعة فى سيرها كأنها فى اسراعها فى السير نعامة لها أولاد طويلة منحنية لا تفارق المفاوز ، ولم يقل كأنها نعامة وانما استعار صفة من صفات النعامه وهى(الزفيف) فالزفيف هو اسراع النعامه فى سيرها فاستعار لناقته هذه الصفة وجعلها نعامه مبالغة فى صفة الاسراع فى ناقته وزيادة فى المبالغة فى الاسراع شبهها (بهقلة) أى نعامة وأخذ فى وصف هذه النعامة بصفات تبين شدة اسراعها حيث أن لها أولاد بعيدين عنها وبينما هى كذلك اذ :

آنست نبأة وافزعها القـ ـنّاص عصرا وقد دنا الامساء

أى أحست هذه النعامه بصوت الصيادين فأخافها ذلك عشيا وقد دنا دخولها فى المساء ، لما شبه ناقته بالنعامة وسيرها بسيرها بالغ فى وصف النعامة بالاسراع فى السير بأنها تؤوب الى أولادها مع احساسها بالصيادين وقرب المساء ، فان هذه الأسباب تزيدها اسراعا فى سيرها(١) .

وبعد أن فرغ من وصف النعامه عاد الى وصف ناقته قائلا :

فترى خلفها من الرجع والوقـ ـع منينا كأنه اهباء(٢)

وطراقا من خلفهنّ طراق ساقطات ألوت بها الصّحراء(٣)

---

(١) ٢١٨ - ٢١٩ شرح المعلقات السبع للزوزنى بتصرف - دار القاموس الحديث

(٢) المنين : الغبار . الاهباء : جمع هباء ، والاهباء اثارته

(٣) الطراق : يريد بها أطباق نعلها .

أن فترى أنت أيها المخاطب خلف هذه الناقه من رجمها قوائمها وضربها الأرض بها غبارا رقيقا كأنه هباء منبث وجعله رقيقا اشارة الى غاية اسراعها . وعلى ناقته هذه السريعه القوية يقتحم لفح الهواجر أن يقطع بها الصحراء في أصعب الأوقات وأشد ما يكون من الحر اذا تحير غيره في أمره ، يريد انه لا يعوقه الحر عن مرامه ، ما زال أنه يملك مثل هذه الناقه النشيطة السريعه القوية .

هذه هي الصور التي وجدت للحيوانات في معلقه الحرث بن حلزه وهي وان كانت قليلة ان لم تكن صورة ناقته فقط فانها تبين مدى اهتمام الشاعر الجاهلي بالناقه التي كان يعتمد عليها في حياته اعتمادا كليا فمنها يأكل ومنها يشرب اللبن وعليها يقطع المسافات الشاسعه ويقضي مآربه ، ولو لم تكن مهمة في حياته لما جاء بوصفها في حضرة الملك والمقام مقام سياسي ومنافسه بين قبيلتي بكر وتغلب .

خلاصة القول عن الحيوان في الشعر الجاهلي :

يمكننا أن نقرر مما شاهدناه من صور الحيوان - في المعلقات السبع - (١) ان شعراء ما قبل الاسلام - في العصر الجاهلي - قد قصدوا وصف الحيوانات الأليفة المستأنسه كالناقه والبعير والحصان لما لها من تأثير ونفع في حياتهم ، أما الحيوانات الآبده فلم يقفوا أمامها وقفة مقصوده تعبر عن تمثلهم لهذا العالم العجيب من عوالم الصحراء وانما تعرضوا لها بالوصف في معرض وصف الحيوانات الأليفه حينما يريدون أن يصفوا الحيوانات الأليفه بصفات فيجدونها في الحيوانات

---

(١) يمكن تطبيق ما لاحظنا على الشعر الجاهلي في غير المعلقات السبع : في المفضليات وديواني الحماسه لأبي تمام والبحتري وفي الشعر والشعراء لابن قتيبه وفي دواوين الشعراء الجاهليين الى غير ما هنالك من كتب تحتوي على الشعر الجاهلي .

الآبده ظاهرة وواضحة فيلجأون الى التشبيه ويشبهون الحيوانات الأليفة بتلك الآبده ومن ثم يأتي ذكر الحيوانات الآبده وبهذه الطريقه ، ومن ثم لم يسجل الشاعر انطباعه (عن هذا الجانب من الطبيعة الحية ، سواء كان انطباع الخوف أو الشفقه أو الاعجاب فجاءت أوصافهم لها تسجيلا للواقع وربما لصور تقع عليها العين ، واذا ما وقف الشاعر الجاهلي أمام الجانب النفسي فلا يعدو اللمحة السريعة التي لا يأخذ فيها الفكر مداه ولا تستكمل فيها العاطفة انفعالها)[١].

ذلك ان هذه اللمحه غير مقصوده فالعاطفة غير مقصوده أيضا كذلك الحال بالنسبة للحيوانات الأليفه فان أوصافها لا تعدو تصويرا للواقع ورسما لصور تقع عليها العين دون مزج ذلك بعاطفة الشاعر وكأن الشاعر في ذلك آلة تصوير تنقل الصورة فقط وكما هي !

فالشاعر الجاهلي اذا عنى بوصف الحيوانات الأليفه أكثر من الحيوانات الآبده ولكن وصفه كان حسيا فيهما معا .

أما لماذا عنى بالحيوانات الأليفه ولم يقصد الحيوانات الآبده في الوصف فلا يثاره الجانب النفعي - كما ذكرنا سابقا - أكثر من ايثاره الجانب الجمالي حتى الحيوانات الأليفه فانه يؤثر بعضها على بعض في الوصف (يتضح ذلك من المقارنة بين كثرة أوصاف العرب للناقه ، لما لها من نفع كبير في حياتهم اليومية ، وبين قلة أوصافهم للفرس ، مع أن جماله أكثر وجوانب الفن فيه أهم ، اذ لا يدرك قيمة الفرس الا الفرسان وأهل اللهو والصيد . .) .

ولهذا نجد أوصاف الشعراء للناقه تهتم دائما ببيان نفعها وابراز أهميتها

---

(١) ١٧ الدراسات الأدبية في موضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

فى الحياة الصحراوية ، فهى وسيلة الرحلة ، وهى التى تنجى صاحبها من الغموم وتنقله من مكان يضيق به الى آخر يؤثره ويطمئن اليه . . .)(١) كما رأينا فى معلقه طرفه بن العبد ولبيد بن ربيعه والحارث بن حلزه وعنترة بن شداد وغيرهم .

حتى الفرس كان الدافع الى وصفه غالبا جانبه النفعى ، سواء كان صيدا ولهوا كما رأينا فى وصف امرىء القيس له أم كان طرادا وحربا ، كما فى وصف عنترة له . . .

فالقيمة النفعية أولى لدى الشعراء الجاهليين من القيمة الجمالية وهذا ما جعل أوصاف الفرس تتجه الى ناحية السرعة والقوة والضمور وتبتعد عن جانب الزينة والجمال والخيلاء فيه . . . فالعربى ما كان يرى فى الفرس الا جانب الحماية والأمن . . . .(٢)

السبب فى تركيز الشاعر الجاهلى فى وصف الحيوان على القيمة النفعية : ليست رعاية هذه القيمة النفعية مما يعاب به الشعر الجاهلى فى وصف الحيوان اذ أنه كان يعبر عن البيئة ويصدر عن القيم والمعايير التى كانت تحكم حياة الناس والعرب يومئذ ، قوم لم تداخلهم الحضارة ولم يزايلوا طابع البداوة والصحراوية وكانت ضراوة الحياة و لفح الحاجه يدفعهم الى أن يعنوا بقوام حياتهم وأحوال معاشهم ، ولم يكن لديهم من الفراغ والرخاء والأمن والدعة ما يدفعهم والتفنى بجمال الحيوان ، أو النظر اليه نظرة تتجاوز القيمة النفعية الى اعتبار جمالى محض .(٣) حتى لو توفرلهم الفراغ والرخاء والأمن

---

(١) ٨ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

(٢) ٩ - ١٠ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

(٣) ١٠ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان . د . مصطفى عبد الواحد .

والدعه فلم تتوفر لهم آنذ الوسائل الأخرى للمواصلات التى وجدت فى العصور التاليه لهم فكانوا يرون فى الناقة والفرس المنقذ لهم الذى يحملهم من بلد الى بلد فى هدوء وراحة بال يسيّرونها كما يريدون ويوجهونها أنى يشاؤون دون كلل أو ملل منها فالناقة سفينة الصحراء وبالفرس ينتصرون على الأعداء فهل هناك وسيلة أخرى يمكن أن يركزوا عليها أوصافهم ـ المترفون منهم أو الفقراء ـ غير الناقة والفرس ؟ بالطبع لا .

ومن الممكن أنهم كانوا يدركون أو يقصدون الناحية الجمالية فى الناقة والفرس وهذا ما دفعهم الى وصفها مع وجود حيوان مماثل للحصان وهو الحمار مثلا لكنهم لم يركزوا على وصفه لسببين : الناحية النفعية فالحمار لا ينفع للحرب والناحية الجمالية فليس الحصان كالحمار من الناحية الجمالية ، أما الناقة فقد يجوز أنهم كانوا يدركون قيمتها الجمالية لذلك كان وصفهم لها الى جانب الناحية النفعية وأنهم كانوا يرون فيها تلك الناحية التى لفتهم اليها القرآن فيما بعد (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) ولكن لم يركزوا عليها ولم يهتموا بها فدعاهم القرآن الى الاهتمام بها والتأمل فيها ليروا قدرة الخالق الذى خلق هذا التركيب العجيب وما فيه من قدرة وتحمل وجمال !

هذه هى (صورة الحيوان فى الشعر الجاهلى ، أليفة وآبده ، ترتبط بالمنفعة وتعول على الحس ، وهى بذلك صادقة مع البيئة متأثرة بها معبرة عنها وكفاها بذلك حظا من التجاوب مع الحياة والتواؤم مع القيم الفنية والواقعية) .(١)

---

(١) ١٨ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان د . مصطفى عبد الواحد .

الفصل الثانى
معجم مفهرس للحيوان فى القـــرآن

بـاب الهمـــــــزة

	الآيـــــة	رقمها	السورة	رقمها
١ -	" ومن الابـل اثنين "	١٤٤ك	الأنعام	٦
٢ -	" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت"	١٧ ك	الغاشيه	٨٨

بـاب البـــــــاء

	الآيـــــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"	٦٧م	البقرة	٢
٢-	" قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هى قال انه يقول انها			
	بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون"	٦٨م	البقرة	٢
٣-	" قالوا : أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال : انه يقول			
	انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين "	٦٩م	البقرة	٢
٤-	قالوا : أدع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه			
	علينا وانا ان شاء الله لمهتدون "	٧٠م	البقرة	٢
٥-	" قال : انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى			
	الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا : الآن جئت بالحـــق			
	فذبحوها وما كادوا يفعلون "	٧١م	البقرة	٢
٦-	" واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنـــتم			
	تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى			
	ويريكم آياته لعلكم تعقلون "	٧٢-٧٣	البقرة	٢
٧-	" ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين . . "	١٤٤	الأنعام	٦
٨-	" ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت			
	ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم			
	ببغيهم وانا لصادقون "	١٤٦	الأنعام	٦
٩-	" وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن ســبع	٤٣	يوسف	١٢

عجاف . .

	الآيـــة	رقمها	السورة	رقمها
١٠-	" يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف . . "	٤٦	يوسف	١٢
١١-	" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلـــق ما لا تعلمون "	٨ ك	النحل	١٦
١٢-	" والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكـــم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين "	٣٦-٣٧	الحج	٢٢
١٣-	" ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير "	٦٥ ك	يوسف	١٢
١٤-	" قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير "	٧٢ ك	يوسف	١٢
١٥-	" ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها "	٢٦ م	البقرة	٢

" باب التـــــاء "

لم تذكر حيوانات فى القرآن الكريم تبدأ بحرف التاء

باب الشـــــــاء

	الآيـــــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ".	١٠٧ك	الأعراف	٧
٢-	" فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " .	٣٢ك	الشعراء	٢٦

باب الجـــــيم

١-	" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين "	١٣٣	الأعراف	٧
٢-	" ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل فى سم الخياط "	٤٠	الأعراف	٧
٣-	" كأنها جمالات صفر "	٣٣ك	المرسلات	٧٧

بـاب الحـــــــاء

	الآيـــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما "	٦١ك	الكهف	١٨
٢-	" فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره "	٦٣ك	الكهف	١٨
٣-	" فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم "	٤٨م	القلم	٦٨
٤-	" فالتقمه الحوت وهو مليم "	١٤٢ك	الصافات	٣٧
٥-	" اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا "	١٦٣م	الأعراف	٧
٦-	" قال القها يا موسى فالقاها فاذا هي حية تسعى"	٢٠ك	طـــه	٢٠
٧-	" مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ".	٥	الجمعه	٦٢
٨-	" وانظر الى حمارك ولنجعلك آية الناس".	٢٥٩	البقرة	٢
٩-	" كأنهم حمر مستنفره ، فرت من قسوره "	٥٠-٥١	المدثر	٧٤
١٠-	" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ".	٨	النحـل	١٦
١١-	" واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير "	١٩	لقمان	٣١

بـــاب الخـــــــاء

	الآيـــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة "	١٤م	آل عمران	٣
٢-	" واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"	٦٠ م	الأنفال	٨
٣-	" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلـــق ما لا تعلمون "	٨ك	النحل	١٦
٤-	وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب "	٦ م	الحشر	٥٩
٥-	" واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهـــم بخيلك ورجلك "	٦٤ك	الاسراء	١٧
٦-	" انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله " .	١٧٣م	البقرة	٢
٧-	" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به "	٣ م	المائدة	٥
٨-	" الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانـــه رجس "	١٤٥ك	الأنعام	٦
٩-	" انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهـــل لغير الله به "	١١٥	النحل	١٦

	الآيـــــــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١٠-	" قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند اللـــه من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل"	٦٠م	المائدة	٥
	.....			

بـــاب الـــــدال

	الآيـــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة "	١٦٤م	البقرة	٢
٢-	" وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " .	٣٨ك	الأنعام	٦
٣-	" وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها "	٦ ك	هـــود	١١
٤-	" ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى علـــى صراط مستقيم " .	٥٦ك	هـــود	١١
٥-	" ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابـــة والملائكة وهم لا يستكبرون " .	٤٩ك	النحل	١٦
٦-	" ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة "	٦١ك	النحل	١٦
٧-	" والله خلق كل دابة من ماء "	٤٥م	النور	٢٤
٨-	" واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم "	٨٢ك	النمل	٢٧
٩-	" وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم "	٦٠ك	العنكبوت	٢٩
١٠-	" والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة "	١٠ك	لقمان	٣١
١١-	" فلما قضينا عليـــه الموت ما دلهم على موته الا دابـــة الأرض تأكل منسأته . . "	١٤ك	سبأ	٣٤

	الآيـــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١٢-	" ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة "	٤٥ك	فاطر	٣٥
١٣-	" ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة "	٢٩ ك	الشورى	٤٢
١٤-	" وفي خلقكم وما بث من دابة آيات لقوم يوقنون "	٤ ك	الجاثيه	٤٥
١٥-	" ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون"	٢٢ م	الأنفال	٨
١٦-	" ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون"	٥٥ م	الأنفال	٨
١٧-	" ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس"	١٨ م	الحج	٢٢
١٨-	" ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك "	٢٨ ك	فاطر	٣٥

. . . . . .

بـــاب الـــــذال

	الآيـــــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١-	" قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكلـــه الذئب "	١٣ك	يوسف	١٢
٢-	" قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون"	١٤ ك	يوسف	١٢
٣-	" قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عنـــد متاعنا فأكله الذئب "	١٧ ك	يوسف	١٢
٤ -	" يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذيـــن تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعـــف الطالب والمطلوب " .	٧٣ م	الحج	٢٢

بـاب الـــــراء

لم تذكر حيوانات فى القرآن الكريم تبدأ بحرف الـراء .

باب الـــــزاى

لم تذكر حيوانات فى القرآن الكريم تبدأ بحرف الزاى .

باب السين

	الآية	رقمها	السورة	رقمها
١-	" وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب "	٣ م	المائدة	٥
٢-	" يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى "	٨٠	طـه	٢٠

. . . . . .

باب الشين

لم تذكر حيوانات في القرآن الكريم تبدأ بحرف الشين

. . . . . .

باب الصاد

١-	" اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد "	٣١	ص	٣٨

بـــاب الضـــــاد

	الآيـــــــــة	رقمها	السورة	رقمها
١ -	" ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنـــين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبّئونى بعلم ان كنت صادقين " .	١٤٣	الأنعام	٦
٢-	" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفـادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " .	١٣٣	الأعراف	٧

بـــاب الطـــاء

١-	" وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " .	٣٨	الأنعام	٦
٢-	" قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك "	٢٦٠	البقرة	٢
٣-	" انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير " .	٤٩	آل عمران	٣
٤-	" واذ تخلق من الطين كهيئـة الطير باذنـــى "	١١٠	المائدة	٥
٥-	" انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه "	٣٦	يوسف	١٢
٦-	وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه " .	٤١	يوسف	١٢
٧-	" ألم يروا الى الطير مسخرات فى جوّ السماء "	٧٩	النحـل	١٦

	الآيـــــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٨-	" وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير "	٧٩	الأنبياء	٢١
٩-	" ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير ".	٣١	الحج	٢٢
١٠-	" ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه "	٤١	النور	٢٤
١١-	" وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علّمنا منطق الطير ".	١٦	النمل	٢٧
١٢-	" وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير "	١٧	النمل	٢٧
١٣-	" وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين "	٢٠	النمل	٢٧
١٤-	" ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبى معه والطير "	١٠	سبأ	٣٤
١٥-	" والطير محشورة كل له أوّاب "	١٩	ص	٣٨
١٦-	"ولحم طير مما يشتهون "	٢١	الواقعة	٥٦
١٧-	" أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن "	١٩	الملك	٦٧
١٨-	" فتنفخ فيه فيكون طيرا باذنى "	١١٠	المائدة	٥

	الآيـــــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
١٩-	" وأرسل عليهم طيرا أبابيـــل".	٣ ك	الفيـــل	١٠٥
٢٠-	" قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون"	١٩	ياسين	٣٦
٢١-	" قالوا انا تطيرنا بكم "	١٨	ياسين	٣٦
	.....			
	بـــاب العـــــين			
١-	" واذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون "	٥١ م	البقرة	٢
٢-	" واذ قال موسى لقومه ياقومي انكم ظلمتم أنفسكـــم باتخذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكـــم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم"	٥٤	البقرة	٢
٣-	" ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل مـــن بعده وانتم ظالمون ".	٩٢	البقرة	٢
٤-	" واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتياكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا واشربوا في قلوبهـــم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنـــتم مؤمنين ".	٩٣	البقرة	٢

	الآيـــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٥ -	" يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا اللـــه جهرة فأخذتهم الصاعقه بظلمهم ثم أتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينـــا موسى سلطانا مبينا " .	١٥٣	النساء	٤
٦ -	" ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم " .	١٥٢	الأعراف	٧
٧ -	" قالوا : سلاما قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ "	٦٩ك	هـــود	١١
٨-	" فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين "	٢٦ك	الذاريات	٥١
٩-	" واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خـوار "	١٤٨ك	الأعراف	٧
١٠-	" فاخرج لهم عجلا جسدا خوار " .	٨٨ك	طـــه	٢٠
١١-	" كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت "	٤١ك	العنكبوت	٢٩
١٢-	" والعاديات ضبحا "	٥	العاديات	١٠٠

باب الفين

	الآيه	رقمها	السورة	رقمها
١-	" ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما "	١٤٦ك	الأنعام	٦
٢-	" وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم "	٧٨ك	الأنبياء	٢١
٣-	" قال : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى " .	١٨ك	طه	٢٠
٤-	" فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه "	٣١م	المائدة	٥
٥-	" قال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب "	٣١م	المائدة	٥
~~٦-~~	~~" ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود " .~~	~~٢٧ك~~	~~فاطر~~	~~٣٥~~

. . . . . .

باب الفاء

١-	" ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " .	١ ك	الفيل	١٠٥
٢-	" يوم يكون الناس كالفراش المبثوث "	٤	القارعه	١٠١

بـــاب القـــــــاف

	الآيـــــــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
١-	" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفـــادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين "	١٣٣	الأعراف	٧
٢ -	" ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهـم كونوا قردة خاسئين ".	٦٥	البقرة	٢
٣ -	" قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبـــد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل "	٦٠	المائدة	٥
٤-	" فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين"	١٦٦	الأعراف	٧

. . . . . .

بـــاب الكـــاف

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
١ -	" فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركـــه يلهث ".	١٧٦ك	الأعراف	٧
٢-	" وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد "	١٨ ك	الكهف	١٨
٣ -	" سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم "	٢٢ ك	الكهف	١٨
٤ -	" ويقولون خمسة سادسهم كلبهم "	٢٢ك	الكهف	١٨
٥-	" ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم "	٢٢ك	الكهف	١٨
٦-	" وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم اللـــه ".	٤ م	المائدة	٥

. . . . . .

بـــاب المـــيم

	الآيـــــه	رقمها	السورة	رقمها
١ -	" ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنـــين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤنى بعلم ان كنتم صادقين "	١٤٣	الأنعام	٦
	. . . . .			
	بـاب النـــــون			
١ -	" وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبـــال بيوتا ومن الشجر وسا يعرشون "	٦٨ك	النحل	١٦
٢ -	" حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ".	١٨	النمـل	٢٧
٣-	" ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب "	٦٤ك	هـود	١١
٤-	" والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ".	٧٣	الأعراف	٧

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٥-	" فعقروا الناقه وعتوا عن أمر ربهم "	٧٧ك	الأعراف	٧
٦ -	" وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بهـــا الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا ".	٥٩ك	الاسراء	١٧
٧ -	" قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم "	١٥٥ك	الشعراء	٢٦
٨ -	" انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ".	٢٧ ك	القمـر	٥٤
٩-	" فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها "	١٣ ك	الشمس	٩١
١٠-	" ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : اكفلنيها وعزّني في الخطاب "	٢٣ ك	ص	٣٨
١١-	" قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مّا هم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب".	٢٤ ك	ص	٣٨
١٢ -	" ومن قتله منكم متعمدا فجزاءمثل ما قتل من النعم "	٩٥	المائدة	٥
١٣-	" والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام "	١٤	آل عمران	٣

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
١٤-	" ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام " .	١١٩	النساء	٤
١٥-	" أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد " .	١	المائدة	٥
١٦-	" وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا "	١٣٦	الأنعام	٦
١٧-	" وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم " .	١٣٨	الأنعام	٦
١٨-	" وأنعام حرّمت ظهورها "	١٣٨	الأنعام	٦
١٩-	" وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه"	١٣٨	الأنعام	٦
٢٠-	" وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا "	١٣٩	الأنعام	٦
٢١-	" ومن الأنعام حمولة وفرشا "	١٤٢	الأنعام	٦
٢٢-	" أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "	١٧٩	الأعراف	٧
٢٣-	" فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام "	٢٤	يونس	١٠
٢٤-	" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم " .	٥-٧	النحل	١٦

	الآيـــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٢٥-	" ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام "	٣٤م	الحج	٢٢
٢٦-	" وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونهـــا ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون " .	٢١ك	المؤمنون	٢٣
٢٧-	" ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا "	٤٤ك	الفرقان	٢٥
٢٨-	" واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين"	١٣٣ك	الشعراء	٢٦
٢٩-	" ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك "	٢٨ك	فاطر	٣٥
٣٠-	" وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج "	٦ ك	الزمر	٣٩
٣١-	" الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون	٧٩ك	غافر	٤٠
٣٢-	" جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا "	١١ ك	الشورى	٤٢
٣٣-	" والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين " .	١٢-١٣ك	الزخرف	٤٣
٣٤-	" والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام" .	١٢ م	محمد	٤٧
٣٥-	" لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا " .	٤٩ ك	الفرقان	٢٥
٣٦-	" أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لهم مالكون "	٧١ ك	ياسين	٣٦

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٣٧-	" كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى "	٥٤ ك	طـــه	٢٠
٣٨-	" أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم " .	٣٣ ك	النازعات	٧٩
٣٩-	" فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم "	٢٧ ك	السجدة	٣٢
٤٠-	" وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " .	٦٦	النحل	١٦
٤١-	" وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين " .	٨٧	الأنبياء	٢١
	. . . . .			
	بـــاب الهـــاء			
١-	" وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين "	٢٠	النمل	٢٧
	بـــاب الـــواو			
	لم تذكر حيوانات فى القرآن الكريم تبدأ بحرف الواو			
	بـــاب اليـــاء			
	لم تذكر حيوانات فى القرآن الكريم تبدأ بحرف الياء			

الاشـــارات العامـــه الى خلـــق الحيوان

	الآيـــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
١-	" وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم الا ما اضطررتم اليه "	١١٩	الأنعام	٦
٢-	" قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين"	١٤٠	الأنعام	٦
٣-	" وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر "	١٤٦	الأنعام	٦
٤-	" .. ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ماينفقون " .	٩٢	التوبـه	٩
٥-	" هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا .. "	٢٥	الفتح	٤٨
٦-	" قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون " .	٥٩	يونس	١٠
٧-	" وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون "	١١٨	النحل	١٦
٨-	" ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " .	٧٠	الاسراء	١٧

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٩ -	" تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا " .	٤٤	الاسراء	١٧
١٠-	" ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم " .	٦٥	الحج	٢٢
١١-	" ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " .	٤٩	الذاريات	٥١
١٢-	" سبح لله ما في السموات وما في الأرض "	١	الصف	٦١
١٣-	" واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت "	٤-٥	كورت	٨١
١٤-	" وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون "	١٢	فاطر	٣٥
١٥-	" وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا "	١٤ ك	النحل	٦
١٦-	" والمنخنقه والموقوذه والمتردیه والنطيحه "	٣ م	المائدة	٥
١٧-	" وفديناه بذبح عظيم "	١٠٧ ك	الصافات	٣٧

	الآيـــــه	رقمها	السورة	رقمها
١٨-	" ألا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذيـن كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها " .	٤٠	التوبة	٩
١٩-	" قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير"	٢٣	القصص	٢٨
٢٠-	" والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبـرا ولم يعقب ياموسى لا تخف انّى لا يخاف لدىّ المرسلون	١٠	النمل	٢٧
٢١-	" وان الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين "	٣١	القصص	٢٨
٢٢-	" ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " .	٧٥	يونس	١٠
٢٣-	" فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين "	٣٦	القصص	٢٨
٢٤-	" ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئـــه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " .	١٠٣	الأعراف	٧
٢٥-	" فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبـــوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين "	١٣٦	الأعراف	٧

	الآيـــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٢٦-	" قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض "	٧٢	طـــه	٢٠
٢٧ -	" اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى "	٤٢	طـــه	٢٠
٢٨ -	" ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى "	٥٦	طـــه	٢٠
٢٩-	" فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين "	١٣	النمل	٢٧
٣٠-	" قال : كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون "	١٥	الشعراء	٢٦
٣١-	" فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون"	٣٥	القصص	٢٨
٣٢ -	" فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين " .	١٢	النمل	٢٧
٣٣-	" فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون "	٤٥	الشعراء	٢٦
٣٤-	" وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون "	١١٧	الأعراف	٧
٣٥-	" وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى "	٦٩	طـــه	٢٠
٣٦-	" فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين " .	٧٦	يونس	١٠

	الآيـــــــــه	رقمها	السورة	رقمها
٣٧-	" واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى "	٢٢	طه	٢٠
٣٨-	" فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه "	٣٢	القصص	٢٨
٣٩-	" لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ".	٣٣	الحج	٢٢
٤٠-	" وعليها وعلى الفلك تحملون "	٢٢ ك	المؤمنون	٢٣

. . . . . .

الفصل الثالث

الأغراض البيانية والتربوية من ذكر الحيوان في القرآن

*

تعرفنا فى الفصل السابق على الحيوانات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم وفى هذا الفصل سنتعرف على الأغراض البيانية والتربوية من ذكر هذه الحيوانات فى القرآن الكريم وبمعنى آخر ما هى المقاصد البيانية والتربوية التى استهدفها القرآن من وراء ذكره لهذه المخلوقات ، خاصة وقد عرفنا عند استعراضنا للآيات السابقة أنه ذكر حيوانات ضعيفة ومستحقرة كالبعوضة والذبابة كما ذكر الحيوانات القوية المحببة ، وحتما لا يأتى القرآن بذكر شىء الا ويكون من وراء ذكره مقصد ، وقد تكون هذه المقاصد تشريعية أو قصصية أو أن ذكر الحيوان جاء للدلالة على فساد عقيدة واثبات التوحيد لله الى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض سنلقى الضوء عليها فى الآيات التى ذكرت فيها الحيوانات لنبين منها تلك المقاصد والأغراض ، وسنقسم الدراسة أربعة أقسام :

القسم الأول :

الحيوانات التى وقعت فيها معجزات أو كانت هى جزءا من معجزات وقعت للأنبياء .

القسم الثانى : الحيوانات التى وقعت فيها خوارق .

القسم الثالث : الحيوانات الأخرى التى ذكرت فى القرآن الكريم .

القسم الرابع : الحيوانات التى أشير اليها اشارة عامة كخلق من خلق الله .

وسنتكلم عن حيوانات كل قسم كدراسة تطبيقية لما ذكر من حيوانات فى القرآن الكريم ، وما لم نذكره من الحيوانات فى كل قسم فهو قياسا على حيوانات القسم التى ذكرناها .

القسم الأول

الحيوانات التى وقعت فيها معجزات (١)

والأغراض البيانية من ذكرها

هناك بعض الحيوانات التى وقعت فيها معجزات أو كانت جزءا من معجزات وقعت للأنبياء وحكى القرآن الكريم تلك المعجزات وهذه الحيوانات هى :-

١ - بقرة بنى اسرائيل .

٢ - ثعبان موسى عليه السلام .

٣ - الجراد معجزة لسيدنا موسى عليه السلام .

٤ - القمل معجزة لسيدنا موسى عليه السلام .

٥ - الضفادع معجزة لسيدنا موسى عليه السلام .

٦ - حوت موسى وفتاه عليه السلام .

٧ - حوت يونس الذى ابتلعه ثم قذفه الى البر .

٨ - حمار العزير

٩ - حية موسى - عليه السلام -

١٠ - طير ابراهيم عليه السلام .

١١ - طير عيسى عليه السلام .

---

(١) المعجزات هى أمر غير عادى فى مألوف البشر وتظهر على يد نبى مقرونة بالتحدى .

وهذا التعريف واحد من عدة تعاريف ذكرت فى تحديد المعجزة انظر الملل والاهواء والنحل لابن حزم ومقالات الاسلاميين للاشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى علما بأننا ارتأينا لتعريف العام للمعجزة دون شرط لاقترانها بالتحدى .

١٢ - ناقة الله معجزة وآية من الله لسيدنا صالح - عليه السلام - عند قومه ثمود .

١٣ - نملة سليمان التى نادت على النمل أن يدخل مساكنه .

١٤ - هدهد سليمان عليه السلام .

. . . . . .

(١)
١ - بقرة بني اسرائيل

قال تعالى :

" وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة "(٢) .

والسبب في الأمر بذبح البقرة هو أنه : (كان في بني اسرائيل شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة ، ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله)(٣) .

ولكنهم لم يسارعوا الى تنفيذ هذا الأمر ولم يمتثلوا لقول نبيهم موسى عليه السلام بل (قالوا أتتخذنا هزوا) .

وقد كان قول موسى عليه السلام بهذه الصفة :

" ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة " كافيا للاستجابة والتنفيذ (فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين ، برحمة من الله ورعاية وتعليم ، وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، انما هو أمر الله ، الذى يسير بهم على هداه . . . فماذا كان الجواب ؟

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهامهم لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم كأنما يجوز لانسان يعرف الله - فضلا على أن يكون رسول الله -

---

(١) البقرة : مفرد بقر ، والبقر جنس من فصيلة البقريات يشمل الثور والجاموس ويطلق على الذكر والأنثى لكن المفرد للذكر ثور والمفرد للأنثى (بقرة) ، ومنه المستأنس الذى يتخذ للبن والحرث ومنه الوحشى . ص ٦٥ المعجم الوسيط جـ ١

(٢) آية ٦٧ البقرة ٢

(٣) ص ٢٨٦ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط ٥ ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م

أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس (١)

(قالوا أتتخذنا هزوا)

فما كان من موسى عليه السلام الا أن (يرد هم برفق وعن طريق التعريض والتلميح الى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق جل علاه ، وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق الا بجاهل بقدر الله ، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه) (٢) . (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى لست أنا بالانسان الجاهل الذى ينسب الى ربه قولا ويأمر الناس بتنفيذه دون أن يكون ذلك الأمر من عند ربه ، فان هذا يدل على الحمق والجهل وعاقبته ستكون وخيمة على فاعله ، أما موسى عليه السلام فانه بعيد عن ذلك وقوله حق وكلامه صدق ، كيف لا وهو نبى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته الى بنى اسرائيل ، ولكن بنى اسرائيل كعادتهم تشددوا وأخذوا يسألون ويستكشفون عن حال البقرة وصفتها دون أن يعلموا أن تشديدهم هذا لن يكون فى صالحهم فقد كان بامكانهم أن يعترضوا أدنى بقرة ويذبحوها ويمتثلوا لأمر الله ، قال صلى الله عليه وسلم : (لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم) (٣) .

شددوا على أنفسهم مجاراة لطبيعتهم التى تظهر واضحة فى قصة البقرة هذه : (انقطاع الصلة بين قلوبهم ، وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الايمان بالغيب، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل . ثم التلكؤ فى الاستجابة

---

(١) ص ٩٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ط ٢

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) ص ٢٨٨ الكشاف للزمخشرى جـ ١ الطبعة الأخيرة .

للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان !)[١] .

(قالوا : أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) والسؤال بهذه الصيغة ينسى بأنهم ما يزالون فى شكهم أن موسى هازئا فيما أنهى اليهم ! فهم أولا يقولون : (أدع لنا ربك) فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم انما تعنى موسى وربه !

وهم ثانيا : يطلبون أن يدعو ربه ليبين لهم : (ما هى ؟)

والسؤال عن الماهية فى هذا المقام - وان كان المقصود الصفة - انكار واستهزاء . . ماهى ؟ انها بقرة وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة بقرة وكفى ![٢]

وهنا يبرز سؤال : هل كان بنو اسرائيل يعرفون السبب الذى أمرهم الله سبحانه من أجله أن يذبحوا البقرة ؟

يرى صاحب الكشاف أنهم كانوا يعرفون السبب حيث يقول فى تعليل قولهم : (أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) : والسبب فى سؤالهم هذا عن حالها هو : (أنهم تعجبوا من بقرة ميته يضرب ببعضها ميت فيحيا فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر)[٣] .

الا أن الأستاذ سيد قطب يرى أن السبب فى ذبح البقرة كان مجهولا لبنى اسرائيل آنذاك - أن وقت أن أمرهم الله بذبح البقرة حيث لم يعرفوا بالحكمة أو السبب من ذبح البقرة فى بادىء الأمر وفى هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة

---

(١) ص ٦٨ - ٦٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٢

(٢) ص ٦٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٢

(٣) ص ٢٨٧ الكشاف للزمخشرى جـ ١ - الطبعة الأخيره ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

(١)
والتسليم . والواقع أن معرفة بنى اسرائيل سبب ذبح البقرة لم توضح من الآيات لأنها ليست أمرا مهما انما المهم هو تنفيذ هذا الأمر أو مدى امتثال بنو اسرائيل لتنفيذ أمر الله (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) سواء علموا بالسبب الذى من أجله أمروا أن يذبحوا البقرة أو لم يعلموا فالأمر بذبح البقرة قائم ، ولما كان هذا هو الغرض من أمرهم بذبح البقرة لم توضح الآيات ذلك ، تماما كما تهمل الآيات أسماء أشخاص أو أماكن لا يكون ذكرها مجديا فى الموضوع ولا يقدم ولا يؤخر فى الحادثة ولو شاء الله لأفصح ولو كانت حكمة النص لا تتحقق الا بهذا الافصاح عن معرفة بنى اسرائيل السبب فى ذبح البقرة لما أهمله القرآن ، لقد جاءت الآية التى فيها سبب ذبح البقرة متأخرة عن آية الأمر بذبح البقرة وما أعقبها من آيات وضحت الجدال الذى أحدثه بنو اسرائيل وقد يكون ذلك الترتيب فى الآيات هو : من قبيل الأداء الفنى فى عرض القصة بدءا ونهاية واتساقا مع السياق حيث كانت تلك طريقة فى عرض القرآن للقصة تعتمد على عنصر المفاجأه حيث فاجأ بنى اسرائيل - كما فوجئنا نحن - فى نهاية القصة بالسبب الذى كان بداية للقصة !! وقد يكون ذلك الترتيب هو اخفاء السبب فى الأمر بذبح البقرة عن بنى اسرائيل - وقت أمرهم بالذبح - فيكون فى ذلك اختبار لهم لمدى طاعتهم واستجابتهم وتسليمهم لله عز وجل . ولكن اسرائيل هى اسرائيل : (أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) فيعيدهم موسى عليه السلام للمرة الثانية الى الجاده ، (انه لا يجيبهم بانحرافهم فى صيغة السؤال كى لا يدخل معهم فى جدل شكلى . . انما

---

(١) ص ١٠٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ط ٢

يجيبهم كما ينبغى أن يجيب المعلم المربى من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين . يجيبهم عن صفة البقرة لعلمهم يكفون عن اسئلتهم ويمتثلون لأمر الله :

(قال : انه يقول : انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون) .

والفارض المسنه وكأنها سميت فارضا لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها .

قال خفاف بن ندبه :

لعمرى لقد أعطيتك ضيفك فارضا

تساق اليه ما تقوم على رجل

أما البكر فهى الفتيه .

وأما العوان فهى النصف قال أحدهم :

(نواعم بين أبكار وعون) (١) . وقد يقول قائل :

ان كلمة (بين) فى قوله تعالى : (بين ذلك) تقتضى شيئين فصاعدا فكيف جاز دخول اسم الاشارة (ذلك) عليها مع ان اسم الاشارة (ذلك) للمفرد ؟ يقول صاحب الكشاف : لأن اسم الاشارة (ذلك) فى الآية الكريمة (فى معنى شيئين حيث وقع مشارا به الى ما ذكر من الفارض والبكر فان قيل كيف جاز أن يشار به الى مؤنثين وانما هو للاشارة الى واحد مذكر وكان يجب أن يقال

---

(١) ص ٢٨٧ الكشاف للزمخشرى جـ ١ - الطبعة الأخيره ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

(عوان بين هاتين)؟ فان صاحب الكشاف يرد أيضا بقوله : جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدم للاختصار في الكلام كما جعلوا (فعل) نائبا عن أفعال جمة تذكر قبله تقول للرجل : نعمَ ما فعلت وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة كما تقول له ما أحسن ذلك ثم يقول : والذي حسن منه أن أسماء الاشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة وكذلك الموصولات ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع . (١) (ما تؤمرون) أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله امرتك الخير بمعنى مأموركم تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير اذا فهذه البقرة في ريعان شبابها فهي ليست بالمسنه التي لا يرجى منها الفائدة وليست بالبكر التي لم تنضج بعد وهذا هو أول شرط يجب أن يتوفر في البقرة المطلوب ذبحها .

أما الشرط الثاني فسيأتي بناء على طلبهم وسؤالهم الثاني :

(قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها)؟

يسألون عن لون البقرة !! وما عساه أن يكون ؟ !

ويأتيهم الجواب ويكون شرطا ثانيا يجب أن يتوفر في هذه البقرة المطلوب ذبحها :

(قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)

والفقوع أشد ما يكون من الصفره وأنصعه ، يقال في التوكيد : أصفر فاقع أو أصفر وارس كما يقال أسود حالك أو حانك وأبيض لقق ولهق ، وأحمر قانىء وأخضر ناضر . . الخ .

---

(١) ص ٢٨٧ الكشاف للزمخشري جـ ١ ط الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

فان قيل وما الفائدة من ذكر اللون (صفراء) ألا نستطيع أن نستغني عنه ونقول : (بقرة فاقع لونها) ؟

يرد صاحب الكشاف بقوله : الفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من ذلك جد جده وجنونك مجنون . وعن وهب : اذا نظرت اليها خيل اليك ان شعاع الشمس يخرج من جلدها (١) .

ولو تخيلنا بقرة هذا لونها (شديدة الصفرة) لا يخالطها لون آخر فحتما أن منظرها يسر القلب كما قال تعالى : (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) ، والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقع نفع ، ويستشهد على رضى الله عنه بهذه الآيه على أن اللون الأصفر من الألوان التي تجلب السرور للقلب فيقول : من لبس نعلا صفراء قلّ همه لقوله تعالى : (تسر الناظرين) ويذهب الحسن البصري الى أن المراد من قوله تعالى :

(صفراء فاقع لونها) هو سوداء شديدة السواد ولعله مستعار من صفة الابل لأن سوادها تعلوه صفرة وبه فسر قوله تعالى ـ جمالات صفر ـ قال الأعشى :

تلك خيلي منه وتلك ركابي ... هن صفر أولادها كالزبيب (٢)

فالأعشى هنا وصف أولاد خيله بأنها صفر ثم شبهها بالزبيب والزبيب لا يكون الا أسود ، الا أن وجود كلمة (فاقع) في هذه الآية الكريمة تعني أن المقصود هو اللون الأصفر لا الأسود لأن الفاقع كما مر أشد ما يكون من الصفره وأنصعه وعليه معظم التفاسير (٣) .

---

(١) ص ٢٨٧ الكشاف للزمخشري جـ ١ ط الأخيرة

(٢) ص ٢٨٨ المصدر السابق

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري لأبي السعود ، روح المعاني للألوسي

واذا رجعنا الى الآيات الكريمة لنرى الشرط الثالث الذى يجب أن يتوفر فى البقرة المطلوب ذبحها فى بنى اسرائيل نجده أيضا نتيجة لأسئلتهم المتعددة والمتكررة كما هو فى هذا السؤال : (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) ؟ مرة أخرى يسألون عن حال البقرة وصفتها ويستكشفون ليزدادوا بيانا لوصفها (والأستقصاء شؤم وعن بعض الخلفاء أنه كتب الى عامله بأن يذهب الى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم فكتب اليه بأيها أبدأ ؟ فقال : ان قلت لك بقطع الشجر سألتنى بأى نوع منها أبدأ وعن عمر بن عبد العزيز : اذا امرتك أن تعطى فلانا شاة سألتنى أضأن أم ماعز ، فان بينت لك قلت أذكر أم أنثى ، فان أخبرتك قلت أسوداء أم بيضاء ، فاذا امرتك بشىء فلا تراجعنى .

وفى الحديث : " أعظم الناس جرما من سأل عن شىء لم يحرّم فحرم لأجل مسألته "(١) ويبرروا كثرة أسئلتهم هذه المره بهذا التعقيب : (ان البقر تشابه علينا) أى أنه حتى الآن لم يأتينا وصف فريد يميز هذه البقرة المطلوب ذبحها عن بقية البقر فالبقر الموصوف بالتعويس والصفره كثير لذا فقد اشتبه علينا أيها نذبح وقرأ بعضهم : (تشابه) تتشابه وتشابهت لأنه رأى أن ياء الفعل مطروحه ومدغمه فى الشين وأنا أرى : ان الفعل هنا كما جاء فى الآية (تشابه) وليس فيه ادغام لأن الفعل (تشابه) للجمع وسبقه الفاعل جمع (البقر) فوافق الفعل الفاعل ، أما الفعل (تتشابه) فهو للمفرد المؤنث وكان حقه لو كان بتاءين أن تسبق بالمفرد المؤنث فنقول البقرة تتشابه علينا فى الحاضر وتشابهت فى الماضى وقرأ محمد ذو الشامه (ان البقر يشّابه) بالياء والتشديد .

---

(١) ص ٢٨٨ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط الأخيرة .

وكان هذا هو آخر سؤال من بنى اسرائيل انتهى بقولهم :

(وانا ان شاء الله لمهتدون) أى أنه بعد هذا الوصف وهذا التوضيح لحال وصفة هذه البقرة المطلوب ذبحها سنهتدى بمشيئة الله ونذبحها ونفعل ما أمرنا الله به .

وقيل : لمهتدون الى ما خفى علينا من أمر القاتل بعد أن نذبحها ونضربه ببعضها . والأول أقرب الى الصواب لأن اسئلتهم كانت فى مجال البحث عن البقرة أولا وليس عن القاتل فهم يسألون عن صفتها وحالها ولونها وبدليل هذا الحديث : (ولو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد) أى لو لم يقولوا ان شاء الله لما هداهم الله الى البقرة المطلوب ذبحها . ويأتيهم الجواب على آخر سؤال من أسئلتهم :

(قال : انه يقول : انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها) ولمزيد من الايضاح فهذه البقرة المطلوبه بقرة غير ذلول يعنى لم تذلل للكراب واثارة الأرض (ولا تسقى الحرث أى ليست من النواضح التى يسقى عليها لسقى الحروث (ولا ذلول) صفة للبقرة ، واللام الأولى فى قوله (و ذلول) للنفى واللام الثانية فى قوله و (لا تسقى) مزيدة لتوكيد الأولى اذ المعنى لا ذلول تثير وتسقى على أن الفعلين (تثير - وتسقى) صفتان لذلول كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية أو لا ذلول تثير الأرض ولا ذلول تسقى الحرث أو أن هذه البقرة غير مذللة لاثارة الأرض والسقى (وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : لا ذلول بمعنى لا ذلول هناك أى حيث هى وهو نفى لذلها ولأن توصف به فيقال هى ذلول ونحوه قولك مررت بقوم لا بخيل ولا جبان : أى فيهم أو حيث هم وقرئ (تسقى) بضم التاء من أسقى) .

---

(١) ص ٢٨٨ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط الأخيرة .

(مسلمة لا شيه فيها) أى ان هذه البقرة المطلوبه قد سلمها الله من العيوب أو ان معنى (مسلمه) معفاة من العمل سلمها أهلها منه أو أن معنى (مسلمه) مخلصة اللون ، من سلم له كذا :

اذا خلص له لم يشب صفرتها شيء من الألوان .

(لا شية فيها) يعود الوصف الى لونها اذ أن معنى لا شية فيها لا لمعة فى نقبتها من لون آخر سوى الصفره (حتى قرنها وظلفها ولا شية فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية اذا خلط بلونه لونا آخر ، ومنه ثوب موشى وثور موشى القوائم وبذلك فقد كان الأمر أولا فى بقرة من شق البقر أى كبقية البقر غير مخصوصة بلون ولا صفات (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ثم انقلبت هذه البقرة مخصوصه بلون وصفات بعد اسئلتهم وجدلهم واستكشافهم . . ومن هنا قد يطرأ سؤال هو : كيف نفذ الحكم فى البقرة المخصوصه وكان الأمر فى البقرة غير المخصوصه ؟

أى كيف أمروا أن يذبحوا بقرة دون تخصيص بشيء ثم ذبحوا بقرة مخصوصة بلون وصفات معينة ؟

والجواب هو : ان الأمر الأول رجع منسوخا لانتقال الحكم الى البقرة المخصوصه والنسخ قبل تنفيذ الفعل جائز (على ان الخطاب كان لا بهامه متناولا كهذه البقرة الموصوفه كما تناول غيرها ، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالا له ، فكذلك اذا وقع عليها بعد التخصيص)[1] .

وأخيرا وبعد هذه الأسئلة من بنى اسرائيل وبعد هذا الوصف المفصل من موسى عليه السلام يقتنع بنو اسرائيل ويكفون عن اسئلتهم ويقولون : (الآن جئت بالحق أى بحقيقة وصف البقرة وما بقى بعد هذا الوصف اشكال فى أمرها ، الآن إ كأنما

---

(١) ص ٢٨٩ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط الأخيره .

كان كل ما مضى ليس حقا . أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق الا اللحظة !

ولكن هذا التعبير يوحى بأنهم قد استشعروا لجاجتهم وتلكؤهم وصفافة قلوبهم وسلاطة لسانهم وتعنتهم وتهربهم من تنفيذ امر الله نادعو أن الصورة قد اكتملت لهم - صورة البقرة المطلوب ذبحها - من جميع جوانبها حيث لم تبق لهم حجة بعد ، قيل[1] أنهم مكثوا وهم يبحثون عن هذه البقرة الموصوفه (أربعين سنة) وأخيرا وجدوها عند يتيم فى بنى اسرائيل ، فقد روى انه كان فى بنى اسرائيل شيخ صالح له عجلة (بقرة صغيره مولوده) فأتى بها الغيضه وقال : اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان هذا الابن بارا بوالديه ورعى هذه العجلة حتى شبت وكبرت وكانت من أحسن البقر واسمنه وكانت الأوصاف المطلوبه كلها فى الآيات تنطبق عليها فساوموا هذا اليتيم عليها لأنها ضالتهم حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا ، - وكانت قيمة البقرة اذ ذاك ثلاثة دنانير - وذبحوها وكأنهم يقولون : ليتنا لم نجدها : (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فهذه الآية تبين مدى استثقالهم واستبطاءهم وتلكؤهم وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهى سؤالاتهم وما كاد ينقطع خيط اسهابهم فيها وتعمقهم . وقيل ان معنى (ما كادوا يفعلون) ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها ، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل بعد أن يضربوا القتيل ببعضها كما امروا اذ أن الميت فى أمرهم بذبح البقرة هو - كما مر فى بداية القصة - قتلهم أحد أغنيائهم ليرثوه ولكن هذه البداية لم تأت فى بداية هذه الآيات وانما أتت مؤخرا بعد الحوار

---

(١) ص ٢٨٩ الكشاف للزمخشرى جـ ١ الطبعة الأخيره ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

الذى مر بينهم وبين موسى عليه السلام بشأن البقرة .

وهكذا كانت فى الآيات قصتان : (قصة ذبح البقرة) و (قصة القتيل الذى سيضرب ببعض هذه البقرة) ولهذه التثنية غرض فى التقريع . ولأنه لو قدمت قصة القتيل - والتى هى البداية - على قصة ذبح البقرة لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع (ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها : ان وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله تعالى (اضربوه ببعضها) حتى يتبين انهما قصتان فيما يرجع الى التقريع، وتثنيه باخراج الثانيه مخرج الاستئناف مع تأخيرها وانها قصة واحدة بالضمير الراجع الى البقرة)[١] .

أما بداية القصة فتأتى فى هذه الآية الكريمة : (واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .

والهدف من التقريع فى هذه الآية ، وانه سبحانه جعل القصة مستأنفة هو : تعظيم النفس الانسانية ، وانها لا تقتل بغير حق والا فان الله سبحانه منتصرا لها ان عاجلا أو آجلا لأنه سبحانه هو الذى خلقها وكرمها دون سائر مخلوقاته فكيف تهان ؟ كيف يهين هذا الانسان الجاهل نفسه بأن يبيح لنفسه قتل غيره ان فى ذلك اباحة لغيره بقتله ؟!

والله سبحانه يريد لهذه النفس الانسانية الحياة الكريمة التى تعلو وتسمو على حياة الحيوان ، الحياة التى يعرف فيها الانسان قدر أخيه قبل أن يعرف قدر نفسه

---

(١) ص ٢٩٠ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

فلا يتعد عليه بقتله ولا يتعد على حقوقه باغتصاب ما ليس له منه ، وقد زود الله سبحانه الانسان بجهاز يستطيع أن يحافظ على تلك الحدود أو على حياته ألا وهو العقل الذى يميزه عن غيره من سائر المخلوقات ، وما دام أنه مزود بذلك الضابط فانه محاسب على ما يقترف من مخالفات من شأنها أن تؤدى الى ظلم أخيه الانسان ، فما بالنا بالقتل ؟! الذى يقضى على انسان وينهى حياته ويجعله فى عداد الأموات ؟ انها جريمة من الانسان فى حق الانسان لا ينفرها الله لأنه قد جعل لها الضابط ولم يترك الانسانية تخوض ويقتل بعضهم بعضا كما تفعل الحيوانات فى الغاب لا . . . انها النفس الانسانية التى شرفها الله انها النفس الانسانية التى حرم الله قتلها الا بحق ومن يقتلها بغير حق فليأذن بحرب من الله ومن يحاربه الله فمن ذا الذى ينصره ؟

سيعذبه الله فى الدنيا وسيفضحه مهما تستر على جريمته وسيكتب عليه الذلة والمسكنة ولعذاب الآخرة أشد وأنكى وهذا الذى ظهر فى قصتنا هذه : القتيل الذى انتصر له سبحانه وفضح قاتلوه وسجل عليهم تلك الفضيحة - التى كانوا يظنون أنها ستنتهى بمجرد قتلهم القتيل - الى يوم القيامة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فضحهم حيث ظنوا أنهم يستطيعون أن يخفوا جرمهم فقال لهم سبحانه : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) .

أما كون الخطاب فى قوله تعالى : (واذ قتلتم) للجماعة فلوجود القتيل فيهم وهم بنو اسرائيل الذين قتلوا ابن الشيخ الموسر ليرثوه وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته ليدفعوا الظنون عن أنفسهم فى قتله ويتسنى لهم ورثته لأنهم - الذين قاموا بعملية القتل - ابنا عم القتيل يحق لهم ورثته ، وأصبح كل منهم يدفع التهمة عن نفسه وذلك قول الله سبحانه فيهم (فادارأتم فيها) أن

اختلفتم واختصمتم فى شأن هذه النفس التى قتلت بغير حق وأصبح كل منكم يدرأ الآخر أى يدفعه ويزحمه . أو أن معنى (فادارأتم) تدافعتم بمعنى (طرح) قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه القاتل ، أو لأن الذنب فى نفسه دفع أو دفع بعضكم بعضا عن البراءة واتهمه (١) ولكن الله سبحانه الذى لا تخفى عليه خافيه كشف أمرهم وابطل كيدهم ، ذلك أن ما فعلوه جرما عظيما وفعلا جسيما ، وتعديا على حدود الله - كما اسلفنا - فاقدموا هم على انتهاك حرمة الله وقتلوا نفسا بريئة بغير حق ظلما وعدوانا ، دفعهم الى ذلك ضعفهم وجشعهم ورغبتهم فى أن يرثوا ما عندها من مال.

(ببعضها) : وهنا نلاحظ الربط بين القصتين وذلك بضمير البقرة أى اضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها وقد اختلفوا فى البعض الذى ضرب به هذا القتيل فقيل : انه لسانها ، وقيل : فخذها اليمنى ، وقيل عجبها ، وقيل العظم الذى يلى الغضروف وهو أصل الأذن ، وقيل الأذن ، وقيل البضعة بين الكتفين وهذا كله لا يعنينا المهم أن القتيل ضرب ببعضها أى بجزء منها (فحي) وقام باذن الله وأوداجه تشخب دما كما روى وقال ضربنى فلان وفلان لابن عمه - وهذه هى معجزة البقرة - ثم سقط ميتا فأخذا وقتلا - وهذا هو نصر الله - ولم يورّث قاتل بعد ذلك .

وقد حذف الفعل " فحي " لدلالة قوله تعالى (كذلك يحيى الله الموتى) فهذه الجملة تدل على أنه حي لأن الذى يحي الموتى جميعهم قادر على أن يحى نفسا

---

(١) ص ٢٨٩ الكشاف للزمخشرى جـ ١ ط الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

واحده والذى يحي نفسا واحده قادر على أن يحي الأنفس جميعها والعبرة لمن يعتبر والنعيم لمن يصدق ويؤمن بالبعث ، والخطاب فى قوله (كذلك يحيي الله الموتى) أما ان يكون لأولئك الذين حضروا حياة القتيل من بنى اسرائيل وغيرهم بمعنى : وقلنا لهم : كذلك يحي الله الموتى يوم القيامة . واما أن يكون الخطاب موجها للمنكرين فى زمن رسول الله محمد (ص) . وسواء أكان الخطاب موجها لأولئك الذين حضروا حياة القتيل أم كان موجها للمنكرين فى زمن رسول الله محمد (ص) فان فيه اثباتا لقدرة الله تعالى فى كل زمان ومكان على احياء الموتى واقناع من يسمعه على الايمان بالبعث فالذى يحيي الموتى فى الماضى قادر على أن يحي فى الحاضر والمستقبل والذى يحي فى الحاضر والمستقبل قادر على أن يحي فى الماضى المهم عملية الاحياء فهى خاصة بالله الذى يخلق الخلق ثم يميته ثم يعيده !

(ويريكم آياته) معطوف على (يحي الله الموتى) فيكون أيضا تكملة لنفس المخاطبين سابقا أى يريكم دلائله على أنه قادر على كل شىء . .

(لعلكم تعقلون) أى تعملون على قضية عقولكم وتعترفون بقدرته سبحانه فى احياء الموتى وان من قدر على احياء نفس واحدة قدر على احياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث .

بقى فى هذه القضية تساؤل واحد قد يخطر على بال الكثيرين وهو : لماذا لم يحي الله سبحانه هذا القتيل ابتداء ؟ ولم شرط فى احيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها ؟ !

والجواب :

ان فى ذلك حكما وفوائد كثيره منها : -

١ - أن ذبح البقرة فيه من التقرب وأداء التكاليف واكتساب الثواب والاشعار بحسن تقديم القربـــه على الطلب.

٢ - فى الأمر بذبحها نفى التقديس عنها حيث كان بنوا اسرائيل يقدســـون البقر ولا يجيزون ذبحه .

٣ - ما فى التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ولآخرين فى ترك التشديد والمسارعة الى امتثال أوامر الله تعالى وتنفيذها من غير تفتيش وتلكؤ وتكثير سؤال ، فان كثرة السؤال مدعاة للهلاك كما قال بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر فى مواضع كثيرة .

٤ - الدلالة على بركة البر بالوالدين لأنهم - بنى اسرائيل - قد اشتروا البقرة من ذلك اليتيم الذى كان بارا بوالده بملء مسكها ذهبا .

٥ - نفع اليتيم بالتجارة الرابحة .

٦ - الشفقة على الأولاد .

٧ - بيان ان من حق المتقرب الى ربه أن يجتهد فى اختيار ما يتقرب به وان يختار فتى السن غير مقحم ولا ضرع حسن اللون بريئا من العيوب يسر مـــن ينظر اليه وأن يغالى بثمنه . وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يأمر بأن يكون الهدى الذى يساق الى مكه فى الحج وهكذا فقد ضحى عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه بنجيبة بثلاثمائة دينار .

٨ - تجهيل الهازىء بما لا يعلم كنهـــه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء .

٩ - أن النسخ قبل الفعل جائز وذلك حين نقل الحكم من البقرة غير المخصوصه الى البقرة المخصوصه فقد كان الحكم لا بهامه متناولا لهذه البقرة الموصوفه كما تناول غيرها .

١٠ - انه سبحانه لو أحيا القتيل ابتداء لربما انتفت تهمة القتل ولظنوا أنه لم يمت نتيجة قتل متعمد وانما هي اغماءة أصابته ثم أفاق منها ولما كان في الأمر شيء ، ولكن حين اشترط سبحانه عليهم ذبح البقرة وأمرهم بأن يضربوه ببعضها ليحيا هذا كي يسمع القاصي والداني بهذا الأمر ، خاصة حين يحي القتيل وينطق بأسماء القتله من بني عمه ثم يسقط ميتا !

فلو انه سبحانه أحيا القتيل في ساعته دون اشتراط ذبح البقرة بل وفي لحظة قتله - وهو قادر سبحانه على ذلك - لظنوا كما قلت أنها اغماءة أصابته ثم أفاق منها . ولو أنه سبحانه أحياه بعد أربعين سنة أو نحو ذلك دون اشتراط ذبح البقرة لنسي الناس أمره ولكن حين اشترط سبحانه ذبح البقرة كان في ذلك حكمة وهي البحث عن البقرة والاجتهاد في طلبها حتى أنه قد أعياهم التعب في البحث عنها طيلة الأربعين سنة وكانوا مستعدين بأن يبذلوا أي شيء في سبيل الحصول عليها فلما وجدوها وساوموا عليها اليتيم اشتروها بملء مسكها ذهبا ولو طلب أكثر لوافقوا خوفا من أن تفلت منهم وأين يجدوا مثيلتها التي تنطبق عليها الشروط ؟ !

وفي هذا تأديب لهم ولأمثالهم ممن يسأل عن شيء لم يطالب به أصلا .

١١ - (ان البقر يذبح قربانا كما كانت عادة بنى اسرائيل . . .

وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة الى جسد قتيل . وما فى هذه البضعة حياة ولا قدرة على الاحياء . وانما هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، التى لا يعرف البشر كيف تعمل ، فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها فى العمل و :

" كذلك يحي الله الموتى " . . كذلك بمثل هذا الذى ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع ، وبمثل هذا السر الذى لا مشقة فيه ولا عسر) (١) .

وهكذا فقد رأينا فى هذه الآيات الكريمة - كما فى غيرها - جانبا من دلائل الاعجاز القرآنى اذ جعل القصة الواحدة قصتين وذلك أن بدأ القصة بنهايتها فأصبحت القصة - بالاضافة الى ما فيها من تشويق - لها هدفان مستقلان فى التقريع :

أما الهدف الأول فى التقريع : فهو تقريع بنى اسرائيل على كثرة أسئلتهم وتوبيخهم على تلكؤهم وعدم سرعة استجابتهم لنبيهم ، وذلك فى قصة أمرهم بذبح البقرة .

وأما الهدف الثانى : فهو تقريعهم - بنى اسرائيل - على قتل النفس التى حرّم الله الا بالحق ، وذلك فى قصة قتل أحدهم ليرثوه ، والاعلام بأن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية فقد كشف أمرهم ، وأظهر جريمتهم (والله مخرج ما كنتم تكتمون) .

أما ان القصة قد جعلت قصتين وقدمت النهاية على البداية أى قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل وكان حقه أن يقال واذ قتلتم نفسا

---

(١) ص ١٠٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ١ ط٢

فأدّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، فذلك راجع الى قصد التقريع اذ لو عمل على عكسه أى لو قيل : واذ قتلتم نفسا فادّاراتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع ، ولكن قصد من الكيفية التى جاءت بها الاسهاب لزيادة التقريع اذ كل ما قص من قصص بنى اسرائيل انما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها يسرد القرآن قصصهم فى كثير من سوره وآياته لا لأهميتهم كما يدّعون وانما لخبثهم ونكثهم للعهد ونقضهم للمواثيق مع ربهم ومع نبيهم حتى انه (لم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ اسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة . فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم - وهى أشنع فعلة تصدر عن أمة مع دعاة الحق المخلصين - وقد كفروا أشنع الكفر ، واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع المعصية . وكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل !)(١)

فمن قتلهم أنبياء الله بغير حق الى كفرهم بآيات الله ، ومن تعبدهم للعجل الى رفضهم الايمان بنبيهم حتى يروا الله جهرة ، ومن مخالفتهم عما أوصاهم به الله وهم يدخلون القرية الى تغييرهم وتبديلهم ما أمروا به ، ومن تعدّيهم فى السبت الى نسيانهم ميثاق الطور . .

وأخيرا وليس آخرا لهم :

تماهلهم وتجادلهم فى ذبح البقرة التى أمر الله بذبحها لحكمة خاصة والتى عشنا مع قصتها معهم وتثبتنا من خلالها على سماتهم الرئيسية التى ذكرناها لطبيعتهم وهكذا كان للقرآن معهم جولة واسعة أو جملة شاملة لكشف موقفهم ، وفضح كيدهم . . .

---

(١) ص ٩٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ط ٢

وهكذا كان الغرض من ذكر البقرة فى هذه الآيات فى القرآن حيث كانت درسا من سلسلة من الدروس التى ذكرها القرآن والجدير بالذكر أن قصة البقرة لم ترد من قبل فى السور المكية كما أنها لم ترد فى موضع آخر غير هذا الموضع فى القرآن (١) لذا فقد جاءت مفصلة وفى صورة حكاية لا مجرد اشارة كغيرها من الدروس وقد سميت السورة كلها باسم (البقرة) لأنها سردت لنا قصة بقرة بنى اسرائيل .

وهذه لفتة طيبة الى الاهتمام بالحيوان وتصحيح الوضع الذى كان له فى الجاهلية وما قبلها ، فلا تقديس له ولا تعظيم ولا عبادة لأنه خلق من خلق الله لا ينفع ولا يضر من دون الله ، ولا امتهان له وتحقير وتعذيب لأنه أيضا خلق من خلق الله ويمكن القول بأن الغرض البيانى والتربوى من ذكر البقرة هو : -

١ - رسم سمة اللجاجه والعنت والتلكؤ فى الاستجابة وتحمل المعاذير التى تتسم بها اسرائيل ، ثم انقطاع الصلة بين قلوبهم وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الايمان بالغيب ، والثقة بالله والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل ، ثم السخرية المنبعثه من صفاقة القلب وسلاطة اللسان وتلك هى جبلتهم الموروثة ، وطبيعتهم المعهودة .

٢ - كان لذكر البقرة وقصتها جانب آخر مختلف ومعاكس تماما للجانب الأول ، جانب مشرق ومضىء ، فقصة البقرة ترينا دلالة قدرة الله وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة .

---

(١) آية ٦٧ - ٧٣ من سورة البقرة ٢

٣ - وأخيرا فان لذكر قصة البقرة جانبا أدبيا رفيع كان قاعدة ونموذجا ونبعا للكتّاب والأدباء انه جانب الأداء الفنى الرائع فى عرض القصة بدءا ونهاية واتساقا مع السياق .

وهكذا فقد رأينا تلك الآية من آيات الله (البقرة) ورأينا من خلال قصتها (أن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس، ولكنها فى حساب القدرة الالهية أمر يسير . . . كيف ؟ هذا ما لا أحد يدريه . وما لا يمكن لأحد ادراكه . . ان ادراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية ، لا سبيل اليه فى عالم الفانين ! وان يكن فى طوق العقل البشرى ادراك دلالته والاتعاظ بها) .(١)

(ويريكم آيته لعلكم تعقلون) .

---

(١) ص ١٠٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ط ٢

الملامح البلاغية للنص الحكيم

في معجـزة البقـرة

هذا النص - شأنه شأن النصوص القرآنية جميعا - حافل بصدق التعبير، واحكام البناء في مفرداته وجمله وفقراته ، ومن الملامح البلاغية فيه ما يلي : -

١ - توكيد الحكم بأن واسمية الجملة في قوله تعالى :

(ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وقد قرر البلاغيون ان الحكم يؤكـد بمثل هذا التوكيد اذ كان المخاطب على شيء من الانكار .

وسياق القصة - بعد - وجدال بني اسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام فيه أكبر دليل على الانكار الذي روعي ابتداء في ابلاغ الخبر على الهيئة التي قد ورد عليها : (ان الله يأمركم . . .)

٢ - وايثار اسم الجلالة (الله) على ما سواه من أسمائه الحسنى فيه ملاءمة قوية للمقام ، فالمقام مقام أمر وتكليف والأمر يقتضي المسارعة في الامتثال واسم الجلالة فيه من تربية المهابة في نفوس المأمورين ما فيه . لأنه الاسم الأعظم الذي لم يسم به غير الله .

٣ - ايثار المضارع (يأمركم) على الماضي (أمركم) لأن المضارع يدل على الاستقبال المناسب لامتثال الأمر ، أما الماضي فقد يفهم منه بنو اسرائيل - لغبائهم - انه مجرد اخبار عن أمر مضى . والقرآن الحكيم حين يخاطب بني اسرائيل يجنح الى البسط والوضوح تحقيقا لهذا الغرض .

٤ - ايثار المصدر المؤول (أن تذبحوا) على الصريح (بذبح) لدلالتـه على الاستقبال وموافقته مع المضارع (يأمركم) لفظا ومعنى ، ووفائهما معا بحق المقام .

٥ - الاتيان بلفظ (بقرة) منكرة لأنه لم يسبق لهم وجه من وجوه التخصيص أو التعريف بها .

٦ - ايثار ذكر الموصوف (بقرة) في المواضع الثلاثة التي أجابهم فيها موسى عليه السلام ؛ (بقرة لا فارض ولا بكر) - " بقرة صفراء فاقع لونها " - " بقرة لا ذلول تثير الأرض " وكان يمكن أن يكتفي باضمارها فيقال : انه يقول انها لا فارض - . . انه يقول انها صفراء - انه يقول انها ذلول ولكن السر البلاغي في ايثار الاظهار على الاضمار ، لأن البقرة - والله أعلم - هي محل النزاع والجدل فكان الاظهار اقطع دلالة وأوضح بيانا واحسم للجدل .

٧ - مجيء النص الحكيم على اخراج الجوابات الثلاثة في أسلوب توكيدي : " انه يقول انها . . " وفي هذا مراعاة المقام ما في قوله في مطلع القصة " ان الله يأمركم . . " مع المحافظة على المنهج القرآني المعجز في مخاطبات اليهود .

٨ - مجيء القول كله مفصولا في القصة سواء كان من بني اسرائيل أم من موسى عليه السلام مثل : قالوا : أتتخذنا هزوا قال : أعوذ بالله ، وهكذا وقد خرج الامام عبد القاهر الجرجاني القول المفصول كله في القرآن الحكيم على أنه جواب عن سؤال مقدرا اقتضاه سياق الكلام .

وسر البلاغي على ما استقر عند البلاغيين من بعده أن بين الجملتين : جملة القول المفصول ، والجملة التي قبلها شبه كمال الاتصال وهو داع من دواع الفصل عندهم سواء كان السؤال مذكورا أم مقدرا .

٩ - ايثار " أدع " على " اسأل " لأن فى الدعاء رغبة صريحة بحاجة الداعى بخلاف السؤال فقد يكون السائل فى غنى عن المسئول . وقد جاء الدعاء فى مكان السؤال فى المواضع الثلاثة التى سأل فيها بنو اسرائيل موسى عليه السلام . وقد حكى القرطبى انها لغة بنى عامر ، أى ادع بمعنى اسأل . والظاهر ان فى وضع الدعاء موضع السؤال مجازا مرسلا أطلق فيه الدعاء وأريد السؤال . فالعلاقة هى الاطلاق والتقييد .

١٠ - ايثار التعبير بـ " ربك " بدل " الله " فى قول بنى اسرائيل : " أدع لنا ربك " وسره البلاغى - والله أعلم - لبيان صلة موسى بالله ، لأنه رسوله ، حيث أمكن مع كلمة " رب " اضافته لموسى عليه السلام ، وهو رب كل شىء ، لهذه الخاصية - الرسالة - وهذا ممتنع فيما لو قالوا : " أدع لنا الله " لأن الله اسم علم والأعلام لا تضاف ، فلا يقال " اللهك " وقد سمع عن العرب اضافة العلم فى " علا زيدنا يوم النقى رأس و " يدكم " والسماع لا يقاس عليه .

١١ - تخصيص الدعاء والبيان لهم فى قوله تعالى : " أدع لنا " ويبين لنا " فى المواضع الثلاثة ، للاشعار بأنهم أصحاب المشكلة المحاور فيها وليس موسى عليه السلام ولا أحد ا سواه ، فالورطة ورطتهم والنجاة مطلوبة لهم .

١٢ - ايثار قوله تعالى : " فأفعلوا ما تؤمرون " على أن يقال : " فاذبحوها " لما فى القول الحكيم من تعميم الامتثال بكل أمر يؤمرون به من ربهم ويدخل فيه الذبح دخولا أوليا . وفى حذف فاعل الأمر (الله) وبناء الفعل للمفعول فوق فضيلة الايجاز البليغ تنبيه لهم على استحضار الأمر السابق

المصرح فيه بالفاعل فى قوله تعالى : " ان الله يأمركم " بكل ما أخرج عليه من توكيدات وهو محور القضية كلها ،

١٣ - وفى قوله سبحانه " تسر الناظرين " مجاز عقلى لأن فاعل السرور الحقيقى هو الله . اسند فيه السرور الى السبب المؤثر وهو رؤية اللون .

١٤ - فى اسناد القتل الى جماعة بنى اسرائيل ، والقاتل واحد منهم سر بلاغى لافت للأنظار ، اذ كيف يسند فعل فاعل واحد الى الجماعة المنتمى اليها فيجىء التنزيل الحكيم بهذا المطلع المثير : " واذ قتلتم نفسا " وكان يمكن أن يقال : واذ قتل بعضكم نفسا .

وقد لحظ الزمخشرى هذا وتلمس له جوابا فقال :

" خوطبت الجماعة لوجود القتيل فيهم "(١) . لكن هذا الجواب الذى ذكره غير كاف فى كشف السر البلاغى . وهو كما ترى الباحثة - والله أعلم - أن القتل جريمة وهو وان فعله واحد من بنى اسرائيل ، فلا يتورع اسرائيلى آخر أن يكون مثله فى ارتكاب الجرائم . لأن طبيعة اليهود قائمة على الاجرام ، وكثيرا ما اسند القرآن الامين هذه الجرائم الى جماعة بنى اسرائيل سواء ارتكبوها هم فعلا ، أو ارتكبها واحد أو فريق منهم مثل : " ويقتلون النبيين بغير الحق ، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون "(٢) .

ومثل : " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان . . . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . . "(٣) .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٨٨
(٢) ٦١ م البقرة ٢
(٣) ٨٥ م البقرة ٢

ومثل : "أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون" (١) ؟ !

وكأن القرآن الحكيم يشير الى هذا "الاخراج" الى ما في طبيعة هذه الفئة من حب الشر واقتراف الآثام وارتكاب الجرائم فالبرىء منهم من جهة الفعل والتلبس مجرم من جهة "القوة" والاستعداد والطبع ، وفعل المجرم الواحد منهم فعل الجماعة والقبيل . وهل يستبعد هذا عن قوم وصفهم القرآن بأنهم : "كمثل الحمار يحمل أسفارا" ؟!

١٥ - ومن الملامح البلاغية الايجاز المحكم البليغ في قوله تعالى : "فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحي الله الموتى . ويريكم آياته" اذ التقدير : فضربوه فأحياه الله . وقد دل على هذا المحذوف اشارتان بليغتان : اشارة سابقة واشارة لاحقة : الاشارة السابقة هي قوله تعالى "اضربوه" حيث جعل الضرب سببا في الاحياء . والاشارة اللاحقة هي قوله تعالى : "وكذلك يحيي الله الموتى" فهذه دليل على أن قتيلهم قد حيي . وحياته تدل على أنهم "ضربوه" ببعض البقرة فاجتمع هنا دليلا الحذف - بلاغة - حيث حذف من الأول لدلالة الثاني عليه "كذلك يحي الله الموتى" وحذف من الثاني لدلالة الأول عليه : "اضربوه ببعضها" أما مرجح الحذف على الذكر ففضيلة الايجاز البياني المفهم واستثمار أقل الألفاظ في الايحاء بأكثر المعاني . وهذه سمة من سمات الاعجاز البياني في القرآن .

---

(١) ٨٧ م البقرة ٢

١٦ - ايثار المضارع على الماضى فى " يحي " و " يريكم " للدلالة على ان احياء الله الموتى ليس مقصورا على ما مضى بل أمر مستمر متجدد . وكذلك اراءته الآيات لا يختص به زمان دون زمان . وقد جمع الآيات وهى هنا آيتان : احياء الميت ، وكونه حصل بضربة بجزء بقرة قد ذبحت . وايثار الجمع اما باعتبار أن الاحياء حدث بضرب ميت بميت . فهذه آية ثالثة . أو باعتبار أن الله قادر - دائما - على اراءة آياته كلها وليس ما يرونه فى هذه الواقعة فقط .

١٧ - ومن الملامح البلاغية أن خولف فى مخاطبة بنى اسرائيل - هنا - فخرج الخطاب من البسط الى الايجاز . والسر البلاغى - والله أعلم - ان فاصلة الآية جاءت " لعلكم تعقلون " وفيها حث على التعقل والتدبر فناسب ذلك طى الكلام بعضه فى بعض وسلك فى الخطاب مسلك الوحي والاشارة بعد أن روضهم البيان القرآنى على الفهم ورقى بهم هذا المرقى ليستثمروا تلك الرياضة ويعملوا عقولهم فى قدرة الله ، وبديع صنائعه لا اله الا هو .

* * *

٢ - ثعبان (١)
موسى عليه السلام

لقد ورد ذكر ثعبان موسى عليه السلام الذى كان عصا فى يده فانقلب الى ثعبان فى قول الله تبارك وتعالى :

١ - " فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " (٢) .

وتكررت الآية نفسها فى سورة أخرى فى قول الله تبارك وتعالى الذى يحكى الحوار بين موسى وفرعون : " قال أو لو جئتك بشىء مبين قال : فأت به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " (٣) .

وورد أيضا باسم (حية) (٤) فى باب الحاء وذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

" قال : القها يا موسى ، فألقاها فاذا هى حية تسعى " (٥) .

---

(١) الثعبان : اسم عام لكل حيوان من مرتبة الثعابين ، رتبة الحرشفيات من الزواحف ، يتميز بجسمه الطويل غير ذى الأرجل ، المغطى بفلوس قرنيه وهو أنواع / ص ٩٦ المعجم الوسيط جـ ١ .

(٢) ١٠٧ ك الأعراف ٧

(٣) ٣٠ - ٣٢ ك الشعراء ٢٦

(٤) الحية : رتبة من الزواحف منها أنواع كثيرة ، كالثعبان والأفعى والصّل وغيرها / ص ٩٦ المعجم الوسيط جـ ١

(٥) ٢٠ ك طه ٢٠

كما أشير اليه فى الاشارات العامة الى خلق الحيوانات مرات كثيرة منها :

قول الله عز وجل : -

١ - " وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون ". (١)

٢ - " فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون " . (٢) (٣)

٣ - " والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى " . (٤)

٤ - " يا موسى : انه أنا الله العزيز الحكيم ، والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون " . (٥)

٥ - " وان الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين ". (٦)

٦ - " فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ". (٧)

---

(١) ١١٧ الأعراف ٧
(٢) تلقف : اشارة الى تحويل العصا الى ثعبان
(٣) ٤٥ الشعراء ٢٦
(٤) ٦٩ طه ٢٠
(٥) ٩ - ١٠ النمل ٢٧
(٦) ٣١ القصص ٢٨
(٧) ٣٦ القصص ٢٨

٧ - " فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين " . (١)

٨ - " ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى " . (٢)

٩ - " فأتياه فقولا انّا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى " . (٣)

١٠ - حقيق على أن لا أقول على الله الاّ الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل " . (٤)

١١ - " فى تسع آيات الى فرعون وقومه ، انهم كانوا قوما فاسقين " . (٥)

١٢ - " قال : كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون " . (٦)

١٣ - " ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " . (٧)

١٤ - " فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : ان هذا لسحر مبين " . (٨)

١٥ - " قال : أولو جئتك بشىء مبين " . (٩)

---

(١) ١٣ النمل ٢٧

(٢) ٥٦ طه ٢٠

(٣) ٤٧ طه ٢٠

(٤) ١٠٥ الأعراف ٧

(٥) ١٢ النمل ٢٧

(٦) ١٥ الشعراء ٢٦

(٧) ٧٥ يونس ١٠

(٨) ٧٦ يونس ١٠

(٩) ٣٠ الشعراء ٢٦

١٣ - " واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى " (١) .

١٤ - " فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه " (٢) (٣) .

١٥ - " فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون " (٤) .

١٦ - " ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بهـا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " (٥) .

وقد ورد ذكره - الثعبان - في هذه الآيات وغيرها في قصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر مغرقا في حوالى خمس سور تقريبا من القرآن الكريم ، وورود ه في القرآن الكريم كان على نوعين :

مرة حين ألقى موسى عصاه بأمر من الله فانقلبت الى ثعبان للمرة الأولى فكانت مفاجأة لموسى عليه السلام ولنا ، وكان ذلك تدريبا له فلا يخاف ولا يهزم بعد ذلك اذا ألقاها أمام فرعون فانقلبت ثعبان .

والمرة الثانية : بعد أن عرف موسى عليه السلام أن العصا التي بيده هي الآية التي سيؤيده بها الله أمام فرعون فتنقلب ثعبانا مبينا فتكون مفاجأة لفرعون ومن معه ويجن جنونه ويجمع السحره فيلقيها موسى للمرة الثالثة فتلقف

---

(١) ٢٢ طه ٢٠

(٢) اشارة الى الثعبان وآية اليد .

(٣) ٣٢ القصص ٢٨

(٤) ٣٥ القصص ٢٨

(٥) ١٠٣ الأعراف ٧

ما يصنع السحرة فيخر السحرة ساجدين ويكفروا بفرعون . . ذلك الطاغى الذى طغى وبغى فى أرض مصر وكفر بالله وظلم الناس واستعبد الاسرائيليين الذين كان يحتجزهم عنده فأرسل الله سبحانه اليه موسى يطلب منه ارسال الاسرائيليين المحتجزين معه ليأخذهم بالرسالة التى أرسله الله اليهم بها " وإذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ". (١) وأيده بتسع آيات : " فى تسع آيات الى فرعون وقومه ، انهم كانوا قوما فاسقين ". (٢) أى اذهب الى فرعون فى تسع آيات ، ومنها آية العصا التى تنقلب الى ثعبان وأخبر فرعون بأنك رسول من رب العالمين وأن لديك البينة التى تثبت ذلك : " وقال موسى : يا فرعون انّى رسول من رب العالمين ، حقيق علىّ ألاّ أقول على الله الاّ الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل ، قال : ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين ". (٣) ويفاجئنا السياق بما فوجىء به فرعون فكأننا نشهد الواقعة للمرة الأولى : " فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " ان فرعون لم يكن ليتصور ما حدث : عصا تنقلب ثعبانا مبينا !! لكنها معجزة الله لنبيه موسى . . انها الآية التى طلبها فرعون لتكون دليلا على صدق موسى عليه السلام فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ولما كان

---

(١) الشعراء ٢٦ ١٠ - ١١

(٢) النمل ٢٧ ١٢

(٣) الأعراف ٧ ١٠٤ - ١٠٦

موسى عليه السلام صادقا وكان رسولا من رب العالمين فما هي الا حركة بسيطة يقوم بها موسى فتكون المعجزة " عصا تنقلب ثعبانا مبينا " وهذه المعجزة أو البينة أو الآية أو الثعبان هي مدار بحثنا لنرى فيها قدرة الله التي حولت النار على ابراهيم عليه السلام الى برد وسلام وحولت الصخور الى عيون تنفجر منها المياه وحولت الكثير والكثير من الأشياء المألوفة لدى الناس الى أشياء غير مألوفة عندهم وعندما تحدث المعجزة يؤمن الناس بأن القادر على ذلك هو الخالق وحده عندها فقط يبطل العجب أمام هذه القدرة العظيمة فالخالق للعصا والثعبان هو واحد ومن الممكن أن يحول الثعبان الى عصا وأن يحول العصا الى ثعبان فتعترف العقول بهذه القدرة لله وحده وتخر ساجدة له وحده كما فعل السحرة الذين أتى بهم فرعون " وألقي السحرة ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ". (١) أو تتحجر العقول ان شاءت كما فعل فرعون حين ألقى موسى عليه السلام عصاه للمرة الأولى أمامه بناء على طلبه الآية : " ان كنت جئت بآية فأتى بها ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ".

واذا تمعنا في تلك الآيات الكريمة التي ذكرت تلك المعجزة :

(انقلاب العصا الى ثعبان أو حيه) نجد أنها ذكرت في ثلاث مشاهد

---

(١) الأعراف ٧ ١٢٠ - ١٢٢

يمكن ترتيبها من أول مرة حين انقلبت العصا الى ثعبان وكان ذلك مفاجأة له عليه السلام وتدريبا الى أن تمكن من تلك العصا وأصبحت سلاحه العظيم ونال بها مأربه أمام فرعون فخر السحرة ساجدين لله رب العالمين ولنرى تلك المشاهد :

المشهد الأول (للثعبان) :

وقد وردت فيه ثلاث آيات يطمئن الله سبحانه نبيه فيها ويأمره بالقاء العصا تدريبا له عليه السلام وتهيئة له لحمل الرسالة الى فرعون فلا ينهـــزم أمامه .

الآية الأولى :

قال تعالى : " فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النـــار لعلكم تصطلون ، فلما آتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعـــة المباركة من الشجرة : أن يا موسى انى انا الله رب العالمين ، وأن ألـق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين " (١) .

الآية الثانية :

قال تعالى : " وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال : هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال القها يا موسى - فالقاهـــا فاذا هى حية تسعى قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى " (٢) .

---

(١) ٢٩ - ٣٠ القصص ٢٨

(٢) ١٧ - ٢١ طـه ٢١

الآية الثالثة :

قال تعالى : " يا موسى أنه انا الله العزيز الحكيم ، والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون ". (١)

وهذه الثلاث آيات حدثت فى وقت واحد تعبر عن موقف واحد وتحكى مشهدا واحدا ولكن الأسلوب اختلف في الثلاث آيات . ومجمل ما تحكيه : أن موسى عليه السلام بعد أن قتل نفسا فى مصر أئتمروا به ليقتلوه " فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين " (٢) وتوجه الى مدين وفى مدين التقى بشيخ كبير له ابنتان ترعيان الغنم فتزوج من أحدهما مقابل أن يرعى غنم الشيخ الكبير سبع سنين فان زاد فى السنوات فمن عنده وبعد أن أنتهت عشرة سنوات توجه عائدا الى مصر مصطحبا أهله معه ، وفى أثناء عودته والوقت ليل والجو ظلمة والطقس شاتيا ضل الطريق :

" فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله : امكثوا انى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ".

وفى آية أخرى : " اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى " (٣) .

---

(١) ٩ - ١٠ النمل ٢٧

(٢) ٢١ القصص ٢٨

(٣) ١٠ طـــه ٢٠

ترك أهله وقصد النار التي رآها في الوادي وهنا تحدث المفاجـــأة الكبرى التي نحن بصددها : يتجلى له الحق جل جلاله : " فلما آتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة " جـــوار جبل الطور ، الوادي الى يمينه تتجاوب جنبات الكون كله بالنداء العلـوي الآتي لموسى : -

" أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين "(١).

" يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم "(٢).

" يا موسى ، اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ، وأنـا اخترتك فاستمع لما يوحى ، انني أنا الله لا اله الا أنا فأعبدني وأقم الصلاة لذكرى ، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى "(٣).

كان النداء للاصطفاء ، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة الى أكبر الطغاه في الأرض في ذلك الحين"(٤).

وبعد هذا النداء وبعد هذا التجلي العظيم الذي كان مفاجأة لموسى عليـه السلام يأتي التمهيد للمفاجأة الثانية لموسى عليه السلام : " وما تلك بيمينك يا موسى ، قال هي عصاي اتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال : القها يا موسى " وفي آية أخرى : " وان الق عصاك " وفي موضع آخر :

---

(١) ٣٠ القصص ٢٨
(٢) ٩ النمل ٢٧
(٣) ١١-١٦ طه ٢٠
(٤) جـ ١٩ / ١٣١ ط١ في ظلال القرآن لسيد قطب .

" والق عصـاك ".

(والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا فى يده انما كان عما فى يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، انما عن وظيفتها معـه فأجاب .. ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم - وقد كان يرعى الغنى لشعيب وقيل : أنه ساق معه فى عودته قطيعا منها كان من نصيبه - وأن يستخدمها فى أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذجا منها)[1] .

وماذا بعد ذلك السؤال عن العصا وهذه الاجابة التى أوضحت أن التى يمسك بها فى يده ما هى الا عصا يستخدمها فى رعى الغنم كأى عصا يمسك بها أى راعى فى يده ؟ . لقد أمره مولاه جل جلاله أن يلقى بتلك العصا التى فى يده ، يلقى بها على الأرض ليرى من شأنها ما لم يخطر ببال موسى عليه السلام من الأمور وما عساها أن تكون وهى عصا جامده : " قال القها يا موسى " - وتكرير النداء (يا موسى) لتأكيد التنبيه - وفى سورة النمل يختصر السـياق القرآنى ذلك النجاء الطويل الذى فى سورة طه بين موسى عليه السلام ومولاه جل علاه حيث أن العبرة فى سورة النمل هى عبرة النداء والتكليف وكذلك فى سورة القصص " وان الق عصاك " والق موسى عصاه اطاعة لأمر مولاه فوقعـت

---

(١) ١٦ / ٧٠ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

المعجزة الخارقة (التي تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لا ينتبهون اليها ، وقعت معجزة الحياة . فاذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة الى خلية حية ، ولكنها لا تبهر الانسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك ان الانسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت اليها وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسه ، فيمر عليها غافلا أو ناسيا)[١] . وقعت المعجزة التي تعنينا في بحثنا هذا عن العصا ، وقعت المعجزة فاذا بالعصا الجامدة (حية تسعى) وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير من الحيات واذا بموسى عليه السلام يدهش لتلك المعجزة بل ويخاف بل ويولي مدبرا ولم يعقب : " فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب " لقد كانت المعجزة مفاجأة أكبر مما كان يتوقع عليه السلام فأدركته طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببال ، وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر في الرجوع ! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعالية .[٢]

---

(١) ١٦/ ٧٠ - ٧١ في ظلال القرآن لسيد قطب.

(٢) ١٩/ ١٣١ طـ١ في ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف .

لقد كان متأكدا من العصا التى كانت فى يده انها عصا فقط فقد صاحبها طويلا وعرفها معرفة يقين وصاحب الشىء اعرف به من غيره ولو كانت عصا غير التى كانت بيده ورآها تنقلب الى حية تسعى لهان الأمر اذ من الممكن أن تكون عصا لها أسرار أما العصا التى كانت فى يمينه فلا . . انها مجرد عصا كان يمسك بها وهنا تبرز أهمية السؤال الذى طرحه عليه مولاه جل علاه : " وما تلك بيمينك يا موسى ؟ " .

وحق لموسى عليه السلام أن يخاف وأن يولى ولم يعقب حيث أن السياق القرآنى قد ذكر مرة : أن تلك العصا انقلبت الى (حية تسعى) وذكر مرة أخرى فى موضع آخر أنه عليه السلام (رآها تهتز كأنها جان) فقد (روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا تارة أخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعبانا وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل" فاذا هى ثعبان مبين " وانما شبهت بالجان فى الجلاده وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة)[1] فقد يكون الجان أكبر من الثعبان والحيه ونحن لا نعرف شكله والله أعلم به . وشبهت العصا بالحية أيضا ـ وقد انقلبت الى ثعبان ـ فى الجلاده أيضا وسرعة الحركة اذا صح القول ان العصا انقلبت أول الأمر ثعبانا ذلك أن الثعبان أكبر من الحية . المهم

---

(١) المجلد ٢ جـ ٦ / ١٠ تفسير أبى السعود

ان العصا كان لها اهتزاز الجان واهتزاز الحية والثعبان جميعا في حركات بهلوانية سريعة غير عادية ومن ثم شبهت العصا مرة بالجان ومرة بالثعبان ومرة بالحية .

(ثم نودى موسى بالنداء العلوى المطمئن ، واعلن له عن طبيعة التكليف الذى سيلقاه : " يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون " .

لا تخف فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون في حضرة ربهم و هـــم يتلقون التكليف) (١) .

وفى سورة القصص : " يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين " وفى سورة طه تتضح الطمأنيـة والأمن من الله عز وجل لموسى عليه السلام أكثر وأكثر حيث لم يذكر السياق ما ذكره فى سورة النمل والقصص من أنه عليه السلام ولى مدبرا ولم يعقب و (انما يكتفى بالاشارة الخفيفة الى ما نال موسى - عليه السلام - من خوف : ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة ، فلا يشوبه بحركة الفزع والجرى والتولى بعيدا) (٢) .

" فألقاها فاذا هى حية تسعى قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى " واطمأن موسى عليه السلام بهذا النداء العلوى المطمئن ، وكيف لا يأمن من تتقل يد القدرة خطاه ومن ترعاه عين الله ؟ (خذها ولا تخف)

---

(١) ١٣١/١٩ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) ٧١/١٦ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

فاستجاب لأمر ربه ثانية فأخذ العصا كما استجاب أولا فألقى العصا . والتقط الحية مع أنه لا يزال يراها حية أو ثعبان وكأنه يريد أن يتخلص منها فالشرط في اعادتها الى عصا هو أن يلتقطها أو يأخذها ولا يخاف منها وهـــذا (إيذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجه فرعون)[١] .

ويلتقط موسى عليه السلام العصا ، (فاذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا !! ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحي ، فاذا هو جامد ميت ، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى)[٢] .

---

(١) المجلد ٣/ جـ ٦/ ١١ تفسير ابى السعود

(٢) ١٦/ ٧١ ط ١ في ظلال القرآن لسيد قطب .

المشهد الثاني (للثعبان) :

وقد وردت فيه آيتان :

وفي هذا المشهد يلقى موسى العصا للمرة الثانية ولكن هذه المرة أمام فرعون بعد أن تدرب عليها في المرة الأولى حين كان وحيدا في الوادي عليه السلام، يلقيها أمام فرعون للمرة الثانية فاذا هي ثعبان مبين كما حدث في المرة الأولى ، ولكن هذه المرة يلقيها موسى ويأخذ بها وهو متمكن منها لا يخاف منها فهي سلاحه أمام فرعون الذي طغى وتمرد وقال له :

١ - " ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ".(١)

وتكرر ذكر الثعبان بنفس الألفاظ في سورة أخرى في نفس الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وهذا الطاغي فرعون الذي قال لموسى :

٢ - " لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين ، قال أو لو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ".(٢)

والغرض الذي أرسل الله سبحانه من أجله موسى الى فرعون هو :

(اطلاق بني اسرائيل من رق فرعون وملئه ، اطلاقهم مع موسى ليأخذ هم بالرسالة التي أرسله الله اليهم بها . وليست رسالة الى غير بني اسرائيل

---

(١) ١٠٦ - ١٠٧ ك الأعراف ٧
(٢) ٢٩ - ٣٢ الشعراء ٢٦

من البشر ، انما هى لهم خاصة كما يدل عليها النص)[١] فى سورة الأعراف :

" وقال موسى : يا فرعون انى رسول من رب العالمين حقيق على ألا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل "[٢].

ومن أجل هذا الغرض كانت تلك المعجزة (انقلاب العصا الى ثعبان أو حية) ومن أجل هذا الغرض دربه سبحانه على العصا فى الوادى المقدس حتى لا يخاف منها مرة أخرى حين يلقيها أمام فرعون وقت الحاجة فتنقلب الى ثعبان .

ومع أن موسى عليه السلام قد تمكن من العصا وأصبحت فى يده سلاحا فتاكا ، فقد طلب من الله جل جلاله أن يرسل معه أخاه هارون لأنه أفصح منه لسانا وذلك ليحتاط لفرعون من جميع الجهات حيث كان موسى عليه السلام يعلم بأنه مرسل الى أكبر الطغاة الظالمين فى ذلك الحين كما وصفه بذلك سبحانه : " وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المفسدين "[٣] واستجاب الله لموسى وأرسل معه أخاه هارون وذهبا الى فرعون وقالا له كما أمرهما مولاهما ومولى جميع الخلق : - " انا رسول من رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى اسرائيل "[٤].

ففزع هذا الطاغى الكبير من قولهم هذا حيث كان يقول للناس أنه هو رب العالمين وخاف على ملكه وعلى عرشه " وقال فرعون : وما رب العالمين "[٥] فأجابه موسى

---

(١) ٩/٢١ - ٢٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١
(٢) ٧ الأعراف ١٠٤ - ١٠٥
(٣) ١٠ يونس ٨٣
(٤) ٢٦ الشعراء ١٦ - ١٧
(٥) ٢٦ الشعراء ٢٣ .

عليه السلام : " رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ، قال : لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين ، قال : أو لو جئتك بشىء مبين ؟)[١].

(أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده . والتعبير هنا بالشىء للتهويل)[٢].

قالها عليه السلام قولة الواثق من نصر الله وتأييده كيف لا وقد وعده مسولاه بذلك حين " قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون "[٣]. وحين قال سبحانه : " لا تخافا فانني معكما أسمع وأرى "[٤].

أما فرعون فقد قال قولة المغرور الظالم : " قال : فأت به ان كنت من الصادقين "[٥].

---

(١) ٢٤ - ٣٠ الشعراء ٢٦

(٢) المجلد ٣ جـ ٦ / ٢٤٠ تفسير أبى السعود

(٣) ٣٥ القصص ٢٨

(٤) ٤٦ طـــه ٢٠

(٥) ٣٥ القصص ٢٨

ويفاجئنا السياق بما فوجىء به فرعون ، فكأننا نشهد الواقعة للمرة الأولى . . تقع المعجزة للمرة الثانية وهى المعجزة أو البينة التى طلبها فرعون وهى مصداق الدعوة التى جاء بها موسى عليه السلام : " فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " . (١) والتعبير بقوله (فالقى عصاه) يدل على أن موسى قد ألقاها دون وحى أو أمر من الله عز وجل لأنه كان ينتظر ذلك اللقاء مع فرعون فقد أعلمه به سبحانه واعده له ودربه على السلاح الذى سيهزم به عدو الله وعدوه فما أن رأى الحاجة الى القاء العصا حتى القى بها أمام فرعون " فاذا هى ثعبان مبين " .

ومعنى مبين (أى ظاهر أمره لا يشك فى كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وايثار الجملة الأسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك . روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس ازدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون يا موسى انشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصا (٢)

وحدثت المعجزة للمرة الثانية أيضا فاذا بالثعبان أو الحية - التى أخافت فرعون وأرهبته هو وحاشيته ومات منها أو من الخوف منها خمسة وعشرون ألفا من

---

(١) ١٠٧ ك الأعراف ٧/ ٣٢ ك الشعراء ٢٦

(٢) المجلد ٢/ جـ ٣/ ٢٥٨ تفسير ابى السعود .

الناس - يعود سيرته الأولى يعود عصا كما كان أول مرة ! انها القوة الغالبة التي سخرها سبحانه لموسى عليه السلام وأيده بها والسلطان الذى جعلـــه له فلا يصل اليه أحد وجعله ومن اتبعه من الغالبين فأيده بتسع معجزات منها معجزة العصا هذه التي تحولت الى ثعبان حيث أن التعبير فى القرآن الكريم بهذا الأسلوب (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين)(يدل على أن العصـــا تحولت فعلا الى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا . يدل على هذا قوله : " فاذا هى " فلم يكن الأمر تخييلا ، كما هو الحال فى السحر الذى لا يغير طبائع الأشياء ، انما يخيل للحواس بغير الحقيقة)(١)

كما عبر عن ذلك القرآن الكريم حيث يقول : (قال القوا فلما القوا سحـــروا أعين الناس واسترهبوهم)(٢)

وبالرغم من ضعف فرعون أمام الثعبان أو امام موسى وبالرغم من أنه انكشف أمام قومه البلهاء الذين كانوا يصدقون بأنه اله فأحدث أمامهم وأن اله هذا الذى يفعل ذلك ؟ وبالرغم من احساسه هو بذلك الضعف أمام ضخامة المعجـــزة وقوتها . . بالرغم من ذلك كله فان كفره وعناده وتمرده وجبروته التي استحـــق أن يكون بسببه من أكبر الطغاة فى الأرض اذا وجد طغاة فى الأرض أمثاله

---

(١) ١٩ / ٧٨ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب

(٢) ١١٦ الأعراف ٧

على مر العصور ، لكنه الوحيد في عصره أكبر طاغي . . أقول ان كفره وعناده وتمرده وجبروته جعلوه يكاد يتملق القوم من حوله ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطي على وقع المعجزه المزلزلة :

" قال للملأ حوله : ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ " (١) .

(وفي قولة فرعون هذه يبدو اقراره بعظمة المعجزة وان كان يسميها سحرا ، فهو يصف صاحبها بأنه ساحر " عليم " . ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به : " يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره " ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم الها ، فيطلب أمرهم ومشورتهم : " فماذا تأمرون " ؟ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون ! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم عندئذ يلينون في القول بعد التجبر . ويلجأون الى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالاقدام ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى : ذلك الى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم اذا هم جبابرة مستبدون ظالمون !) (٢) .

لكنهم بشر مهما ظلموا فهناك قوة أعظم منهم انها قوة الله الواحد الأحد ومن طبيعة البشر أنهم اذا أحسوا بالهزيمة يبحثون عن المنقذ بأى طريقة

---

(١) ٢٤ - ٢٥ الشعراء ٢٦

(٢) ٧٩/١٩ ط١ في ظلال القرآن لسيد قطب .

حتى من يدعى انه اله ينسى هذا الادعاء فى سبيل انقاذ نفسه وملكه وهكذا ظهرت هذه الطبيعة عند فرعون حيث وجد بطانة السوء وحاشية السوء أقرب من يلجأ اليه فتودد اليهم مستشيرا اياهم : " فماذا تأمرون ؟ " . كما أن حاشية السوء هذه وأصحاب النفوذ الذين يشترون نفوذهم بتزيين الضلال والصد عن الهوى أخذوا يردون مقالته ويقوون عزيمته ويظنون ان فرعون كان على حق وانهم هم الغالبون : " قال الملأ من قوم فرعون : ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ " (١) . فيشير فريق منهم على فرعون وملائه بأن يردوا سحر موسى - على زعمهم - بسحر أعظم منه بشرط أن يستعدوا لذلك ويتهيؤا له : " قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم " (٢)

وفى سورة أخرى : " قالوا ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم " وبث رأى هذا الفريق القوة فى نفس فرعون ودفعه لتحدى موسى !

وهكذا طلب موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة . . وترك له اختيار ذلك الموعد : للتحدى : " فأجعل بيننا وبينك موعدا " وشدد عليه

---

(١) الأعراف ٧ ١٠٩ - ١١٢

(٢) الشعراء ٢٦ ٣٦ - ٣٧

فى عدم اخلاف الموعد زيادة فى التحدى : " لا نخلفه نحن ولا أنت " وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف : " مكانا سوى " مبالغة فى التحدى وقبل موسى - عليه السلام - تحدى فرعون له واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس فى مصر زينتهم ، ويتجمعون فى الميادين والأمكنة المكشوفة : " قال موعدكم يوم الزينة " وطلب أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا . فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت فى أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا فى يوم العيد .

. . . . وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الايمان والطغيان فى الميدان)[١] . ليرفع على مشهد مباراة السحر والسحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ، وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الايمان والطغيان)[٢]

ويبدأ المشهد الثالث " للثعبان " :

وقد ذكرت فيه ثلاث آيات :

فى قول الله تبارك وتعالى :

١ - " وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون "[٣] .

٢ - " فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون "[٤] .

---

(١) ١٦/ ٨٢ - ٨٣ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) ١٩/ ٨٠ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٣) ١١٧ الأعراف ٧

(٤) ٤٥ الشعراء ٢٦ .

٣ - " والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى "(١).

ولم يذكر السياق تفصيلا في جمع أمهر السحرة وتهيئتهم لمواجهة موسى واعدادهم لذلك وانما يكتفي السياق بقوله : " فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى "(٢) ويرفع الستار مرة أخرى على مشهد السحرة مجموعين حول فرعون قبل المباراة يطمئنون على الأجر والمكافأة : ان كانوا هم الغالبين ويعدهم فرعون بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم !

" فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وانكم اذا لمن المقربين "(٣) وبعيدا عن هذا الجو المظلم الذى يسيطر عليه ظلم فرعون وملأه ويتراقص السحرة فيه بسحرهم ظانين أنهم سيستطيعون أن يطفؤا نور الله بسحرهم ناسين أو جاهلين أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل بالسحر (انما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة ، التى لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون)(٤) .

---

(١) ٦٩ طـه ٢٠

(٢) ٦٠ طـه ٢٠

(٣) ٣٨ - ٤٢ الشعراء ٢٦

(٤) ٢٣/٩ ط١ في ظلال القرآن لسيد قطب .

بعيدا عن هذا الجو وقبل الدخول فى المباراة كان موسى - عليه السلام - يحاول أن يعظهم ويهددهم ويحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله لعلهم يدعون التحدى بالسحر فالسحر افتراء : " قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (١) " (٢) لقد أحدثت كلمته هذه - عليه السلام - دويا وتأثيرا كبيرا بين السحرة : " فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى " (٣) ولم يجدوا ما يفسرون به كلام موسى عليه السلام الا أنه سحر : " قالوا : ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى " (٤) ذلك انها كانت كلمة صادقة صادرة عن عقيدة فكانت كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم ، تزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم ، وفى ما هم عليه من عقيدة وفكرة ، وموسى وأخوه رجلان اثنان والسحرة كثيرون ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله لكن فرعون الطاغى أول من حسب لموسى حساب وأول من أحس بأن موسى وراءه قوة تؤيده بدليل أنه قبل أن يجادله ويطاوله وموسى فرد من بنى اسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره وأكثر من ذلك أنه تحداه وجمع كيده (٥) .

---

(١) يسحتكم : أى يهلككم ويستأصلكم .

(٢) ٦١ طه ٢٠

(٣) ٦٢ طه ٢٠

(٤) ٦٣ طه ٢٠

(٥) ٨٤/١٦ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف .

وأثار الحماسة فى قلوب من حوله للتحدى : " فاجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى "(١).

فما هو السر وراء هذا الخوف من موسى والحساب له على هذا النحو ؟ انها قوة الله الواحد الأحد التى لا يقف أمامها أحد لا فى السماء ولا فى الأرض ، وبأبسط طريقة وأعظم قوة ألقى سبحانه الهيبة على موسى وهارون لقربه منهم وقوله لهم : " اننى معكما أسمع وأرى "(٢) .

وكيف تمثلت لهم هذه الهيبة وهذه القوة من الله ؟ انها فى العصا التى فى يمين موسى - عليه السلام - عصا فقط ! لم يكن يملك قنبلة ولا رشاشا ولا مدفعيه ولكنها كانت أقوى من ذلك كله لأنها بأمر الله ربه عليها سبحانه وجعلها له سلاحا فتاكا يلقيها متى شاء فتنقلب حية أو ثعبانا مبينا ويمسك بها فتعود سيرتها الأولى !!

ولنشهد فى هذا المشهد الثالث والأخير ما سيكون من أمر هذه العصا أو الثعبان الذى جعله سبحانه سلاحا أو معجزة لموسى - عليه السلام - وقد رأينا فيه اعداد العدة وجمع أمهر السحرة من كل مدينة واصرارهم على اجراء المباراة وتحديهم لموسى وقولهم له : " يا موسى اما أن تلقى واما نكون أول من ألقى ، قال : بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم

---

(١) ٦٤ طه ٢٠

(٢) ٤٦ طه ٢٠

أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف انك أنت الأعلى ، والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجدا قالوا : آمنا برب هارون وموسى "(١).

وفى سورة أخرى : " قالوا يا موسى : اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين "(٢).

بعد الارتباك والتناجى واستثارة الهمم اقدموا نحو موسى - عليه السلام - بتحدى يتضح من قولهم : " اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين " أو " أول الملقين " وفى مقابل ذلك كان الاطمئنان يملأ قلب موسى .... اطمئنان الى الحق الذى معه وثقة بالنهاية فكلمات الحق جل جلاله تملأ نفسه وتمده بالقوة والثبات والشجاعة والاقدام : " سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما ، بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون "(٣)، " انني معكما أسمع وأرى "(٤). ومن هنا فقد كان عليه السلام هادئا غير مكترث لجمع السحرة المحشودين من المدائن المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ووراءهم فرعون وملؤه وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة ..."(٥)

---

(١) ٦٤ - ٧٠ طه ٢٠

(٢) ١١٥ الأعراف ٧

(٣) ٣٥ القصص ٢٨

(٤) ٤٦ طـــه ٢٠

(٥) ٨١/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١.

ويتجلى هذا الهدوء وهذا الاطمئنان عنده في قوله لهم : " القوا ما أنتم ملقون " فهو لا يهتم بما سيلقونه ولا يكترث بما سيفعلونه مهما عظم فما عنده أعظم لأنه بأمر الله . . .

وألقى السحرة ما عندهم من سحر ، فماذا حدث ؟

" فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم "(١) .

فما هو هذا السحر العظيم الذى شهد له القرآن بأنه عظيم : " فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون انا لنحن الغالبون "(٢) ، " فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى "(٣) .

ولكن رغم ذلك الاطمئنان الذى كان يملأ قلبه - عليه السلام - والهدوء النفسى الذى كان يسوده ، كان سحرهم مفاجأة له - عليه السلام - مما جعله يوجس فى نفسه خيفة : " فأوجس فى نفسه خيفة موسى " ذلك أن سحرهم كان عظيما كما وصفه بذلك سبحانه " وجاءوا بسحر عظيم " وكما يشى هذا التعبير " فأوجس فى نفسه خيفة موسى " بعظمة السحر وضخامته وأنه لأمر جلل أنساه لحظة القوة التى فى يمينه (العصا) التى درّبه الله عليها لهذا الموقف ، أنساه لحظة أنه الأقوى حيث أن الله معه يسمع ويرى وما عليه الا أن يلقى العصا . . ولكن سرعان ما تذكر بأن الله وعده بأنه معه

---

(١) الأعراف ٧ ١١٦

(٢) الشعراء ٢٦ ٤٤

(٣) طه ٢٠ ٦٦

ومن ثم لم يترك - سبحانه - هذا الشعور يسيطر على موسى وانما هى لحظة واحدة عند رؤيته لسحرهم فى أول لحظة وسرعان ما ذكره ربه جل جلاله بأنه معه وما دام كذلك فالقوة الكبرى معه . . . ثم ان التعبير القرآنى حينما يثبت بأنه سحر عظيم وأن موسى عليه السلام قد أوجس منه خيفة فهذا دليل على أنه ينبغى أن تكون القوة المواجهة أكبر وأعظم ، والاّ لو كان سحرهم سحرا هينا بسيطا لتغلب عليه أى ساحر مثلهم ولما كانت المعجزة التى أعجزتهم وأيقظتهم وجعلتهم يخروا ساجدين لرب العالمين : " قلنا لا تخف انك أنت الأعلى والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد سحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى "(١) . وعادت الطمأنينة الى قلب موسى وكأن مشهد السحر الذى سحروا به أعين الناس والذى أنساه للحظة أن الله معه أنساه أيضا القوة التى أيده الله بها رغم أنها فى يمينه أو كأنه استهان بها للحظة أيضا أمام سحرهم العظيم ! ولكن سرعان ما يذكره الله بها أيضا وأنها هى القوة وهى السلاح الفتاك ، وان سلاحهم الذى القوة انما هو سلاح مزيف ، انما هو كيد يسحر أعين الناس فقط ولا يقلب حقيقة الأشياء فعلا : " والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد سحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى "(٢) .

---

(١) ٦٨ - ٦٩ طه ٢٠

(٢) ٦٩ طه ٢٠

وفى سورة أخرى يأتى هذا التذكير لموسى عليه السلام بصيغة أخرى :

" وأوحينا الى موسى أن الق عصاك ، فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون " (١) .

وانصاع موسى لأمر ربه وعادت القوة تدب فيه من جديد : " فألقى موسى عصاه ، فاذا هى تلقف ما يأفكون " (٢) . فوقعت المعجزة للمرة الثالثة فى العصا حيث انقلبت الى ثعبان : وكانت هذه المعجزة أول مرة : مفاجأة لموسى وهو وحيدا فى الوادى حين أمره مولاه أن يلقى العصا فاذا هى ثعبان مبين فاذا موسى - عليه السلام - يولى مدبرا ولم يعقب ، وكانت مفاجأة لنا نحن أيضا .

ووقعت المعجزة للمرة الثانية أمام فرعون فكانت مفاجأة لفرعون أذهلته وجعلته يحدث أمام الناس وكانت مفاجأة للناس قتل منها خمسة وعشرون ألف شخص منهم وها هى ذا تحدث للمرة الثالثة : تنقلب العصا الى ثعبان فتلقف ما يصنعون ! انها مفاجأة فى هذه المرة للسحرة المهرة الذين بذلوا غاية الجهد فى فنهم الذى عاشوا به واتقنوه ، ولا نغالى اذا قلنا أنها مفاجأة لنا نحن أيضا فقد عرفنا أنها - العصا - تنقلب الى ثعبان أما أن تلقف أو تبتلع ما صنعوا من حيات خيل للناس أنها حيات بسحرهم فهذه مفاجأة . والتعبير القرآنى هنا لم يذكر أن العصا قد تحولت الى ثعبان

---

(١) الأعراف ٧ ١١٧ - ١١٨

(٢) الشعراء ٢٦ ٤٥

فى هذه المرة ، كما عبر عن ذلك فى المرتين السابقتين : " فاذا هى ثعبان مبين " أو " فاذا هى حية تسعى " وانما يختار هذا اللفظ : " فاذا هى تلقف ما يأفكون " أو " تلقف ما صنعوا " للتعبير عن أن العصا قد تحولت الى ثعبان أو حية ثم لقفت ما صنعوا وهى سرعة تناسب سرعة الموقف لا يطيل فى التعبير فيقول : فاذا بالعصا قد تحولت الى ثعبان أو قد تحولت الى حية تدب فيها الحياة وتتحرك وتلقف ما يأفكون ، كما أن السرعة تتجلى أكثر باختيار اللفظ (تلقف) فلم يقل فاذا هى تأكل ما صنعوا أو ما يأفكون ذلك أن (اللقف أسرع حركة للأكل وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلا ، ولكن العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقا . فلا تبقى لها أثرا . ولو كان ما جاء به موسى سحرا ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها . ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلا ! عندئذ لا يملكون أنفسهم من الاذعان للحق الواضح الذى لا يقبل جدلا وهم أعرف الناس بأنه الحق)(١) لأن السحر مهنتهم يختلف عما رأوا فى عصا موسى وهم يعرفون أن مهنتهم أو صنعهم كيد ساحر ، تضليل لأعين الناس، وهذا الذى رأوه فى عصا موسى يختلف عن أفعالهم وما داموا أنهم أعرف الناس بأن صنيعهم تضليل وأن صنيع موسى يختلف عن صنيعهم فاذا لابد أن يكون هو على الحق وهم على باطل لذا فقد وجدوا أنفسهم (ملقين سجدا ، بغير

---

(١) ١٩/٨١ - ٨٢ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

ارادة منهم ، تتحرك ألسنتهم ، فتنطلق بكلمة الايمان في نصاعة وبيان)[1] :
" فألقي السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون "[2].

لو كان ما فعلوه أو ما صنع موسى سحر لما فعل بهم كل ذلك ولكنه الحق من ربهم ، الحق الذى مس قلوبهم فحولهم تحويلا وقد كانوا منذ اللحظة مأجوريـــن ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية ، الحق الذى كان هزة رجتهم رجا ، وخضتهم خضا ، ووصلت الى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافيـــة حية خاشعة للحق ، عامرة بالايمان ، فى لحظات قصار)[3] وقد عبر عـن ذلك الحق فى سورة أخرى بقوله تعالى : " فوقع الحق وبطل ما كانـــوا يعملون "[4] .

فالباطل (ينفش وينبعج وينتفخ ، ويسحر العيون ويسترهب القلوب ، ويخيل الى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه محرق مبيد . وما هو الا أن يواجه الحق الهادئ المطمئن حتى ينغشئ كالفقاعة وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم . واذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور والتعبير هنا يلقى هذه الظلال ، وهو يصور الحق واقعا ذا ثقـل

---

(١) ١٩/٨٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١
(٢) ٤٧ - ٤٨ الشعراء ٢٦
(٣) ١٩/٨٢ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف.
(٤) ١١٨ الأعراف ٧.

ووزن : " فوقع الحق " وثبت واستقر ، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود : " وبطل ما كانوا يعملون "

ولما كان ما ألقاه موسى - عليه السلام - هو الحق كان في مقابله ما ألقوه هم هو الافك هو الكذب هو الضلال هو الكيد (ما يأفكون) و (تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد سحر " .

. . . . . .

الغرض البياني والتربوي

من ذكر الثعبان في القرآن الكريم

ذكر الثعبان في معرض الآيات التي ثبت الله بها موسى عليه السلام ليحمل عبء الرسالة والنبوة وكانت هذه الآيات تسع آيات وعد الله بها موسى - عليه السلام - في قوله جل جلاله : " في تسع آيات الى فرعون وقومه . انهم كانوا قوما فاسقين "(١). أي اذهب في تسع آيات الى فرعون وقومه . وقد كشف عن هذه الآيات التسع في سورة الأعراف وهي :

١- سنون الجدب .

٢ - نقص الثمرات : في قول الله تبارك وتعالى : " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ، لعلهم يذكرون "(٢) .

٣ - الطوفان

٤ - الجراد

٥ - القمل

٦ - الضفادع

٧ - الدم ، وهذه الآيات الخمس مجموعة في قول الله تبارك وتعالى :

---

(١) ١٢ النمل ٢٧

(٢) ١٣٠ الأعراف ٧

" وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ".(١)

(وسيأتي الحديث عن آية الجراد والقمل والضفادع في الحيوانات التي وقعت فيها معجزات) .

٨ - يده - عليه السلام - التي أدخلها في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء .

٩ - العصا التي تحولت الى ثعبان وتحدثنا عنها ، كما أشير الى هذه الآيات التسع اشارة عامة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وفي الاشارة اليها اشارة الى آية الثعبان كما في قوله تعالى :

١ - " ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملإيه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ".(٢)

٢ - " فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ".(٣)

---

(١) ١٣٢ - ١٣٣ الأعراف .

(٢) ٧٥ يونس ١٠

(٣) ٣٦ القصص ٢٨

٣ - ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بهـــا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين "(١).

٤ - " فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانـــوا عنها غافلـين "(٢).

٥ - " قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقـض ما أنت قاض "(٣).

٦ - " اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى "(٤).

٧ - " ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى "(٥).

٨ - " فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين "(٦).

٩ - " قال : كلا فاذهبا بآياتنا انّا معكم مستمعون "(٧).

١٠ - " فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون "(٨)

وبما أن الثعبان كان معجزة أو آية من تلك الآيات التسع أو المعجزات التسع فقد ورد ذكره فى القرآن الكريم وهذا هو الغرض من ذكره ومن ثم فقـد القينا الضوء على الآيات التى ورد ذكره فيها لنراه فيها .

---

(١) ١٠٣ الأعراف ٧
(٢) ١٣٦ الأعراف ٧
(٣) ٧٢ طـــه ٢٠
(٤) ٤٢ طـــه ٢٠
(٥) ٥٦ طـــه ٢٠
(٦) ١٣ النمل ٢٧
(٧) ١٥ الشعراء ٢٦
(٨) ٣٥ القصص ٢٨

وبالاضافة الى هذه الآيات التى أشارت الى الآيات التسع ومنهـــا آية الثعبان ، وبالاضافة الى الآيات التى ذكرت الثعبان أو الحية ذكـــرا واضحا وتحدثت عنه فى معرض قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فـــان هنالك آيات أخرى أشارت الى الثعبان اشارة عامة ، أشرنا الى بعضها (١) ، وآيات كثيرة أخرى تشير الى آية العصا أو الآيات التسع التى منها آيـــة العصا لم نشر اليها ولا سبيل الى حصرها هنا والاّ لطال بنا الوقوف عند الحصر ، ذلك أن هذه الآيات التى ورد فيها ذكر الثعبان صراحـــة أو اشارة ذكرت - كما أسلفنا - فى معرض الآيات التى ثبت الله بها موسى - عليه السلام - ليحمل عبء الرسالة والنبوة فكانت ترد فى قصته عليه الســـلام كثيرا ذلك أن قصته عليه السلام هى أكثر قصص المرسلين ورودا فى القـــرآن فهى ترد على حلقات متناسقة مع موضوع السورة أو السياق الذى تعرض فيه بحيث تعرض من الجانب الذى يناسب ذلك الموضع وبالطريقة التى تتفـــق مع اتجاهه .

والحلقة التى عرضت من قصة موسى - عليه السلام - فى الآيـــات السابقة التى ألقينا عليها الضوء كانت من الجانب الذى يبين الله فيـــه رعايته للمختارين لحمل دعوته ، وهذا الجانب كان نموذجا من النمـــاذج الكثيرة التى امتلأ بها القرآن والتى تبين تأييد الله جل جلاله للمختاريـــن

---

(١) أنظر ص ١٢٦ - ١٢٨ من هذا البحث

لحمل رسالته والتى هدف القرآن الكريم من ذكرها الترويح على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيته على حمل الرسالة حيث أنها تبين من عرضهـا من هذا الجانب عاقبة المكذبين بالرسالة وفيها أيضا تطمين للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتعزية له عما يلقاه من اعراض المشركين وتكذيبهم كما أنهـا تبين رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة واعداؤهم أقوياء جبارون فى الأرض مسلطون عليها بالأذى والتنكيل ، كما ظهر من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون الطاغى الذى تسلط على بنى اسرائيـل وكان موسى مجردا من القوة المادية فأيده الله بآياته ومنها آية العصا وهـو الموقف الذى كان فيه المسلمون بمكة عند نزول الآيات التى أوردت قصة موسى - عليه السلام - وقد كان القصص احدى وسائل التربية القرآنية فى القرآن الكريم (١) ، اذا فالحلقة التى وردت من قصة موسى - عليه السلام - فى هـذا المجال هى : حلقة الرسالة والتكذيب متضمنة الآيات التسع التى أيد الله سبحانه بها موسى - عليه السلام - ومنها آية العصا أو معجزة الثعبان . . وهذا هو الغرض البيانى والتربوى من ذكره .

---

(١) ١٩/٧٠ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف .

الملامح البلاغية للنظم الحكيم

في عصا موسى

التي انقلبت الى ثعبان مبين

تكرر الحديث عن عصى موسى من حيث انقلاب طبيعتها في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، وكلها ترجع الى موقفين لا ثالث لهما :

الموقف الأول : المناجاة التي تمت بين موسى وربه عقيب واقعة النار .

وقد شبهت حركة اهتزاز العصا بحركة اهتزاز الجانّ في موضعين من المواضع التي تحكي وقائع هذه المفاجأة ، وشبهت بالحية الساعية في موضع واحد .

ففي سورة القصص ورد قوله تعالى :

" وان الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبرا ولم يعقب (١)
ياموسى : اقبل ولا تخف انك من الآمنين " .

وفي سورة النمل ورد قوله تعالى :

" والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدى المرسلون " (٢) .

وفي طه ورد قوله : " قال : القها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى " (٣) وكانت أول اشارة ترد عن هذه الواقعة في سورة طه بمكه المكرمه قبل الهجرة ، ثم النمل ثم القصص . وعلى هذا فان ما ورد في كل من النمل والقصص يعتبر تفصيلا لنوع

---

(١) ٣١ القصص ٢٨
(٢) ١٠ النمل ٢٧
(٣) ٢٠ ك طه ٢٠

اجمال ورد فى طه . فعبارة " طه " هى : " فاذا هى حية تسعى "

والسعى هو التحرك السريع . ثم جاء فى النمل والقصص " تهتز كأنهـــا

جان " فبين درجة السعى الواردة فى طه وانه كان اهتزازا مثل اهتزاز الجان .

وقد وردت اشارة مجملة الى خوف موسى من غرابة ما رأى فى طه ثم فصلت تلك

الاشارة فى كل من النمل والقصص :

" فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . وكذلك ما حدث من تأمين

الله له كان مجملا فى طه ، ومفصلا فى النمل والقصص . ففى طه كان " قـال

خذها ولا تخف . . "

وفى القصص : " يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين " .

وفى النمل : " يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون " .

ونلاحظ أن تأمين الله لموسى عليه السلام ، وهو يدّرب على تحمل أعباء الرسالة

قد أكد فى المواضع الثلاثة :

ففى طه " سنعيدها سيرتها الأولى " وفى هذا نفى لسبب الخوف ما داســت

العصى ستعود عصى .

وفى القصص : " انك من الآمنين " .

وفى النمل : " انى لا يخاف لدى المرسلون " .

وقد ترقى القرآن الكريم بموسى - عليه السلام - فى مراتب التربية فقد نفى الخوف

فى طه بنفى أسبابه المادية .

وفى النمل انتهى دور الأسباب المادية وعلى موسى - عليه السلام - ان لا يخاف

لا لأن العصى ستعود سيرتها الأولى ، ولكن لأن موسى عند الله من الآمنين .

ثم تنتهى نهاية المراحل فى القصص فعلى موسى ألا يخاف لأنه مرسل . والمرسلون لا يخافون وهم بين يدى ربهم يتلقون الوحى . وتشبيه العصى بالجان فى سرعة الاهتزاز نظيرة قوله تعالى : " طلعها كأنه رءوس الشياطين" فى أن كلا منهما جرى على ما استقر فى الأذهان من بشاعة الشياطين وسرعة حركتهم ، فقد شبهت العصى بالحية تارة وبالثعبان تارة وبالجان تارة أخرى مع أننا لا نرى الجان وهو المشبه به الا أن اهتزاز الجان حقيقة علمية وليست حقيقة وهمية . ثم ذكر السياق القرآنى الكريم أن العصا هى حية فلم يقل كأنها حية فى الحركة وانما قال " فاذا هى حية تسعى " فهذا تشبيه بليغ حيث حذفت الاداة ووجه الشبه ، أما اذا قلنا أن (تسعى) هو وجه الشبه فيكون تشبيه مؤكد بحذف الأداة . وفى النصوص أسرار أخرى يطول بنا الحديث لو تقصيناها واحدا واحدا هذا فيما يتصل بواقعة المناجاة . أما فى الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون فقد شبهت فيه العصى بالثعبان فى موضعين : وهما : الأعراف وفيها ورد قوله تعالى : حكاية عما دار بين موسى وفرعون من حوار : " ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ".(١)

وفى الشعراء : " قال : أو لو جئتك بشىء مبين . قال : فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ".(٢)

---

(١) ١٠٧ الأعراف ٧

(٢) ٣٠ - ٣١ الشعراء ٢٦

والفرق بين الموقفين ظاهر . فكون العصى حية ، وتهتز كأنها جان هذه التصويرات اختصت بمواقف التدريب على تحمل أعباء الرسالة .

أما كونها ثعبانا مبينا ، فهذا مظهر من مظاهر التحدى المعجز ولم يعبر به القرآن الا فى الممارسة العملية لما كان قد تدرب عليه موسى من قبل ليرى فرعون الآية الكبرى ، واختفى هنا سعى الحية ، واختفى اهتزازها فتلك حالات كان المطلوب منها توطين موسى على الثبات فى مثل هذه المواقف . فاذا كان موسى ـ عليه السلام ـ قد شاهد العصى من قبل وهى حية تسعى وتهتز اهتزاز الجان فما الذى يخيفه منها بعد ذلك اذا انقلبت ثعبانا ظاهرا للناس فى صورته وشكله وان لم يتحرك ولم يهتز كما سعى واهتز من قبل .

وعنصر المفاجأة لم يتخلف فى موقف التحدى أمام فرعون " فاذا هى ثعبان مبين " ولم يكن لموسى من عمل سوى أن يلقى عصاه من يده دون تمتمات ولا تعاويذ كما يفعل السحرة والدجالون وانما هى قدرة فوق كل شىء .

ذلك هو البيان القرآنى ، وتلك هى بلاغة الاعجاز قد يتكرر الحديث عن ظاهرة واحدة مرات وفى كل مرة ترى المطابقة الحكيمة لمقتضيات الأحوال ، ومناسبة المقامات بلا فضول ممل ، ولا نقص مخل فهو تنزيل العزيز الحكيم .

. . . . . .

٣ - الجـــراد والقمّل والضفـــــادع

معجزة لسيـدنا موسى عليه السلام

فى قول الله تبارك وتعالى :

" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصـــلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ". (١)

نزلت هذه الآية تبين ألوان العذاب الذى أصاب آل فرعون حين طغوا فى أرض مصر فقتلوا الرجال من بنى اسرائيل قوم موسى عليه السلام واستحيـــوا النساء وقتلوا أولادهم وكذبوا موسى بما جاء من عند الله وغفلوا عن كل آيـة أتى بها عليه السلام فأغفلوا قلوبهم وصمّوا آذانهم ، واحتمل موسى وقومـــه العذاب وصبروا على البلاء يرجون الفرج من عند الله وكان الله سميعـــا عليما لا يخيب رجاء الصابرين ولا يهمل المتجبرين وان كان قد أمهلهم ليصلحوا حالهم ولكنها الوثنية التى أفسدت فطرتهم فمضوا فى جبروتهم وكفرهم معتمدين على فرعون الذى أدعى الألوهية من دون الله ظانين أنه قادر على أن يحمـــى نفسه ويحميهم من عذاب الله ، فكان لابد من أن تتجلى لهم الحقائق ، وأن تقف الأمور عند حدودها ، وأن ينالوا جزاءهم ، فأتى النذير بهلاكهم ، أتى أمر الله لجنده سبحانه ليكونوا الآلة التى تدمرهم وحاق بهم العذاب والدمار من كل جانب وصدق وعد الله وصدق نذير الله فيهم والله خير الصادقـــين :

---

(١) ١٣٣ الأعراف ٧

" ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين (١) ونقص من الثمرات (٢) لعلهم يذكرون (٣) " .

انها (اشارة التحذير الأولى . الجدب ونقص الثمرات . والسنين تطلق في اللغة على سنى الجدب والشدة والقحط وهى في أرض كأرض مصر المخصبة المثمرة تبدو ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتثير القلق ، وتدعو الى اليقظة والتفكر ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلايا ، وهكذا أخذ الله آل فرعون بالسنين (لعلهم يذكرون) انها اللمسة الموقظة لو أن في قلوب القوم حياة وحساسية ولكن آل فرعون لم يتدبروا ولم يتذكروا ، كانت الوثنية قد أفسدت فطرتهم ، وقطعت صلتهم بنواميس الحياة الصحيحة)(٤) . فمضوا في عتوهم تأخذهم العزة بالاثم ويزيدهم الابتلاء كفرا وعنادا ولم يوقنوا بأن اشارة القحط انما هى نذير من عند الله ليهلكهم بل مضوا ومضوا في غطرستهم وأكثر من ذلك نسبوا الى سيدنا موسى عليه السلام السحر بشأن العصا وما كان من أمرها حين ألقاها فاذا هى حية تسعى (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين)(٥) . (انه الجموح الذى

---

(١) وهذه أول آية من الآيات التسع التى أيد الله بها موسى - عليه السلام - حين أرسله الى فرعون وقومه بقوله : " في تسع آيات الى فرعون وقومه أنهم كانوا قوما فاسقين " ١٢ النمل ٢٧

(٢) الآية الثانية من الآيات التسع .

(٣) ١٣٠ الأعراف ٧

(٤) ٣١/٩ في ظلال القرآن لسيد قطب الطبعة الأخيرة .

(٥) ١٣٢ الأعراف ٧

لا تروضه بينه ولا يلينه اقناع ، ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر لأنه يعلن الاصرار على التكذيب قبل أن يعرض عليه الدليل ، قطعا للطريق على الدليل ! وهى حالة نفسية تصيب الجبارين حين يدمغهم الحق ، وتجبههم البينة ، ويطاردهم الدليل)(١) .

وعندئذ وللمرة الثانية تتدخل القدرة الالهية الكبرى بوسائلها الجبارة بجنود من جنده سبحانه وتلك الجنود هى مدار بحثنا فى هذه الآيات : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون)(٢) .

والطوفان(٣) : هو الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم مطر أو سيل ومن المعلوم أن آل فرعون كانوا يعيشون فى أرض مصر وقد حل بهم العذاب وهم فى أرض مصر فيكون النيل في مصر هو الذى أصبح طوفانا بقدرة الله حيث سلطه سبحانه عليهم من جملة ما سلط عليهم ليكون نوعا من أنواع العذاب بدلا من أن يكون مصدرا من مصادر الخير والرخاء .

---

(١) ٩/٣٢ ط١ فى ظلال القرآن لسيد قطب

(٢) آية ١٣٣ - ١٣٥ سورة الأعراف ٧

(٣) الطوفان : هو الآية الثالثة من الآيات التسع التى أيد الله بها موسى .

وقد رويت أقوال كثيرة فى ماهية هذا الطوفان : فمنهم من قال : أنه الجدرى . ومنهم من قال : انه الطاعون . لكن الأرجح أنه الماء الذى طاف بهم فهذا هو المعنى اللغوى الصحيح للكلمة ، كما أنه يمكن الاستدلال على أن ذلك الطوفان الذى سلطه الله على آل فرعون هو الماء الذى طاف بهم بقصة سيدنا نوح عليه السلام فى القرآن الكريم حيث أن هنالك آيات تبين بأن الطوفان هو الماء كما فى قوله تعالى : (قال : سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم الا الله)[١] .

كما وردت أيضا أقوال كثيرة فى كيفية وقوع هذا الطوفان وكيفية وقوع الآيات الأخرى التى سلطها الله سبحانه على آل فرعون وجعلها عذابا ونقمة عليهم مثل الجراد والقمل والضفادع والدم . . فقيل عن كيفية وقوع الطوفان : أن آل فرعون (مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره .

وقيل : أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ، فمن جلس غرق ولم تدخل بيوت بنى اسرائيل قطرة . وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ودام عليهم سبعة أيام)[٢] .

---

(١) ٤٣ ك هود ١

(٢) الكشاف ١٠٧/٢ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

أما الجراد والقمّل والضفادع فقد تعددت أيضا الأقوال فى كيفيـــة وقوعها كنوع من أنواع العذاب على آل فرعون وفى ترتيب وقوعها :

أولا - الجـــــــراد

وهو فصيلة من الحشرات المستقيمة الأجنحة واحده جراده للذكـــر والأنثى (١) .

فقيل عنه فى هذه الآية : - فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين - انه بعد أن حل بهـــم الطوفان - أى آل فرعون - قالوا لموسى : (أدع لنا ربك يكشف عنا ونحـــن نؤمن بك ، فدعا فرفع عنهم فما آمنوا ، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهرا فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامـــة زروعهم وثمارهم ثم أكلت كل شىء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منها شىء ، ففزعوا الى موسى ووعدوه التوبة فكشف عنهـــم بعد سبعة أيام خرج موسى عليه السلام الى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد الى النواحى التى جاء منها فقالوا : ما نحـــن بتاركى ديننـــا .

---

(١) المعجم الوسيط ص ١١٥ ج ١ ط ٢

ثانيا ـ القمّـــل

القمّـل : دويبه من جنس القردان الاّ أنها أصغر منها ، تركب البعير عن الهزال وشيء يقع في الزرع ليس بجراد ، يأكل السنبلة وهي غضة قبـــل أن تخرج وربما تكون هي التي تسمى الآن : النّطّاط وقد قيل عن كيفيـــة وقوعه كنوع من العذاب على آل موسى عليه السلام في الآية الكريمة : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أنه بعد أن كشف عنهم عذاب الجراد أقاموا شهرا (فسلط عليهم القمّل وهو الحمنان (٢) في قول أبي عبيده كبار القردان . وقيل الدبـــا وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها وقيل البراغيث وعن سعيد بن جبـــير السوسى فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهـــم وبين جلده فيمصه ، وكان يأكل أحدهم طعاما فيمتلىء قمّلا ، وكان يخـــرج أحدهم عشرة أجربه الى الرحى فلا يرد منها الاّ يسيرا . وعن سعيد بـــن جبير أنه كان الى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى بعصاه فصار قمّلا ، فأخذت من أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجـــدري ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا الى موسى فرفع عنهم فقالوا : قد تحققنا الآن انـــك ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبدا) (٣) .

---

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٠ ط٢

(٢) الحمنان : صغار القراد ـ المعجم الوسيط جـ١/ ٢٠٠ ، والقراد دويبه متطفله ذات أرجل كثيره ، تعيش على الدواب والطيور ومنها أجناس ، الواحدة قراده (ج) قردان . المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٤

(٣) ٢/ ١٠٧ - ١٠٨ الكشاف للزمخشري .

ثالثا - الضفـــــادع

الضفدع : حيوان (برمائى) ذو نقيق (يقال للذكر والأنثى) جمعه ضفادع وتكون بكسر الضاد وضمها (ضفدع ، ضفدع) .

وعنها وعن كيفية وقوعها كنوع من العذاب على آل فرعون فى هذه الآيـــة قيل : بعد أن رفع عنهم القمّل نكثوا (فأرسل الله عليهم بعد شهـــر الضفادع فدخلت بيوتهم وامتلأت منها أبنيتهم وأطعمتهم ولا يكشف أحـــد من ثوب ولا طعام ولا شراب الاّ وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل اذا أراد أن يتكلم وثبت الضفادع الى فيه ، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد ، كانت تقذف بأنفسها فى القدور وهى تغلى وفى التنانـــير وهى تفور ، فشكوا الى موسى وقالوا : أرحمنا هذه المرة فما بقى الا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دما . . .) (١) .

لكن هذه التفاصيل فى هذه الكيفية أى كيف وقعت هذه الآيات وكيف كـان ترتيبها لم يرد فيها نص آخر من القرآن يوضحها ولم يرد فى الأحاديـــث المرفوعة الى الرسول (ص) شئ عنها لذا فينبغى ألا نجزم بهذه الكيفية وتلك التفاصيل ، بل نقف عند حدود النص القرآنى دون زيادة تفصيل فى

---

(١) أنظر الكشاف ص ١٠٨ جـ ٢ ، الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م .

الرواية الا اذا صح لنا سند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفسر به النص وذلك فى أى حادث تاريخى ليس هذا الحادث التاريخى فحسب بل وفى أية حقيقة سمعية فلا سبيل لنا اليها الا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة .

لكن الذى لا جدال فيه فى هذه الآية هو أن ذلك العذاب لآل فرعون قد وقع بهم فعلا بمشيئة من الله كما ورد فى الآية الكريمة (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أما ترتيب هذه الآيات أى العلامات فلم يرد أيضا فيه نص ، قد تكون وقعت كما رتبت فى هذه الآية الكريمة : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم ..) وقد يكون وقوعها غير ترتيب ورودها فى الآية أى قد يكون وقع القمّل أولا ثم الجراد ثم الدم أو ما الى ذلك ، وقد تكون هذه الآيات وقعت لهم جملة واحدة لأن الواو هنا لمطلق الجمع .

لكن الأوفق حسب الحكمة الالهية أن تكون وقعت متفرقة .

وقد يكون السياق الذى جمع هذه الآيات فكأنها جاءتهم مرة واحدة وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة سببه أن (التجارب كلها كانت واحدة وكانت نهايتها كذلك واحدة (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) وهى طريقة من طرق العرض الفنى للقصة القرآنية يجمع فيها البدايات لتماثلها والنهايات لتماثلها . ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المنوعة وكأنها واحدة ، لأنه لم

يستشعرها ولم يميزها ولم يتبينها)[1] . والله أعلم كيف وقعت . .

وعلى النحو الذى وقعت فيه يكون معنى مفصلات اذ أن كلمة مفصلات لها عدة معانى ، فقد يكون معناها :

١ - مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التى لا يقدر عليها غيره لأنها وقعت خارقة للمألوف البشرى (فهى بالقياس الى هذا المألوف خارقة . فأما بالقياس الى مشيئة الله فهى داخلة فى النواميس التى اقتضتها ارادته الطليقة . وهذا هو الشأن فى كل المعجزات التى جاءت خارقة للمألوف لتصديق الرسالات ، فهى فى طبيعتها داخلة فى نطاق النواميس الكونية التى قدرها الله ، وهى فى مظهرها خارقة لمألوف البشر وليس مألوف البشر هو الناموس الكونى الذى لا يتبدل[2] .

٢ - أو أن معنى (مفصلات) أى فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون الزاما للحجة عليهم .

٣ - أو أن معنى (مفصلات) مقدرات لأن الفصل هو التقدير أى أن الله سبحانه قدر هذه الآيات لتعذيب هؤلاء القوم بقدر جرائمهم التى ارتكبوها

---

(١) ٣٢/٩ ظ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) ٣٣/٩ ظ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

بدليل قوله تعالى : (جزاء وفاقا) فقد استكبروا (وكانوا قوما مجرمين) أى استكبروا عن الايمان بها ولم يرتدعوا بكل تلك الآيات التى عذبتهم فقد قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة لأنهم قوم مجرمون . وجملة (وكانوا قوما مجرمين) قيل انها معترضة مقرره لمضمون ما قبلها .(١)

لكن الأرجح أنها تذييل مقرر لمضمون ما قبله لأن الجملة المعترضة هى ما اعترضت الكلام وفسرته ويمكن الاستغناء عنها .

والذى لا جدال فيه أيضا هو أنهم كانوا يفزعون عند وقوع تلك الآيات كيفما كان وقوعها بدليل الآية التى بعدها : (ولما وقع عليهم الرجز(٢) قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل)(٣) .

والشىء الثانى الذى لا جدال فيه هو أن ذلك العذاب الذى وقع لآل فرعون والذى نص عليه القرآن قد وقع لهم من قبل تلك الجنود التى سلطها سبحانه عليهم على الرغم من أن بعض تلك الجنود كانت مخلوقات ضعيفة الا أنها سببت لهم الذعر والهلع والازعاج وكان هذا هو الغرض من تسليطها

---

(١) انظر تفسير ابى السعود ص ٢٦٥ جـ٣ المجلد ٢

(٢) الرجز : العذاب المذكور على التفصيل .

(٣) آية ١٣٤ سورة الأعراف ٧

عليهم : ليتدبروا ، ليرتدعوا عما هم فيه من غي وظلم وقسوة وجبروت ، ليؤمنوا بما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام ، ليؤمنوا بأن من سلط عليهم تلك المخلوقات الضعيفة التي أوقعت بهم ما أوقعت قادر على تدميرهم . اذ أنه سبحانه ما سلط عليهم تلك الجنود الا رحمة بهم ولم يشأ أن يهلكهم ويدمرهم بها فقد كانت تلك الجنود بمثابة المنبه المزعج الذي يريدهم أن يفوقوا من ذلك الثبات الذي هم فيه ، بل ذلك الظلم الذي حجب عنهم كل حقيقة : (مهما تأتنا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) .

كما أن تلك الجنود كانت للحجة عليهم اذ لم يؤاخذهم الله سبحانه على أفعالهم بالهلاك المدمر - وهو قادر على ذلك - من أول الأمر بل أتاح لهم الفرصة كي يتطهروا من أدرانهم ويقوّموا اعوجاجهم ويصلحوا أحوالهم مع علمه سبحانه بما سيكون منهم من النكث لكنها سنة الله وعدله حيث لا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان ما هو مكشوف من الغيب لعلم الله ، وحيث كان هذا هو ديدنهم وحيث لم يرتدعوا وحيث لم يفوقوا بكل ما أصابهم من منبهات وانذارات واشارات لم يكن بد من تحقيق ذلك الوعد الذي وعدهم (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) (١) . أجل يتحقق فيهم عدل الله وهو القضاء عليهم وتدميرهم وما ربك بظلام للعبيد :

---

(١) آية ١٣٥ من سورة الأعراف ٧

" فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين "(١).

(والسياق هنا يختصر فى حادث الاغراق ، ولا يفصل خطواته كما يفصلها فى مواضع أخرى من السور ، ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الامهال الطويل فلا داعى اذا الى طول العرض والتفصيل ، ان الحسم السريع هنا أوقع فى النفس وأرهب للحس " فأنتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم " ضربة واحدة فاذا هم هالكون ، ومن التعالى والتطاول والاستكبار ، الى الهوى فى الأعماق والأغوار جزاء وفاقا)(٢) " بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين "

---

(١) ١٣٦ الأعراف ٧

(٢) ٣٤/٩ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

الغرض البياني والتربوي من ذكر الجراد والقمّل والضفادع

في قول الله تبارك وتعالى :

" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ". في هذه الآية تتضح قدرة الله ويظهر انتقامه في أبسط صوره فهو القوي المنتقم الذي يمهل ولا يهمل ، ينتقم من المجرمين فتنعكس النواميس التي يألفونها من خير الى شر وينتصر لأوليائه فتنعكس النواميس التي يألفونها من شر الى خير لأنه وحده اذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، فالنار التي يعرف البشر طبيعتها بأنها ضد البرودة وعليها يطهون طعامهم وبها يستدفئون من برد الشتاء القارس واذا مست جلد أحدهم يصرخ ألما وقد تترك أثرا في الجلد وقد يموت الانسان اذا تمكنت منه . لكن الله سبحانه وبقدرته عكس هذا الناموس الذي ألفه البشر حين ألقى الجبابرة بسيدنا ابراهيم عليه السلام فقال سبحانه للنار : (يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم " فاذا هي بردا وسلاما على ابراهيم بأمره ومشيئته سبحانه فهو الذي خلقها وتكون كما يشاء ، وهذا هو نصر الله سبحانه وانتصاره لأوليائه . . .

وفى هذه الآية يجعل نيل مصر الذى هو مصدر لرخاءها ومنبع لخيراتها يسقى أرض مصر فتخضر وتنتج وتغل - وهذا ما ألفه الناس منذ أقدم العصور - لكن الله سبحانه بقوته وقدرته وحين يريد الانتقام من المجرمين يعكس ذلك الناموس الذى ألفوه ، فاذا بذلك النيل يصبح طوفانا ويدمر كل شىء ويحول حياتهم الى عذاب وجحيم لا يطاق . . كذلك الحال فى تلك المخلوقات الضعيفة : (الجراد والقمّل والضفادع) حيث تحولت بقدرة الله سبحانه الى سلاح فتاك أشد ضراوة من الجيوش اذا حاربت حيث أن الجيوش معروف أمرها وجبهتها وسلاحها فتحارب بمثل ما تحارب به ، لكن تلك المخلوقات الضعيفة كيف يمكن اتقاءها أو محاربتها وقد سلطها الله بمشيئته على هؤلاء القوم فأصبحت مصدرا للعذاب والقلق ودمرت كل شىء !

وقد يقول قائل : ان ذلك هو شأن الجراد والقمّل أى انها حشرات مزعجة فليس هناك زيادة فى الأمر .

والجواب : انها وان كانت مزعجة فعلا بطبيعتها الا انها ليست بتلك الصورة المذهلة الزعجة التى حوّلته حياتهم الى جحيم لا يطاق لأنها مرسلة من عند الله لأمر أوحاه لها ألا وهو : ازعاج وتعذيب آل فرعون ولا محيد لها عن أمره فهى جند من جنوده " وما يعلم جنود ربك الا هو "(١) تأكل وتشرب

---

(١) ٣١ ك المدثر ٧٤

وتسير وفق مشيئته وان كنا نستهين بحياتها وبنظامها وبضعفها وصغرهـــا لكنها من الممكن أن تتحول الى سلاح فتاك بقدرة الله حيثما يريد ذلك ، وهكذا كانت لآل فرعون فقد سلطها عليهم سبحانه حين طغوا وبغوا وتجبروا فأحالت حياتهم الى جحيم لا يطاق ..

وهذا هو الغرض من ذكر تلك المخلوقات الضعيفة في هذه :

" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ".

. . . . . .

الملامح البلاغية للنص الحكـــيم

" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " :

آية الطوفان والجراد تصدرها فعل معطوف على ما قبله بالفاء : " فأرسلنا" ليفيد حصول بدء العذاب لهم عقيب عنادهم الذى بلغوا فيه قمة اللجاجة اذ قالوا لموسى - عليه السلام - مهما تأتنا به من آية فما نحن لك بمؤمنين " . ثم أخذ القرآن فى ذكر أنواع العذاب معطوفا بعضها على بعض بالواو . وهذا يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون النسق القرآنى قد ذكرها مرتبة حسب وقوعها الزمنى لاحتمال الواو والترتيب اذ لا مانع منه معها .

والثانى : أن يكون النسق القرآنى قد رتب هذه الأسماء الخمسة مراعيا فى ذلك نهجا آخر وفى هذا يقول الاستاذ الرافعى :

(فانها خمسة أسماء أخفها في اللفظ الطوفان والجراد والدم ، وأثقلها القمّل والضفادع ، فقدم الطوفان لمكان المدّين فيهما (الواو + الألف) (١) حتى يأنس اللسان بخفتها . ثم الجراد وفيها كذلك مد " الألف بعد الراء" (٢)

---

(١) ما بين الأقواس توضيح من عندنا .

(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٦٧ .

ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدأ بأخفهما فى اللسان وأبعدهما فى الصوت لمكان تلك الغنة فيه ثم جىء بلفظة الدم آخرا ، وهى أخف الخمسة وأقلها حروفا ، ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الاعجاز فى التركيب).

ثم يقول الرافعى رحمه الله :

(وأنت مهما قلبت هذه الأسماء الخمسة فانك لا ترى لها فصاحة الا فى هذا الوضع ".

ومعلوم ان ترتيب الكلمات داخل فى حسن النظم وهذا باب واسع .

فسبحان من هذا كلامه !!

---

٤ - الحـــــــوت (١)

الذى كان اشارة لموسى عليه السلام

" واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضى حقبا (٦٠) فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتاه : اتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال : أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت ، وما انسانيه الا الشيطان ان أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا (٦٣) قال : ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤) فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥) قال له موسى : هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ؟ (٦٦) قال : انك لن تستطيع معى صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٦٩) قال : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠) . (٢)

---

(١) الحوت : السمكة صغيرة كانت أو كبيرة . والحوت جنس من الحيوانات الثديية من رتبة الحيتان (ج) حيتان وأحوات
١٠٥ / ٢٠٤ المعجم الوسيط .

(٢) ٦٠ - ٧٠ الكهف ١٨ .

هذه الآيات تحكى قصة من قصص موسى عليه السلام التى ترد كثيرا فى القرآن الكريم لكن هذه القصة أو (هذه الحلقة من سيرة موسى - عليه السلام - لا تذكر فى القرآن كله الا فى هذا الموضع من هذه السورة ، وهى فى ذلك تشبه (قصة بقرة بنى اسرائيل) حيث لم يتكرر ذكرها وانما جاء فى موضع واحد من سورة البقرة - كما سلف - أما قصتنا هذه فان القرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه الا بأنه " مجمع البحرين " كما لا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى ، هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى اسرائيل ؟ أم بعد خروجه بهم منها ؟

ومتى بعد الخروج : قبل أن يذهب بهم الى الأرض المقدسة ، أم بعد ما ذهب بهم اليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين ؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين ؟)[1] كما أن القرآن لم يذكر اسم ذلك العبد الصالح الذى لقيه موسى ، ومن يكون : هل هو نبى أو رسول ؟ أم أنه عالم أم ولى ؟

معظم المفسرين يميلون الى أنه (الخضر عليه السلام) .

وكما وقع الخلاف فى اسم ذلك العبد الصالح ، أيضا وقع فى موسى : هل هو موسى بن عمران نبى بنى اسرائيل عليه السلام ؟ أم هو موسى بن ميشا (بالمعجمه) بن يوسف بن يعقوب ؟ ومعظمهم يميل الى أنه موسى بن عمران

---

(١) ١٠٣/١٥ ط٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

نبى بنى اسرائيل عليه السلام ، وهذا هو الأرجح حيث ان القرآن يذكر موسى نبى بنى اسرائيل دائما بتلك الطريقة ولو كان غيره لتغيرت الطريقة فى ذكره بأن عرّفه ومع ذلك الترجيح فنحن نقف عند النص القرآنى ولا نجزم بالمصادر الأخرى غير القرآن - غير الثابته ، فحيث لم يذكر ولم يوضح : الزمـــان والمكان واسم موسى واسم العبد الصالح فانهما حتما ليست من الأهميـــة بمكان فى سرد القصة واحداثها والهدف منها ، ومن جهة أخرى فليـــس توضيحها مجال بحثنا حيث كثرت روايات المفسرين فى تلك النقاط وما يهمنا من قصة موسى مع العبد الصالح هو (معجزة الحوت) التى وقعت لسيدنا موسى عليه السلام وشاهدها وذلك من خلال وفى ظلال ذكر الآيات الكريمة التى تحكى (معجزة الحوت) .

ما هى تلك القصة وما سببها ؟

قيل أن سببها هو أن سيدنا موسى عليه السلام (قام خطيبا فى بنى اسرائيل يذكرهم النعمة فذكر منها انه اصطفى نبيهم وكلمه - يعنى نفسه - فقالوا له : قد علمنا هذا . فأى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم الى الله ، فأوحى اليه بل اعلم منك عبد لى عند مجمع البحريـن وهو الخضر ، وكان الخضر فى أيام افريدون قبل موسى عليه السلام ، وكـان على مقدمة ذى القرنين الأكبر وبقى الى أيام موسى)[1] .

---

(١) ٢/ ٤٩٠ الكشاف للزمخشرى

أما بداية تلك الآيات التي تحكي هذه القصة فهو قول الله عز وجل :

" واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . . . " الى قول الله تبارك وتعالى " فارتدا على آثارهما قصصا فوجد عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما " .

فقوله تعالى : " اذ قال موسى " نصب باضمار فعل أي اذكر وقت قوله عليه السلام : " لفتاه) . وكما ذكرت فان القرآن لم يوضح اسم فتاه الا أن المفسرين (١) قالوا بأنه (يوشع) بن نون بن افراثيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . وسمي فتى لأنه كان يخدم موسى عليه السلام ويتبعه لأن الخدم أكثر ما يكونون فتيانا ، فقيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب ، وقد ندبت الشريعة السمحاء الى ذلك حيث جاء في الحديث ما معناه : " لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي ، وليقل فتاي وفتاتي " ، وقيل انه سمي فتى لأنه كان يتعلم من سيدنا موسى عليه السلام والتلميذ يسمى فتى وان كان شيخا ، وان صح القول بأن فتى موسى عليه السلام هو يوشع فان يوشع كما يقال هو ابن أخت موسى عليه السلام . الا أن هذه التفاصيل

---

(١) الزمخشري ص ٤٩٠ ج ٢ . وأبو السعود ص ٢٣١ المجلد ٣ ج ٥
أبو حيان / البحر المحيط ص ١٤٣ ج ٦

فى أسماء الأشخاص والأماكن لا تفيدنا فيما نحن بصدده ، بل لا تزيد القصة معنى آخر ، ولو كانت هناك حاجة الى توضيح أسماء الأشخاص والأماكن التى ذكرها القرآن لأوضح القرآن ذلك ، الا أن ذلك ليس هو الغرض من ذكرها ، لذا فقد اكتفى القرآن بالاشارة اليها عند ذكره لها سواء للأشخاص أو الأماكن لتعطى القصة الهدف المطلوب منها ولا تخرج الى معانى أخرى وهكذا كان الحال بالنسبة لذكر المكان الذى وعد الله فيه موسى بأن يلتقى مع ذلك العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما ، فكما أشير الى اسم المكان اشارة دون توضيح ، أشير أيضا الى الشخص الذى قصده موسى عليه السلام بأنه (عبد صالح) تلك الاشارة التى أشارت حب الاستطلاع والمعرفة لدى الكثيرين : ترى من هو ذلك الذى وصفه الله بأنه (عبد صالح) ؟

(والجمهور على أنه الخضر ، وخالف من لا يعتد بخلافه فزعم أنه عالم آخر) (١) . وفى أثناء تلك الاشارة أوضح القرآن تصميم موسى عليه السلام وعزمه على الوصول الى ذلك المكان المشار اليه : (لا ابرح حتى أبلغ مجمع البحرين) فقد أراد بذلك التعبير أنه لن يترك مواصلة السير والبحث حتى يصل الى ذلك المكان الذى يجد فيه مطلبه وهو (مجمع البحرين) وهذه كناية عن العزم والتصميم على التقائه بذلك العبد الصالح الذى سيأتى ذكره فى الآيات

---

(١) ص ١٤٧ البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦

التالية ، وقد زاد ذلك العزم والتصميم تأكيدا بقوله : (أو أمضى حقبا) حيث أن الحقب هو : العام وقيل : الثمانون عام ، وعلى أى المعنيين فانه التعبير عن التصميم والعزم لا عن المدة على وجه التحديد . وقد وردت عدة أقوال فى تحديد (مجمع البحرين) والأرجح منها - والله أعلم - (انه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى اسرائيل بعد خروجهم من مصر)[1] .

وانطلق موسى مصطحبا فتاه الى تلك الغاية حتى اذا ما قطعوا مسافة طويلة وكعادة المسافرين فانهم يجلسون فى طريقهم للأكل والراحة مروا بذلك المكان (مجمع البحرين) وكان لابد لموسى عليه السلام من اشارة تعلمه بوجود ذلك العبد الصالح فى ذلك المكان حيث لم يشعر موسى أنه قد مرّ بذلك المكان لأنه لا يعرفه (ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه ، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه)[2] . وكانت الاشارة لموسى : (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

---

(١) ١٠٣/١٥ ط ١ فى ظلال القرآن لسيد قطب

(٢) ١٠٤/١٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب

قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان أن اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا) نسيان فتاه للحوت هي تلك الاشارة التي ينتظرها موسى عليه السلام وهي الاشارة التي أثلجت صدره حيث : (قال ذلك ما كنا نبغ) فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

وهكذا رأينا بلاغة القرآن وأسلوبه في تركيزه على أشياء واشارته الى أشياء حيث يستدعي ذلك ، فقد أشار في هذه القصة اشارة الى أسماء ثلاثة :

أولها : فتى موسى فلم يذكر من هو .

وثانيهما : (مجمع البحرين) فلم يحدد اسم المكان أو اسم البحرين اللذين يجتمعان في مجمع واحد .

وثالثهما : اسم العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما .

وقد كان ما كان بين هذا العبد وسيدنا موسى عليه السلام كما قصّ علينا القرآن من خرق السفينة وقتل الغلام واقامة الجدار تلك المسائل التي علم منها موسى عليه السلام أن الله سبحانه يعطي العلم والحكمة لمن يشاء من عباده وأن العلم ليس قاصرا على مخلوق بعينه دون الآخرين حتى لو كان رسولا أو نبيا .!

وهى النقطة التى ننتظرها نحن فى بحثنا كى نصل الى الهدف من ذكـــر (الحوت) فى قصة موسى عليه السلام - هذه ونعرف : كيف وقعت المعجزة فى الحوت ؟ أو ما هى معجزة الحوت ؟

روى أن موسى عليه السلام سأل ربه : (أى عبادك أحب اليك ؟ قال الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم النـاس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردّى ، فقال : ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه ، قال : أعلم منك الخضر ، قال : أين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة ، قال : يا رب كيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك ، فقـــال لفتاه : اذا فقدت الحوت فأخبرنى ، فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع فى البحر ، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر ، فأتيا الصخرة فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسـى ، فقال : وانى بأرضنا السلام ، فعرّفه نفسه فقال : يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ، فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر : ما ينقص علمى وعلمك من علم الله الا مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر) (١) .

---

(١) جـ ٢/ ٤٩٠ - ٤٩١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة

هذه هى القصة كما ذكرها المفسرون . . ولكن : ما يهمنا هو ما ذكره القرآن ، وما نريد أن نبحثه مما ذكره القرآن هو : (معجزة الحوت) .

وتبدأ قصة الحوت فى هذه الآيات من قوله تبارك وتعالى : " فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . . "

والمفهوم من سياق هذه القصة التى أوردها القرآن أنه كان لموسى عليه السلام هدف من رحلته هذه التى اعتزمها وانه كان يقصد من ورائها أمرا - بغض النظر عما جاء فى كتب المفسرين من أن موسى سأل ربه : أى عبادك أحب اليك . . . الى قول الخضر : ما ينقص علمى وعلمك من علم الله الا مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر - بدليل ما حكاه القرآن على لسان سيدنا موسى (أو امضى حقبا) فهو تعبير عن التصميم - كما أسلفنا - ووصل موسى عليه السلام المكان الذى يريد الوصول اليه : (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فأتخذ سبيله فى البحر سربا)

يخبرنا القرآن أنهما نسيا الحوت والضمير فى (نسيا) يعود على موسى وفتاه ، وهذا مذكور فى القرآن . أما معنى النسيان أو كيف كان نسيانهما للحوت فقيل : (نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل امارة على الظفر بمطلبه ،

وقيل : نسى يوشع أن يقدمه ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء (١)

والخلاصة أنهما تركا الحوت الذى كانا يحملانه لكى يكون طعاما لهما فى رحلتهما تركاه دون قصد منهما وهذا هو معنى نسيانهما له . . . كيف كان هذا الحوت الذى كان يحملانه ثم نسياه ؟

هل كان طازجا أى لم يطه ليكون جاهزا للأكل ؟

أم كان مشويا ؟

وهل كان الحوت سمكة واحدة أم مجموعة أسماك ؟

لم يوضح القرآن ذلك ولكن يفهم من سياق الآيات أن هناك أمر غير عادى قد وقع فى شأن الحوت بدليل قوله (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) .

معنى ذلك أن الحوت الذى كان معدّا لغداء موسى وفتاه قد رجع الى البحر (اتخذ سبيله فى البحر عجبا) وهنا روايات كثيرة تفسر اتخاذ الحوت سبيله فى البحر عجبا منها بأنه قيل : (كان الحوت سمكة مملوحة . وقيل : أن يوشع حمل الحوت والخبز فى المكتل فنزلا ليلة على شاطىء عين تسمى عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت . وروى أنهما أكلا منها ، وقيل توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع فى الماء . . . وقيل ما كانت الا شق سمكة) (٢) .

---

(١) جـ ٢ / ٤٩١ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة

(٢) ٢ / ٤٩١ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة

وقيل : انهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتا الا حي وضعا رؤوسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه)[١] .

أما صاحب الظلال فيرجح أن هذا الحوت كان مشويا حيث يقول : (والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشويا ، وان احياءه واتخاذه سبيله في البحر سربا كان آية من آيات الله لموسى ، يعرف بهما موعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر ، ولو كان يعني أنه سقط منه فضاع في البحر ما كان في هذا عجب . ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية . فهذه احداها)[٢] .

---

(١) ٢٣٢/٥ المجلد ٣ تفسير أبي السعود

(٢) ١٠٤/١٥ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الفرض البياني والتربوي من ذكر الحوت

في قول الله تبارك وتعالى :

" فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت ، وما انسانيه الا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا " .

لقد انتهينا فيما يخص الحوت في هذه الآيات الى أن المفسرين قد اختلفوا فيه : هل كان مشويا أم نيئا الى آخر ما هنالك من أقوال .... ولكنهم اتفقوا بأن هناك شيء غير عادي قد حدث بالنسبة للحوت - كما ذكر في القرآن - وهذا ما يهمنا ، حيث أن المفروض أن يكون الحوت في المكتل كما نسياه ولكن حين خرج من المكتل (واتخذ سبيله في البحر) فهذا شيء غير عادي ، فلو كان الحوت حيا أصلا ومن الممكن أن يتخذ سبيله في البحر لما كان هناك عجب ولو لم ينسيا الحوت لما كانت هناك امارة على مطلب سيدنا موسى ، ولكان لابد من أن تكون هناك امارة أخرى في القصة حتى يرجع موسى الى المكان الذي فيه مطلبه ولكن القرآن أوضح أن نسيانهما للحوت هو الامارة بدليل قول موسى عندما طلب الحوت من فتاه وأجابه فتاه

بأنه قد نسيه عند الصخرة : (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت) فقال موسى (ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) ، لم يغضب موسى من نسيان فتاه للحوت بالرغم من أنه كان جائعا (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) بل لقد تهلل بشرا وسرورا فقد أوشك أن يحصل على مطلبه لأنه أدرك أن نسيان الحوت عند الصخرة معناه أنه جاوز الموعد الذى حدده ربه له للقاء عبده الصالح وأنه هنالك عند الصخرة لذا فقد عاد متلهفا متشوقا للقاء الموعود يقتفى أثر قدماه فى الأرض هو وفتاه حتى لا يضل الطريق الذى سلكه أولا وترك أمر الغداء فهناك ما هو أهم من الغداء هناك مطلبه ، هناك سيكون الامتحان لمعرفة وكشف مدى علمه بالنسبه لعلم العبد الصالح ، سيكون ذلك فى المكان الذى نسى فيه الحوت وهذا هو الغرض من ذكر الحوت وهنا نصل الى غرض آخر وهو وجوب الايمان بأن علم الله ليس مقصورا على أحد دون أحد وان العالم - مهما أوتى من العلم والمعرفة - لا يجب أن يقول عن نفسه أنه عالم والاّ فليس هو بعالم حيث يجب أن يعلم أن علمه ما هو الاّ ذرة أو قطرة بجانب علم الله ، علمه كنقرة العصفور فى البحر بجانب علم الله ، وأن الخلق جميعهم بما فيهم الأنبياء والأولياء والصالحين والعلماء (لا يحيطون بشىء من علمه الاّ بما شاء) فهو سبحانه يعطى العلم والحكمة لمن يشاء من عباده . وهكذا وبفضل الحوت الذى كان امارة لموسى على مطلبه

استدل موسى على مطلبه استدل على العبد الصالح الذى عرف بمصاحبته له فى بقية القصة - كما أوردها القرآن - ان لديه علما لم يكن يعرفه وانه كان بمنزلة الجاهل من العالم بالنسبة لذلك العبد الصالح الذى آتاه الله علما فخرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار الى غير ما هنالك من أمور آمن من خلالها موسى - النبى العالم الذى ظهرت على يديه معجزات وكرامات من عند الله - أن هناك من هو أعلم منه ألا وهو العبد الصالح وعلم الأهم من ذلك والهدف من كل ذلك : أن هناك من أعلم من ذلك العبد الصالح ألا وهو "الله" الذى أعطى ذرة من علمه لعبده الصالح فسبحانه ما أعظم شأنه !!

الملامح البلاغية فى النظم الحكيم

لقصة موسى عليه السلام

من الملامح البلاغية فى هذا النظم الايجاز بالحذف فى قوله :

" لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا " لأن لا أبرح من اخوات كان تحتاج الى اسم وخبر . واسمها الضمير المستتر فيها أما خبرها فقد قدروه بـ " سائرا " أى لا أبرح سائرا حتى أبلغ مجمع البحرين وكذلك عطف " أمضى " عليه بـ " أو " اذ لا يصلح للعطف هنا غيرها من حروف العطف ، لأن " أمضى " احدى الغايتين المطلوبتين : بلوغ مجمع البحرين ، والمضى حقبا . فالغاية نوعان كما تقدم ، وأو تفيد " التنويع " وهى له هنا .

وفى اسناد عدم البراح والمضى حقبا الى موسى - وحده - ولم يشرك معه فتاه مع أنه مصاحب له فى سيره دلالة على أن موسى هو صاحب الرحلة ان سار سار معه فتاه ، وان قفل قفل ، لذلك - والله أعلم - لم يقل : حتى نبلغ مجمع البحرين أو نمضى حقبا . وفتى موسى انما كان يسير معه تبعا له لخدمته ورعايته .

ومن مظاهر الايجاز بالحذف فى النظم الحكيم : ان الفاء فى قوله : " فلما بلغا مجمع بينهما " هى فاء الفصيحة - كما يقول المفسرون - وضابطها

أنها فصحت عن ، محذوف مقدر ينسحب عليه الكلام أى : فسار حتى بلغا مجمع بينهما فلما بلغا . ودليل الحذف هنا هو ما ينبىء عنه : لا أبرح حتى أبلغ . فالبلوغ هو الغاية والايجاز عموما سمة من سمات الكلام البليغ لأنه يدل على كثير من المعانى بقليل من الألفاظ .

وهنا يفاجؤنا الأسلوب القرآنى بالحوت مضافا الى ضمير موسى وفتاه . وهذه المفاجأة تثير انتباه النفس ، وتوقظ الذهن . فقد جىء بالحوت معرفا حيث أسند الى ضميرهما ، ولم يقل فنسيا حوتا كان معهما . مع أنه الظاهر . وهذه سمة من سمات القصص القرآنى الحافل بكثير من المفاجآت . وعلى النفس أن تتقبل بما فيها من لذة وتشويق لهذا العنصر الجديد الذى بدأ يحتل دوره فى الأداء الممتع .

وعطف اتخاذ الحوت سبيله فى البحر سربا على النسيان يدل على أن الاتخاذ وقع عقيب النسيان بلا مهلة .

وقد حذف مفعول " جاوزا " وهو المكان الذى نسيا عنده الحوت . وهو من ايجاز الحذف ، وقد أسند التجاوز لضمير موسى وفتاه ولم يسند لموسى وحده كما فى " لا أبرح ... وامضى " لأن أبرح وأمضى قراران اتخذهما موسى - عليه السلام - فالمعول عليه فيهما عزيمته هو لأنه أسير

الرحلة . أما التجاوز فيبدو أن المراد به السير الحسى ، وهو واقع من موسى وفتاه - عليهما السلام - .

وقوله لفتاه : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا استئناف لبيان العلة فى الأمر باتيانهما الغداء ، ولم يقل موسى - عليه السلام - آتنى غدائى ، بل ضم اليه فتاه ، لأنه - عليه السلام - لم يأكل وحده دون فتاه وكيف يفعل ذلك وهو نبى كريم ؟

وفصلت جملة : " قال أرأيت . . . " عما قبلها لأنه لا يصح عطفها على " قال " الأولى لاختلاف المسند اليه فيهما . ففاعل " قال " الأولى هو موسى - عليه السلام - وفاعل " قال " الثانية هو فتاه. كما لا يصح عطفها " آتنا " لسببين ظاهرين : أولهما أنها لو عطفت عليها لكانت من مقول موسى . وليس الأمر كذلك .

والثانى أن "آتنا " انشائيه . و " قال " خبريه ولا يجوز فى المشهور عطف الخبر على الانشاء فبين الجملتين كمال الانقطاع والاستفهام فى " أرأيت " يقول فيه العلامه أبو السعود :

(والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة . ومراده بالاستفهام تعجيب موسى - عليه السلام - مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ماشاهده

من العظائم التى لا تكاد تنسى . . . وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب : أرأيت ما نابنى ، يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه ،لا استخباره عن ذلك)[1] .

. . . . . .

---

(١) انظر ارشاد العقل ٣/٥٣٦ وما بعدها .

٥ - حـوت يونس عليه السـلام

الذى ابتلعه زمنـا ثم لفظه الى البـر

فى قول الله تبارك وتعالى :

١ - " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم "[١].

٢ - " فالتقمه الحوت وهو مليم "[٢].

كما وردت قصة يونس - عليه السلام - هذه مختصرة فى قوله تعالى :

" وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين "[٣].

هذه القصة حدثت لسيدنا يونس[٤] - عليه السلام - مع الحوت وقد سماه الله مرة ذا النون ومرة صاحب الحوت ، وجاء اسمه واضحا وقصته كاملة فى سورة الصافات فى قوله تعالى : " وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون "[٥].

---

(١) ٤٨ م القلم ٦٨

(٢) ١٤٢ ك الصافات ٣٧

(٣) ٨٧ الأنبياء ٢١

(٤) قرئ يونس بضم النون وكسرها

(٥) ١٣٩ - ١٤٨ الصافات ٣٧

اذا فهو نبى من أنبياء الله المرسلين : " وان يونس لمن المرسلين "

ولكن ما هى قصة هذا النبى الكريم مع الحوت ؟ هذا ما سنلقى عليه الضوء لنعرف سبب ذكر الحوت فى هذه الآيات الكريمة فهذه هى بغيتنا :

يقال أنه عندما دعى قومه - عليه السلام - الى عبادة الله لم يؤمنوا به وظل يدعوهم فلم يستجيبوا له فضاق وبرم بهم (لطول ما ذكّرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله الا غضبا لله وانفة لدينه وبغضا للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الاذن من الله فى المهاجرة عنهم) (١)

ومن ثم فقد سمى الله - سبحانه وتعالى - هربه من قومه بغير اذنه - سبحانه - اباقا على طريقة المجاز " اذ أبق الى الفلك المشحون " وفى سورة الأنبياء " وذا النون " أى صاحب الحوت ، اذ أن النون هو الحوت فأضيف اليه بدليل قوله تعالى فى سورة القلم مخاطبا النبى محمد صلى الله عليه وسلم : " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت " .

وقوله تعالى : " اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه " أى حينما فارق قومه مغاضبا ولم يصبر على معاناة الدعوة ظن أن الله لن يقدر عليه أن

---

(١) ٢/٥٨١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة .

لن يضيق عليه وليس معنى (نقدر عليه) تعمل فيه قدرتنا فلا يكون هذا ظن انسان عاقل فضلا عن أنه نبى فالقدر هنا بمعنى التضيق وليس بمعنى القدرة - والله أعلم - فعن ابن العباس : (انه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة ففرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك قال : وما هى يا معاوية فقرأ هذه الآية وقال : أو يظن نبى الله أن لا يقدر عليه ؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة) (١) .

أى أن معنى نقدر عليه نضيق عليه ، وبهذا المعنى أيضا فسرها صاحب الظلال حيث يقول فى تفسير هذه الآية : (ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهى فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجههه الله الى قوم آخرين ذلك معنى " فظن أن لن نقدر عليه " أى لن نضيق عليه) (٢) . وهكذا وفى ثورة الغضب الجامح والضيق الخانق توجه الى شاطىء البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها " اذ ابق الى الفلك المشحون " وروى أنه حين ركب السفينة وقفت فقالوا : ههنا عبد أبق من سيده ، وفيما يزعم البحارون أن السفينة اذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء) (٣) . وقيل : أن السفينة (ناوأتها الرياح والأمواج وكان هذا ايذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة

---

(١) ٢/٥٨١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة
(٢) ١٧/٥٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط١
(٣) ٣/٣٥٣ الكشاف للزمخشرى . الطبعة الأخيرة .

وأنه لابد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرو (١) ، " فساهم فكان من المدحضين " أى اقترعوا فالمساهمة هى المقارعة ويقال استهم القوم اذا اقترعوا ، والمدحض : المغلوب المقروع) (٢) . لأن القرعة قد خرجت عليه فزجوه أوزج هو بنفسه فى الماء " فالتقمه الحوت وهو مليم " لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها ولم يتحمل عبء الرسالة وترك قومه قبل أن يأذن الله له فجزاه الله عن ذلك بأن وجد نفسه فى بطن الحوت حيث لا يرى النور ولا يرى أحدا ولا أحد يراه الا الله جل علاه ، مما جعله يحس بأضعاف أضعاف الكرب والضيق الذى ضاق به صدره من قومه حين لم يستجيبوا له فأدرك أنه قد أخطأ وانه لم يتصرف التصرف السليم بتركه قومه " فنادى فى الظلمات : أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين " تصوير مرعب لم يقل ظلمه وانما ظلمات فاما أن يكون معنى ظلمات هو تفسير للحال السىء الذى هو فيه كقوله تعالى : " ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات " وقوله : " يخرجونهم من النور الى الظلمات " واما أن يكون معنى الظلمات هو : ظلمة شديدة متكاثفة فى بطن الحوت هى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمة البحر (٣) .

---

(١) ٢٣/٦٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٣/٣٥٣ الكشاف للزمخشرى ـ الطبعة الأخيرة

(٣) ٢/٥٨٢ الكشاف للزمخشرى بتصرف ـ الطبعة الأخيرة .

المهم أن الوضع الذى كان فيه يونس عليه السلام فى بطن الحوت وضع سىء جدا ظلمة شديدة حالكة لا ينفذ اليه النور وكأنه فى بطن أمه ولا يستطيع التحرك أو الخروج من بطن الحوت مما جعله يضيق ويمتلىء غيظا :

" اذ نادى وهو مكظوم " فوضعه السىء جعله يستحضر أنه لا ملجأ ولا منجا من الله الا اليه فلا ينبغى لانسان أن يتصرف بدون اذن الله خاصة اذا حمله الله عبء رسالة فعليه أن يخضع لأمر الله فيها ويصبر ويصابر ويطلب العون من الله ويبذل كل ما فى وسعه لتنفيذ أوامر الله أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها وقدّر أنه هو الذى يتولاها ، كما قدر أنه يملى ويستدرج لحكمة يراها ، وهكذا ومن هنا وفى هذا الوضع السىء وبعد هذا التيقن قال : " لا اله الاّ أنت سبحانك انى كنت من الظالمين " وكيف لا يدرك هذا وهو النبى المرسل الذى لم يترك قومه الاّ غضبا لله وأنفة لدينه وبغضا لمن لم يستجيبوا لعبادة الله واحدا أحد ولكنه مع ذلك بشر وجل من لا يخطىء ، جل غفار الذنوب وقابل التوب :

" فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين " وفى سورة أخرى :

" فاجتباه ربه فجعله من الصالحين " وكيف لا يستجيب سبحانه وهو الرحمن الرحيم بكل خلقه الوضيع منهم والعظيم النبى والجاهل والناس والخلق أجمعين المهم أن يعترفوا بذنوبهم ويسبحوه واحساس الانسان بالخطيئة اذا فعلها نعمة من الله وتذكره لربه أكبر نعمة فهو سبحانه

يحب التوابين ويحب المستغفرين ويحب المسبحين :

" لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم " أى لو لم يسبح الله ويذكره لنبذه بالعراء وهو البر أو شاطئ البحر وهو مذموم ولكنه حين كان من المسبحين لم ينبذه سبحانه على هذه الحال أى لم ينبذه وهو مذموم بل وأكثر مما لو نبذه وهو مذموم لمكث فى بطن الحوت الى يوم القيامة : " فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون " ولكنها رحمة الله ولطفه وتدبيره . . .

وحيث أنه - عليه السلام - كان فى بطن الحوت فى ظلمات ودون نور فكان لابد لهذا الوضع من تأثير على جسده الذى خلقه الله لأن يعيش فى الهواء وفى النور ، وهذا التأثير يختصره السياق القرآنى بقوله : " فنبذناه بالعراء وهو سقيم " وقد روى فى تفسير السقم هنا (انه عاد بدنه كبدن الصبى حين يولد)(١) ولم يتركه جل جلاله على هذه الحال من السقم بل تداركه بنعمة أخرى بعد نعمة لفظه الحوت على الشاطئ . . . أنبت عليه شجرة فى ذلك الشاطئ الذى لا تنبت فيه الأشجار : " وانبتنا عليه شجرة من يقطين " واليقطين : كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وقيل هى التين وقيل شجرة

---

(١) ٣/٣٥٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة

الموز تغطى بورقها واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها .[١] ولكن الأرجح أنها القرع (الدبه) التى يقال عنها أن الذباب لا يجتمع عندها ولا يقرب هذه الشجرة وقد (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتحب القرع ، قال أجل هى شجرة أخى يونس) .[٢]

وليس نوع الشجرة هو المهم فى هذه النقطة ولكن المهم هو رحمته سبحانه بعبده ورسوله حيث أنبت له شجرة على شاطىء البحر الذى لا تنبت فيه الزروع لتساعده على عودته الى حالته الطبيعية وهو سقيم وهو ضعيف وهو فى العراء عارى البدن وهو فى الخلاء ولا قريب ولا مجيب له الا الله سبحانه والا عناية الله والا رعاية الله وحمايته لأولياءه وهو الذى اذا أراد شيئا جعل المألوف لدى البشر غير مألوف وغير المألوف مألوفا فتكون المعجزات كما حدث لسيدنا يونس عليه السلام (التقمه الحوت) ثم لفظه بالعراء . . وهذه هى المعجزة التى تهمنا فهل سمعنا بانسان التقمه الحوت ثم لفظه وهو لا يزال حيا ؟

انه تدبير الله ولطفه جل علاه !!

" وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون " .

---

(١) ٣/ ٣٥٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة

(٢) ٣/ ٣٥٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة

وفى تفسير الارسال فى هذه الآية أقوال منها قول الزمخشرى أن المراد بالرسالة هنا :

(ما سبق من ارساله الى قومه وهم أهل نينوى . وقيل هو ارسال ثان بعد ما جرى عليه الى الأولين أو الى غيرهم . وقيل اسلموا فسألوه أن يرجع اليهم فأبى ، لأن النبى اذا هاجر عن قومه لم يرجع اليهم مقيما فيهم وقال لهم : ان الله باعث اليكم نبيا)(١) .

لكن سيد قطب يرى أن ارساله كان الى قومه الأولين حيث يقول :

(فلما استكمل عافيته رده الله الى قومه الذين تركهم مغاضبا وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين)(٢) .

والحقيقة أن العبرة ليست فيمن أرسل لهم ولكن فى أن الله جل جلاله قد نجاه من بطن الحوت حين سبحه " فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون " ثم لطفه به بعد ما جرى واعادته الى حياته الطبيعية .

واذا أردنا ترجيحا لأحد القولين فى تحديد ارساله المقصود فى الآية

---

(١) ٣٥٤/٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة

(٢) ٦٩/٢٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

هل كان قبل قصته مع الحوت أم بعد خروجه من بطن الحوت ؟ فأنا أرجح - والله أعلم - أن ارساله كان بعد خروجه من بطن الحوت حيث أن قوله تعالى : " فأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون " يناسب ما حكاه عنه قبل هذه : " فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون " حيث أن الآيات السابقة تبين أن الله جل جلاله أعاده الى حياته الطبيعيه بما هيأ له واستكمالا لذلك أرسله الى " مائة ألف أو يزيدون" ومجيء واو العطف هنا يقوى هذا المعنى اذ عطف هذه الأحداث على بعضها بعد خروجه من بطن الحوت وهى :

انبات شجرة من يقطين

وارساله الى مائة ألف أو يزيدون

ومعنى " يزيدون " أى قد يزيدون حقيقة على المائة ألف ولا ينقصون أو أن معنى يزيدون فى نظر من يراهم لكثرة عددهم وفى الحالتين فقوله " يزيدون" كناية عن الكثرة ، وأن هذه الكثرة كلها آمنت بيونس بأنه من عند الله فآمنوا بالله : " فآمنوا جميعا "

. . . . . .

الهدف البياني والتربـــــوي من ذكر الحـــوت

في قول الله تبارك وتعالى :

" ولا تكن كصاحب الحوت "

وقوله سبحانه :

" فالتقمه الحـوت " .

وقوله تعالـى :

" وذا النون اذ ذهب مغاضبا "

لما كانت قصة يونس - عليه السلام - مع الحوت حين التقمه تذكيرا وتنبيها له عليه السلام على وجوب تحمل أعباء الرسالة ومشقة الدعوة والصبر على عنـــت وتكذيب من يدعوهم حتى يحكم الله فيهم فقد جاء ذكرها في مجال تثبيت الله جلاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتذكيره بوجوب الصبر على مشقة الدعوة وعنت كفار قريش وتكذيبهم فقد روى أن هذه الآية :

- " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت "

- (نزلت بأحد حين حلّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل به فأراد أن يدعو على الذين انهزموا . وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف) (١) .

---

(١) ٤/١٤٨ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة .

فجاء هذا التوجيه من الله جل جلاله لنبيه الى الصبر : (الصبر على تكاليف الرسالة والصبر على التواءات النفوس والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله فى الوقت المقدر كما يريد)(١) وقد وعد نبيه وصدقه الوعد بعد حين .

(لحكم ربك) أى فى الامهال وتأخير نصرتك عليهم لا تتعجل لا تكن كصاحب الحوت ، تذكيرا له صلى الله عليه وسلم بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ولولا أن تداركه نعمة من الله وهو فى بطن الحوت لنبذ بالعراء وهو مذموم أو لبقى فى بطن الحوت الى يوم القيامة !!

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قصة يونس - عليه السلام - مع الحوت وتجربته التى مر بها تذكيرا له عليه الصلاة والسلام (لتكون له زادا ورصيدا وهو خاتم الأنبياء الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين فى حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء امداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد فى حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب وكل يوم يأتى بجديد)(٢) .

---

(١) ٢٩/٦٦ فى ظلال القرآن لسيد قطب الطبعة ١ .

(٢) ٢٩/٦٧ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وقصة يونس - عليه السلام - مع الحوت بعد ذلك درسا لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه ، حيث أن في رجعة يونس الى ربه واعترافه بظلمه عبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها ليدركوا أن الانسان مهما عظم اذا لم يكن مع الله فلن يكون الله معه ومن لم يكن الله معه فهو معرض للأخطار والدمار والهلاك من حيث لا يعلم أما اذا أخلص العبادة لله وذكره وسبحه واستغفره فانه قادر على أن يحميه وأن ينجيه من أشد الكرب من حيث لا يعلم مثلما نجّا يونس من الضيق والكرب العظيم بفضل تسبيحه : " فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون "

وفيها - قصة يونس - كذلك بشرى للمؤمنين حيث أن رحمته لذى النون واستجابته دعائه في الظلمات ما يطمئن ويدعو المؤمنين لأن يعترفوا بذنوبهم ويخلصوا لربهم ويمتثلوا لأمره جل جلاله : (١)

وكذلك ننجي المؤمنين ".

واذا استكملنا القصة بعد أن لطف الله سبحانه بسيدنا يونس وأخرجه من بطن الحوت ثم بعثه الى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا به نرى في هذه النهاية هدفا آخر من ذكر قصة يونس مع الحوت وهو : بيان عاقبة الذين آمنوا " فآمنوا فمتعناهم الى حين " (٢) بجانب ما تبينه القصص الأخرى في

---

(١) ٢/١٧ في ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف ط ١

(٢) ١٤٨ ك الصافات ٣٧

القرآن من عاقبة الذين لا يؤمنون فيختار قوم محمد - صلى الله عليه وسلم - احدى العاقبتين كما يشاءون !!

. . . . . .

. . . . . .

الملامح البلاغية للنظم الحكيم

في الحوت الذى ابتلع يونس - عليه السلام - .

وردت الاشارة الى حوت يونس - عليه السلام - فى ثلاث سور مكية (١)
وهى على ترتيب النزول :

القلم : وفيها جاء قوله تعالى : " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين " . (٢)

والصافات :

وفيها جاء قوله تعالى : " وان يونس لمن المرسلين "
اذ أبق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين . وارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون " . (٣)

---

(١) اعتمدنا فى ترتيب هذه السور حسب النزول على ما ذكره الزركشى فى البرهان ٢/١٩٣ - ١٩٤ .
(٢) الآيتان : ٤٨ - ٥٠ القلم ٦٨ .
(٣) ١٣٩ - ١٤٧ الصافات ٣٧

والأنبياء :

وفيها جاء قوله : " وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين "(١).

فاذا نظرنا أول اشارة نزلت ، وهو ما فى سورة القلم نجدها مجملة ثم تلتها الاشارة التى فى سورة الصافات ففصلت ما أجملته سورة القلم .

أما ما ورد فى سورة الأنبياء فهو اجمال ثان لما فصل فى سورة الصافات . ومع كون ما فى الأنبياء مجملا فانه فصل فكرة مجملة جاءت فى الصافات ، وهى قوله تعالى : " فلولا أنه كان من المسبحين " .

فجاءت الأنبياء وحكت ما قاله يونس - عليه السلام - " أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين " .

كما نجد كلا من القلم والصافات تحكيان القصة دون أن تذكرا ليونس - عليه السلام - أى قول قاله سوى الاشارة التى وردت فى الصافات من وصفه بالتسبيح . وقد جمعت الأنبياء بين وصف يونس - عليه السلام - بما وقع منه من فعل ، وبين القول الذى قاله فهذه المصادر الثلاثة : القلم - الصافات - الأنبياء ، وان تحدثت حديثا مكررا عن واقعة واحدة . فليس فى هذا التكرار فضول وانما كل نص يعاضد نظيره فى أسلوب قوى محكم .

---

(١) الأنبياء ٨٧ ، ٢١ .

وفى القلم وهى أول مصدر يتحدث عن حوت يونس حسب الترتيب النزولى نجد الاشارة الى الحوت واردة ضمن ارشاد ونصح وجملة المولى تبارك وتعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . . . " وسورة القلم نفسها تتحدث عن المتاعب التى لقيها سيدنا محمد فى مجال الدعوة من مشركى قريش . فأنزل الله هذا الكلام ليثبته ويقوى عزيمته . فالدعاة لا ينبغى أن يفروا من الميدان وانما المطلوب منهم الثبات والمثابره . وهنا كان المقام مناسبا ليحذر الله رسوله من أن يصنع كما صنع يونس حين غضب من قومه وترك الميدان دون أن يستأذن من ربه . فكان من أمره ما كان . ولم يقل الله له - عليه السلام - ولا تكن كيونس ، بالاسم الصريح ، لأن يونس من حيث هو يونس ليس فيه ما يحذر . لهذا جاء النظم القرآنى بالوصف الذى هو محط العظه والعبرة " صاحب الحوت " كما فى هذا الوصف من ايحاء وتذكير لا يخفى أثره البليغ فى التربية والتوجيه .

ومن الملامح البلاغية فى هذه النصوص :

العطف بالفاء الدال على سرعة وقوع هذه الأحداث وتلاحقها فى الوجود كما يفهم من النظر فى النصوص الحكيمة . الا أننا وجدنا النظم القرآنى يخالف هذا النسق فى : " وانبتنا عليه شجرة من يقطين . وارسلناه الى

مائة ألف أو يزيدون " فجاء العطف بالواو بدلا من الفاء ولعل السر فـــى هذا - والله أعلم - أن الله أراد أن يبين أن جمـــع له بين هذه النعـــم والمكارم :

النبذ بالعراء ، والانبات ، والارسال . ومع العطف بالواو فان التعقيب لا يمتنع اذ هى لمطلق الجمع كما يقول النحاة .

وبقى فى النظم الحكيم العطف بـ " أو " فى " الى مائة ألف أو يزيدون" فقد اختلف العلماء حول معنى " أو " اختلافا كبيرا حكى ابن هشـــام حاصله بينهم (١) ، كما أشار اليه ابو السعود (٢) فبعضهم قال انهما بمعـــنى الواو ، أو للتخيير فيما يرى الرائى أو للتشكيك . ولابن قيم الجوزية توجيه طيب حيث قال : ان " أو " فيه للتحقيق ، أى لتحقيق العدد المذكور بلا زيادة ولا نقص وان العرب تستعمل أو بهذا المعنى فى مثل هـــذا الموضع (٣) .

والذى اختاره هو قول ابن القيم لظهوره على ما سواه وان لم يقـــم هو عليه دليل من كلام العرب .

. . . . . .

---

(١) المغنى ٩١ - ٩٢

(٢) تفسير ابى السعود ٤/ ٥٥٠

(٣) التبيان فى أقسام القرآن ٢٢٢

٦ - الحمار الذى مات مع صاحبه مائة عـــام ثم بعثهما اللـــــه (١)

فى قول الله تبارك وتعالى :

" أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال : أنى يحى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يومـا أو بعض يوم قال : بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوهـــا لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ". (٢)

هذه الآية هى الثانية من ثلاث آيات تتناول موضوعا واحدا فى جملتـه : (سر الحياة والموت وحقيقة الحياة والموت ، وتثبت قدرته سبحانه على الحيـاة والموت بطرق مختلفه منها :

أولا : المنطق الوجدانى كما فى الآية الأولى التى (تحكى حوارا بين ابراهيم عليه السلام وملك فى أياسه قيل أن اسمه " نمروذ " يجادله فى اللـــه . لكن السياق القرآنى لا يذكر اسمه ، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التى تمثلها شيئا . وهذا الحوار يعرض على النبى - صلى الله عليه وسلـم - وعلى الجماعة المسلمة فى أسلوب التعجيب من هذا المجادل ، الذى حـاج

---

(١) الحمار : حيوان داجن من الفصيلة الخيليه يستخدم للحمل والركوب مؤنثه (الحماره) وجمعه (حمر) ١٩٦/١ المعجم الوسيط بتصرف

(٢) ٢٥٩ البقرة ٢

ابراهيم فى ربه ، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآنى) (١) :

" ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه ان آتاه الله الملك ؟ اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحى ويميت . قال : أنا أحي وأميت ! قال ابراهيم : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين "(٢).

وقد انتهت الآية بتذييل مناسب للقصة التى تضمنتها : " والله لا يهدى القوم الظالمين " ، لأن ذلك الملك الذى حاجّ ابراهيم عليه السلام فى ربه لم يلتمس الهداية ولم يرغب فى الحق ولم يلتزم القصد والعدل ، وكان الغرض من ذكر هذا الحوار الذى عرضته الآية الكريمة ، وأثبتت قدرته سبحانه هو : تزويد أصحاب الدعوة الجدد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر والجلد والحلم فى مواجهة المنكرين واعلامهم بأنه قد يقابلهم من هو على شاكلة ذلك الملك الجاحد فلابد من ترويض نفوسهم على تعنت المنكرين بسماعهم تلك القصص ، وأخذهم منها العبر ، ووقوفهم فى مواجهة مثل ذلك الملك بقوة الايمان .

---

(١) ٣٨/٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) آية ٢٥٨ من سورة البقرة ٢

ثانيا : أثبتت تلك الآيات قدرته سبحانه على الحياة والموت بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، كما في الآية الثانية التي تحكى قصة الرجل الذى مر على قريه وهى خاوية على عروشها فقال : (أنى يحى هذه الله بعد موتها) فجاءه الجواب بتلك التجربه الشخصية الذاتية المباشرة حيث وقعت فيه الخارقه " فأماته الله مائة عام ثم بعثه " وكان حماره معه قد وقعت فيه الخارقه أيضا وهذا ما يعنينا من تلك الآية الكريمة .

أما ما يعنينا من الآية الثالثه فهو : الطير الذى وقعت فيه الخارقه أيضا ، حيث أثبتت تلك الآية قدرة الله سبحانه على الاحياء والاماتة بتجربة شخصية أيضا وهى : تجربة سيدنا ابراهيم عليه السلام حيث طلب معاينة احياء الموتى ونعود هنا الى قصة ذلك الرجل الذى (مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : أنّى يحى هذه الله بعد موتها) وقد سبق القول بأن هذه الآية هى واحدة من ثلاث آيات تثبت قدرة الله سبحانه على احياء الموتى . ونظرا لأن موضوع هذه الآية والتى سبقتها - التى حاجّ فيها الملك سيدنا ابراهيم عليه السلام - هو موضوع واحد وهو سر الحياة والموت ، فقد كثر الحديث والتفصيل عن ارتباط الآيتين ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كثر الحديث أيضا عن الآية التى تحكى قصة الرجل الذى مر على القرية الخاوية .

أما بالنسبة للآية الأولى وهى : مدى ارتباط هذه القصة بالآية التى قبلها فقد قيل فى تفسير : (أو) التى بدئت بها الآية : (أو كالذى) أن معناها التفصيل ، وقيل التخيير فى التعجيب من حال من ينشأ منهما . وقال الزمخشرى (أو كالذى) معناه : (أو رأيت مثل الذى فحذف لدلالة (ألم تر) عليه لأن كلتيهما كلمة تعجيب)(١) ولا يخفى ضعف هذا الرأى وقيل : ان (أو) تفيد العطف على الآية التى قبلها ، وقيل : انه من كلام ابراهيم ذكره جوابا لمعارضة ذلك الكافر ، وتقديره : ان كنت تحى فاحي كاحياء الذى مرّ ، ولا يخفى ضعفه للفصل وكثرة التقدير .(٢)

ويحتمل أن (تكون الكاف اسما على ما يذهب اليه ابو الحسن فتكون الكاف فى موضع جر معطوفة على الذى ، التقدير : ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم أو الى مثل الذى مرّ على قرية) .(٣)

أما القول بأن (أو) تفيد العطف فقد نتج عنه القول : بأن قصة هذا الرجل المار معطوفة على الآية التى قبلها ومن ثم استنتج ان المار كان كافرا بالبعث وقال : (وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ فى سلك واحد ولكلمة

---

(١) ٣٨٦/٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة .

(٢) ص ١٩ - ٢٠ تفسير روح المعانى جـ ١ المجلد ١

(٣) ص ٢٩٠ البحر المحيط جـ ٢

الاستبعاد التى هى : أنّى يحى)[1] . وهنا ظهرت قضية جديدة وهى : ان عطف هذه الآية على سابقتها اقتضى أن يكون ذلك المار اما كافرا فيعطف على الملك الذى حاجّ ابراهيم أو يكون هذا المار مؤمنا فيعطف على سيدنا ابراهيم عليه السلام[2] فتكون حالته كحالة المعطوف عليه ، وقد عورض قول الزمخشرى بأن المار كان كافرا فقيل : (اما استدلال الزمخشرى على أن المار كان كافرا بانتظامه مع نمروذ فى سلك واحد فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة ابراهيم عليه السلام فى نسق واحد ، فليس الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة نمروذ أولى من الاستدلال على ايمانه بانتظامهما أيضا مع قصة ابراهيم الّا أن يقول : ان قصة هذا المارّ معطوفة على قصة نمروذ عطف تشريك فى الفعل منطوقا به فى الأولى ومحذوفا فى الثانية مدلولا عليه بذكره أولا ، ولا كذلك عطف قصة ابراهيم فانها مصدرة بالواو التى لا تدخل فى كثير من أحوالها للتشريك ولكن لتحسين النظم حتى تتوسط بين الجمل التى يعلم تعاطفها لذلك الغرض ولا كذلك عطفها فى قصة نمروذ فانه بأو التى لا تستعمل الّا مشركة ، اذ عطف التحسين اللفظى خاص بالواو فنقول : اذا انتهى الترجيح الى هذا التدقيق فهو

---

(١) ص ٢٨٩ الكشاف للزمخشرى جـ ١ الطبعة الأخيرة

(٢) أى فى قوله تعالى : " ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم . . . "

معارض بين قصة المار وقصة ابراهيم من التناسب المعنوى لأن طلبتهما واحده ، اذ المارّ سأل معاينة الاحياء وكذلك طلبه سيدنا ابراهيم عليه السلام ، ثم التناسب المعنوى أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد الى أنحاء مختلفة ويؤيد القول بأن المارّ كان مؤمنا تحريه فى قوله تعالى - يوما أو بعض يوم - فان ظاهرة الاحتراز من التحريف فى القول حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم ومثل هذا التحرى لا يصدر عن معطل والله أعلم)(١) .

أما أنا فانني أقف كما وقف الاستاذ سيد قطب من هذه القضية وكل قضية فى القرآن لا يرد فيها نص آخر من القرآن يؤيدها أو حديث مرفوع عن رسول الله (ص) ، أقف حيث وقفت الآية دون زيادة تفصيل فالآية أولا : لم تذكر اسم هذا المار ، وهل هو مؤمن أم كافر ، وهل هو نبى أم غير نبى ، كذلك لم تذكر اسم القرية التى مر عليها ولو شاء الله لأفصح ، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق الّا بهذا الافصاح ما أهمله القرآن اذا فليس لنا أن نحمّل الآية تلك التفاسير ونقول : ان المار هو عزير أو الخضر أو هو أرميا بن خلقيا ، أو أن هذه القريه هي (بيت المقدس حين خربه بختنصر ، أو أنها القرية التى خرج منها الألوف)(٢) .

---

(١) ص ٣٨٩ حاشية السيد على / الكشاف جـ ١ الطبعة الأخيرة

(٢) ٣٨٩/١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة .

واذا كانت الآية الأولى والثانية تدور حول موضوع واحد وهـــو : سر الحياة والموت ، واثبات قدرة الله سبحانه على الحياة والموت ، واذا كان الله سبحانه قد تعجب من ذلك الملك الذى حاجّ ابراهيم عليه السلام فى الآية الأولى لقوله : (أنا أحى وأميت) فلا مانع من أن يكون قـول ذلك المار موضع تعجيب (انى يحى هذه الله بعد موتها) اذ العطف لمضمون القول لا عطف أشخاص ، أى أن العطف لايقتضى أن نعطف حالة هذا المار اما على سيدنا ابراهيم عليه السلام أو على ذلك الملـــك الذى حاجّ سيدنا ابراهيم عليه السلام ، أي أن مضمون قصة المار تدور حول سر الحياة والموت ومضمون الحوار الذى دار بين سيدنا ابراهيم وذلك الملك يتضمن أيضا سر الحياة والموت (فهو عطف مواقف لا عطف أفراد) . أما الباعث على التعجيب فى كليهما فهو : أن ذلك الأمر وهو (قدرة الله سبحانه على الاحياء والاماته ليس موضع شك أو أدنى خلاف حيث أن الجواب فى وضوح هو : (أن من خلق ابتداء أهون عليه أن يحى ويبعث ثانية) وهذا طبعا يتطلب الايمان أولا بقدرة الله سبحانه على الخلق من عدم وهذا ما أثبته ابراهيم عليه السلام للملك فى حواره معه حيث طلب منـــه أن يأتى بالشمس من المغرب اذا كان قادرا على احياء الموتى - فالمفـــروض فيمن يحى الموتى أن لا يعجزه أن يأتى بالشمس من المغرب أو أى جهـــة

كما يريد - وذلك ما وضعه في حيرة وجعله يبهت حيث أن القادر على أن يأتي بالشمس من المشرق وهي حقيقة واضحة لكل ذي عينين هو الذي يأتي بها من المغرب ، وهذا يحتم الاعتراف بأنه سبحانه هو الذي يسيّر الشمس وما دام هو الذي يسيرها فهو اذا موجدها أو خالقها ، وما دام هو خالقها فهو اذا الخالق لكل موجود وليس حاكم قوم في ركن من الأرض انما هو مصرف هذا الكون كله (ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم)(١) وهو الذي يميتهم متى شاء ، وما دام هو الذي أوجد الانسان من العدم ولم يكن شيئا ثم أماته دون أن يعرف الانسان عن أجله المحتوم شيئا ، فهو اذا قادر على أن يحييه مرة أخرى متى شاء وكيف شاء سبحانه ، وهذا أهون عليه سبحانه من خلقه من عدم ، أو أهون على ادراكنا أن نتصوره لأنه سبحانه قادر على كل شيء وليس من شيء يصعب عليه أمره سبحانه حتى يكون هناك أهون عليه بل كل الوجود خاضع له واذا أراد شيئا فانما يقول له " كن فيكون " سبحانه !!

" ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين "

فلما قال ذلك المار على القريه الخاويه على عروشها (أنّى يحي هذه الله بعد موتها) جعل الله سبحانه الآية التي ترد عليه ، وتشبع فضوله ، وتعلمه كيف تدب الحياة في هذه الموات ، وتريه قدرته سبحانه على البعث - سواء كان ذلك المارّ مؤمنا أو كافرا - جعلها في نفسه (فأماته الله مائة عام ثم بعثه)!

---

(١) ٤٠/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(لم يقل له كيف . انما أراه في عالم الواقع كيف !

فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي ، ولا حتى بالمنطق الوجداني ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان . انما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التي يمتلىء بها الحس ، ويطمئن بها القلب دون كلام)[1] . نعم دون كلام ، ذلك أن التجربة الشخصية الذاتية المباشرة التي مرت به جعلته يؤمن بقدرة الله ان لم يكن مؤمنا ويطمئن قلبه ان كان مؤمنا فالذي مر عليه لم يسمعه من أحد فيحتمل ذلك التصديق أو التكذيب بل هو الذي أماته الله ثم أحياه ومن المستحيل أن يكذب على نفسه في أن الله أماته ثم أحياه بل هو الذي سيخرج على الناس ويحدثهم ويرجوهم أن يؤمنوا بقدرته سبحانه على احياء الموتى كما آمن هو أو كما اطمئن قلبه بعد الذي مر به : (فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير) أما قوله : (أنّى يحيي هذه الله بعد موتها) هل هو ناتج عن :

١ - كفر : حيث يكون معنى (أنّى) هو استبعاد لاحياء الله الموتى ، أي تعبير عن انكار البعث .

٢ - أم أن قائله مؤمن ويطلب به المعاينه كما فعل ابراهيم عليه السلام حيث قال : " ربي أرني كيف تحي الموتى قال : أولم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي " .

---

(١) ٤٢/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

وهل المقصود بالقريه فى الآية : (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) القرية ذاتها - زروعها وكروسها وأشجارها ونخيلها - بدون تقدير ؟

أم أن هناك تقدير مضاف بمعنى أصحاب هذه القرية والاحياء والاماتـــه على حقيقتهما ؟

فى كلتا الحالتين - أى اذا كانت القرية ذاتها أم أهلها - يكون معنى (أنّى) هو اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة احياء الموتى واستعظاما لقدرة المحى .

وعلى (القول بالمجاز يكون هذا القول على سبيل التلهف والتشويق الى عمارة تلك القرية لكن مع استشعار اليأس عنها على أبلغ وجه وأوكده ولذا أراه الله تعالى أبعد الأمرين فى نفسه ، ثم فى غيره ، ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى ازاحة ما عسى يختلج فى خلده ، وعلى القول الثانى يكون اعترافا بالعجز عن معرفة طريقة الاحياء واستعظاما لقدرة المحي لكن هذا يتعين أن نطرح سؤالا آخر وهو :

٣ - هل قوله : (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) هو ناتج عن أن قائله "مؤمن حائر" ولم يكن غرضه أن يطلب المعاينة ؟

الارجح فى حال ذلك المار أن يكون : " مؤمن حائر" وان المشهـــد الرهيب الذى أمامه هو الذى دفعه لذلك القول : " أنّى يحي هذه اللـــه بعد موتها " ذلك أن مشهد القرية وهى خاوية على عروشها - أى محطمـــة

على قواعدها - هو أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعسف فى الايحاء . . انه مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه مما جعله يحار ويقـــول تلك القوله (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) .

واذا تمعنا فى الآية الكريمة بعد هذا نجد أن اسم الاشارة : (هذه) وهى مفعول به فى قوله " أنّى يحى هذه الله بعد موتها " قد تقدم علـى الفاعل وهو لفظ الجلاله (الله) ولم يقل أنّى يحى الله هذه بعد موتها . . وذلك للاعتناء به حيث أن التعجب ناشىء من جهة القرية لا من جهـــة الفاعل ، واحياء القريه بعد موتها هو الذى كان موضع حيرته وتساؤله .

و (أنّى) تنصب على الظرفيه ان كانت بمعنى متى أى : متى يحى هـذه الله بعد موتها ، وعلى الحاليه من هذه ان كانت بمعنى كيف ، والعامل فى الحالتين (يحى) .(١)

(قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ! "

يا لها من تجربه !

أماته الله مائة عام ! كم من الأحداث مرت ؟ وكم من الناس ولدوا ؟ وكم من الناس ماتوا ؟

---

(١) المجلد الأول جـ ١ / ٢٥٣ تفسير أبى السعود بتصرف .

وهو ميت في هذه الفترة ولا غرابة في ذلك الا أن يبعثه الله بعد مائة عام فهذه هي الخارقة ، هذه هي المعجزة ! وعلى القول بأن تلك القرية هي بيت المقدس (قيل لما مر سبعون سنه من موته وقد منعه الله من السباع والطير ومنع العيون أن تراه أرسل الله ملكا الى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له لوسك فقال له : ان الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وايليا وأرضها حتى تعود أحسن ما كانت ، فانتدب الملك فيل ثلاثة آلاف قهرمان مع كل قهرمان ألف عامل ، وجعلوا يعمرونها وأهلت الله بختنصر ببعوضه دخلت دماغه ، ونجى الله من بقي من بني اسرائيل وردّهم الى بيت المقدس ونواحيه فعمروها ثلاثين سنة ، وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه)[1] . وبذلك يتمثل احياء الله لهذه المدينة ، ثم بعثه ليريه كيف أحيا هذه المدينة ، ولكن الجواب كان أسبق في نفسه حيث أن موته ثم بعثه هو أكبر وأعظم آية على قدرته سبحانه !

(قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا قال له ؟ فقيل قال : (كم لبثت)

قال صاحب البحر المحيط : (الظاهر أن القائل هو الله تعالى لقوله كيف ننشزها ، وقيل هاتف من السماء ، وقيل جبريل وقيل نبي ، وقيل رجل

---

(١) ٢٩١/٢ من التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط

مؤمن شاهده حين مات وعمّر الى حين احيائه ، وعلى اختيار الزمخشري لم يكن بعد البعث كافرا فلذلك ساغ أن يكلمه الله انتهى ولا نص في الآيـــة على أن الله كلمه شفاها)[1] . وهذا ما نقف عنده كما أسلفنا ، فالخارقه ليست هي أن الله قد كلمه وانما الخارقه في (بعث رجل بعد موته - أي كان شخصه - بعد مائة عام) ! وكان السؤال عن تلك المدة التي قضاهـــا وهو ميت (مائة عام) ، فكم هنا ظرفيه أي : كم مدة لبثت ميتا ؟ وانّى له أن يجيب بما لبث !

وهذا سؤال على سبيل التقرير ليظهر له العجز عن الاحاطة بشئون اللـــه تعالى على أتم وجه ، وتنحسم مادة استبعاده بالمره ، حتى في نفسه لا يدري ماذا يكون وماذا كان من أمره - الا ما شاء الله له أن يعلمه - لذا فقد كـــان جوابه : (لبثت يوما أو بعض يوم) اذ (ما يدريه كم لبث والاحساس بالزمن لا يكون الا مع الحياة والوعي !

على أن الحس الانساني ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة ، فهو يخدع ويضل ، فيرى الزمن الطويل المديد قصيرا لملابسة طارئه ، كما يرى اللحظة الصغيرة دهرا طويلا لملابسة طارئه كذلك)[2] . وهكذا فقد كان جوابـــه :

---

(١) ٢٩١/٢ من التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط

(٢) ٤٣/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب .

(لبثت يوما أو بعض يوم) ، روى أن هذا المارّ قد مات ضحى ثم بعثه الله بعد مائة عام قبل غروب الشمس وبناء على هذه الملابسه أجاب بهذه الاجابه : (لبثت يوما) قبل النظر الى الشمس ثم لما رأى من الشمس بقية وذلك وقت غروبها حين كانت تجرر أذيالها نحو المغيب قال : (أو بعض يوم) ، فوقع الاختلاف بين المفسرين فى قوله (أو بعض يوم) فمنهم من قال : ان (أو) هنا بناء على الظن ، أى أنه ظن أولا أنه قد لبث يوما كاملا ثم لما رأى بقية من الشمس عدل عن قوله هذا وقال : (أو بعض يوم) يعنى أنه لم يكمل اليوم فى موته ومنهم من قال : (والأولى أن لا تكون أو هنا للترديد بل تكون للاضراب كأنه قال بل بعض يوم لما لاحت له الشمس أضرب عن الاخبار الأول الذى كان على طريقة الظن ثم أخبر بالثانى على طريق التيقن عنده .

أما أبو السعود فيقول : ان ذلك القول قاله المارّ (بناء على التقريب والتخمين ، أو استقصارا لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر الى الشمس (يوما) فالتفت اليها فرأى منها بقية فقال (أو بعض يوم) على وجه الاضراب فبمعزل من

---

(١) صاحب الكشف ص ٣٨٩ جـ ١ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م

(٢) صاحب البحر المحيط ص ٢٩٢ جـ ٢

(٣) ص ٢٥٤ تفسير أبى السعود المجلد ١ جـ ١

التحقيق اذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله) .

المهم من هذا كله أن جوابه لم يكن صحيحا أى لم يكن مطابقا للواقع الذى حدث بدليل الجواب الحق الذى رد عليه بكلمة (بل) أى أن الذى قلته غير صحيح وانما الصحيح انك لبثت مائة عام : (قال : بل لبثت مئة عام) وتلك هى الخارقه . ومع كونها خارقه فلابد أن تكون هناك آثار محسوسه تصور فعل (مئة عام) ذلك لأنها تجربة حسيه واقعية ، فطعامه وشرابه الذى قيل أنه (تين وعصير عنب) لم يظهر عليه فعل مئة عام حيث لم يتغير : (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه) وان هذه خارقه أخرى حيث ظل الطعام دون أن يصيبه تعفن فى هذه المدة المتطاوله مع تداعيه الى الفساد فهو طعام معرض للتلف كما سبق وبقيت الخارقة الأخرى وهى خارقة (الحمار) فى قوله تعالى : (وانظر الى حمارك) والعظام فى قوله تعالى : (وانظر الى العظام) وللمفسرين - هنا - آراء :

فمن قائل ان معنى (وانظر الى حمارك) أى انظر اليه حيث أماته الله معك وجعله من الآثار التى تصور فعل مئة عام ، فهذه عظامه قد نخرت (وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من اللبث المديد وتطمئن به نفسك) (١) .

---

(١) المجلد الأول جـ ١ / ٢٥٤ تفسير أبى السعود .

فهذا القول اذا يبين أن الحمار قد مات مع صاحبه ،

ويضيف الزمخشري الى هذا القول - موت الحمار مع صاحبه - احتمال عدم موت الحمار مع صاحبه وانما بقي حيا مائة عام دون طعام أو شراب فيقول :

(ويجوز أن يراد وانظر اليه سالما في مكانه كما ربطته ، وذلك من أعظم الآيات أن يعيّشه مائة عام من غير علف ولا ماء كما حفظ طعامه وشرابه من التغير)[1] .

الا أن هذا المعنى لا يؤيده بعض المفسرين حيث يقول :

(ليس بشيء ولا يساعده المأثور)[2] . أما المعنى الأول - أي كون الحمار قد مات مع صاحبه - فهو أدل على الحال وأوفق بما بعده كما يقول . ومن ذهب الى موت الحمار والى أن المار كان عزيرا قال :

(روي أنه لما دخل القرية ربط حماره - قبل أن يميته الله مائة عام - فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى في منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنه وجّه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك الى بيت المقدس ليعمره وسعه ألف قهرمان[4] مع كل قهرمان

---

(١) ١/ ٣٩٠ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة

(٢) الألوسي ص ٢٣ تفسير روح المعاني المجلد الأول جـ ٣

(٣) جملة توضيحيه من عندنا

(٤) القهرمان : كلمة فارسية تعني أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه ومؤنته : قهرمانه وهي مدبرة البيت ومتوليه شئونه ٢/ ٧٦٤ المعجم الوسيط بتصرف . وكلمة قهرمانة تعني في المصطلح الحديث كبيرا المهندسين المعماريين .

ثلاثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله بختنصر بيعوضه دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل ورد هم الى بيت المقدس وتراجع اليه من تفرق سبهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى (١) وذلك قوله تعالى (ثم بعثه) وهنا نلمح بلاغة القرآن حيث آثر استعمال لفظ (بعثه) على لفظ (أحياه) وذلك (للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم وللايذان بأنه اعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال) (٢) .

ونعود الى الآثار المحسوسة التى تصور فعل مائة عام وأنها اما أن تكون فى " الحمار " أو فى " العظام ونتلمس تلك الآثار من قوله تعالى " وانظر الى حمارك - ولنجعلك آية للناس - وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما " :

وكما لم تحدد الآية : هل أمات الله الحمار مع صاحبه أم لا لم تحدد أيضا أية عظام تلك التى أمر هذا المار بالنظر اليها (وانظر الى العظام) ، هل هى عظام ذلك الرجل الذى تحققت فيه الخارقة ؟ أن هل يأمره بالنظر الى عظام نفسه ؟ أم أنها عظام حماره الذى كان يركبه قبل موته ؟

---

(١) المجلد الأول جـ ١ / ٢٥٣ تفسير أبى السعود

(٢) ص ٢٥٣ المصدر السابق

أم أنها عظام أموات أهل القرية ؟

وما دام أن القرآن لم يحدد عظام من التى قصدت فلا نستطيع أن نحصل على اجابة شافية من المفسرين فمن قائل : (يعنى بالعظام نفسه فانه قتادة والضحاك والربيع وابن زيد أو عظام حماره أو عظامهما زاد الزمخشرى أو عظام الموتى الذين تعجب من احيائهم . وهذا فيه بعد لأنهم لم يحيوا له فى الدنيا ولا يمكن أن يقال له فى الآخرة وانظر الى العظام كيف ننشزها وانما هذا قيل له فى الدنيا فلا يمكن حمله الا على عظامه أو عظام حماره أو عظامهما والأظهر أن يراد عظام الحمار)(١) .

ومن استدل بأنها عظام نفسه قال : (أول ما أحيا الله تعالى منه عيناه ، وسائر جسده ميت وعظامه نخره فأمر بالنظر اليها)(٢) .

ولكن هذا لا يعول عليه حيث لا دليل يثبته من القرآن أو الحديث .

بقى الترجيح المنطقى بعد استبعاد أن تكون العظام عظام أموات أهل القرية :

هل هى عظامه أم عظام حماره ؟

لو كانت عظامه هى التى تعرت وتفسخت - كما يقول بعض المفسرين - للفت هذا نظره عندما استيقظ ووخز حسه كذلك ، وسياق تلك التجربة الشخصية

---

(١) ٢/٢٩٣ من التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط .

(٢) ص ٢٣ روح المعانى للألوسى المجلد ١ ج ٣

الذاتية المباشرة فى الآية الكريمة هى فى مجال (سر الحياة والموت واثبات قدرته سبحانه على احياء الموتى) وأحداث تلك الخارقة هى للاجابة علـى قوله : (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) ولا يمكن أن يرى الرجل تلـك القدرة فى نفسه وهو ميت اذ تقتضى رؤيته للعظام أن يكون حيا ـ سـمـيع استبعاد أن يكون الله قد أحيا عينه فقط دون سائر جسده ليرى بهـا جسده كما ذكر بعض المفسرين ـ فلو كان حيا كيف تكون عظامه نخره ؟ وسياق الآية يبين أن العظام الذى أمره بأن ينظر اليها هى عظام مخلـوق ميت حيث أراد الله أن يحييه : ينشز عظامه ثم يكسوها لحما ليبين قدرته سبحانه على احياء الموتى ، وهذا لا يتأتى فى ذلك الرجل حيث أن الآية تبين أنه انسان سوى حيث خاطبه سبحانه بقوله : " انظر الى العظـام " كيف ننشزها ثم نكسوها لحما " وكونه ميتا لا يتأتى مع كونه حيا مخاطبا ، لا يعقل أن تكون تلك العظام عظامه وأن الله يخاطبه بأن ينظر الى عظامه وهى نخره ! وأنّى له أن ينظر اليها وهو ميت اذ سياق الآية ـ كما ذكرت ـ يبين أن المخاطب انسان سوىّ : (انظر الى طعامك وشرابك ...) ثم لنهب أن تلك العظام لم تكن نخره أى باليه ، وانما تعرت وتفسخت فقـط فكيف تكون اجابته حين بعث وسئل (كم لبثت ؟) قال : (لبثت يوما أو بعض يوم) كيف يجيب بأنه قد مات يوما واحدا أو أقل مع رؤيته لعظامـه

وقد تعرت وتفسخت ولا بد لذلك التفسخ والتعرى من زمن يكون اليوم الواحد .

اذا فاجابته بأنه لبث يوما أو بعض يوم تثبت أن جسمه سليم عندما بعث ليس فيه تفسخ ولا تعرى ، ولو كانت هناك آثار فى جسده تصور فعل مائة عام لما أجاب بهذه الاجابة : (لبثت يوما أو بعض يوم) ، ولكانت اجابته لبثت (كذا عام) حتى تتفق مع تفسخ عظامه وتعريها .

ونستخلص من ذلك كله : أن العظام التى أمره سبحانه بأن ينظر اليها ليرى قدرته سبحانه فيها - كيف ينشزها ويكسوها لحما - ليست هى عظامه .

اذا - والله أعلم - هى عظام حماره وهذا أمر يتفق مع السياق حيث أن الله سبحانه (أماته مائة عام ثم بعثه) قبل أن يحى حماره ليريه عظام حماره البالية كيف ينشرها ثم يكسوها لحما سبحانه ! ولا يكون فى ذلك تناقض بين قولنا : ان المقصود بالعظام هى عظام الحمار وقوله سبحانه (وانظر الى حمارك) . . . نعم هناك تكرار ، لكن هذا التكرار له غرضين :

١ - فى قوله تعالى : (وانظر الى حمارك) : دليل على ما ذكر له من أنه لبث مائة عام حيث أن عظام ذلك الحمار الذى ربطه قبل موته قد تحسرت وكان لا بد من دليل كهذا لاثبات انه قد لبث (مائة عام) .

٢ - اما فى قوله تعالى : (وانظر الى العظام) - حيث رجحنا انها عظام الحمار أيضا ولا يكون هناك تناقض من أنه أمر بالنظر الى عظام الحمار فى الحالتين .

نعم هناك تكرار للأمر بالنظر الى عظام الحمار ، ولكن هناك غرضين أيضا : حيث أن المأمور به أولا فى قوله : (وانظر الى حمارك) : هو النظر الى عظام الحمار من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد حيث تفرقت ونخرت والمأمور به ثانيا فى قوله (وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) هو النظر اليها من حيث تعتريها الحياة وسباديها . . . أن وانظر الى عظام الحمار لتشاهد كيفية الاحياء فى غيرك - حيث تدب فيها الحياة بعد ما نخرت ، وتتركب فوق بعضها باتقان وحكمة وتكسى باللحم - بعد ما شاهدت نفسه فى نفسك .

وبعد هذا التحليل : أقول - والله أعلم بما قصد فى الآيتين - أقول : لم لا يكون معنى (وانظر الى حمارك) أى انظر الى حمارك حيث نخرت عظامه وتفرقت ففى ذلك دليل على ما ذكر لك من اللبث المديد (ليثت مائة عام) . وفى قوله سبحانه : (وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) لم لا يكون المقصود بالعظام هنا فى هذه الآية هى آية عظام ؟ فهى من خلق الله وهو قادر سبحانه ما دام أنه خلقها أن يكسوها لحما . فاعتبر أيها الرجل بما حدث لك ولحمارك وأعلم اذا رأيت بعد ذلك عظاما نخرة باليه - أنه سبحانه قادر على أن ينشزها ثم يكسوها لحما ويعيدها الى الحياة متى أراد سواء فى الدنيا أو يوم القيامه وتلك هى قضية البعث - أن يعيد الله

سبحانه الخلق بعد ما تعرت عظامهم ونخرت - الى الحياة - فلا تعجب أيها الرجل بعد ذلك وبعد أن رأيت ذلك من احياء الله للقرية بعد موتها ولا تقل (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) فقدرته سبحانه وسعت كل شئ ! واذا كانت تلك الخارقة التى وقعت فيه وفى حماره هى اجابة له على قوله : (أنّى يحى هذه الله بعد موتها) فهى للناس آية : " ولنجعلك آية للناس ".

عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ماسبق ، اذ الألف واللام فى (للناس) للعهد ، أى فعلنا ما فعلنا من احيائك بعد موتك لتعاين مااستبعدته من الاحياء بعد دهر طويل ، عنى به من بقى من قومه أو من كان فى عصره أو للجنس اذ هو آية لمن عاصروه ولمن يأتى بعدهم الى يوم القيامة ! (١)) نعم ان موته مائة عام ثم بعثه ورؤيته لحماره كيف يكسو الله عظاما لحما ، كل ذلك آية للناس .

وللمفسرين أقوال فى تحديد تلك الآية (ولنجعلك آية للناس) فقيل : أن المقصود بالآية : -

١ - ضم عظام الحمار (بعضها الى بعض وكسوتها باللحم ورد ها الى الحياة ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب عصامه ولا شرابه التعفن) (٢) .

---

(١) ٢٩٣/٢ تفسير البحر المحيط لأبى حيان ، المجلد الأول جـ١ / ٢٥٤ تفسير ابى السعود بتصرف منهما .

(٢) انظر ص ٤٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٣ ط ٢

٢ - ان الآية : - وذلك على قول من قال بأن ذلك المار هو عزير - هي : أنه (أتى قومه راكبا حماره وقال : أنا عزير ، فكذبوه فقال : جاءتنا التوراة فأخذ يهزها هزا عن ظهر قلبه وهم ينظرون في الكتاب فما خرم حرفا فقالوا : هو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ولم يقرأ التوراة عن ظهر قلب أحد قبل عزير فذلك كونه آية . وقيل رجع الى منزله فرأى أولاده شيوخا وهو شاب فاذا حدثهم بحديث قالوا حديث مائة سنة)[1] .

وفي رواية أخرى (انه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير : يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرن عزيرا قد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديدا . قال : فاني عزير . قالت : سبحان الله أنى يكون ذلك قال : قد أماتني الله مائة عام ثم بعثني قالت : ان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لي يرد علي بصري حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومي باذن الله فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت

---

(١) انظر ص ٣٩٠ - ٣٩١ الكشاف للزمخشري جـ ١ الطبعة الأخيرة .

أشهد أنك عزير فانطلقت الى محلة بنى اسرائيل وهم فى أندية يتهم وكان فى المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثماني عشرة سنه وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فانى بدعائه رجعت الىّ هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا اليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بختنصر ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلب من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فان أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا الى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)(١) .

٣ - لنجعلك آية للناس الموجودين فى هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة .(٢)

---

(١) ص ٢٥٥ تفسير أبى السعود المجلد ١ جـ١

(٢) انظر ص ٢٥٤ تفسير أبى السعود المجلد ١ جـ ١

٤ - قال الأعمش : كونه آية هو انه جاء شابا على حاله يوم مات فوجد الحفدة والأبناء شيوخا ، وقال عكرمة جاء وهو ابن أربعين سنة كما كان يوم مات ووجد بنيه ينوفون على مائة سنة .

وقيل : كونه آية : هو أنه جاء وقد هلك كل من يعرف وكان آية لمن كان حيا من قومه اذ كانوا موقنين بحاله سماعا . . .

وفى اماتته هذه ثم احيائه أعظم آية وأمره كله آية للناس عابر الدهر (١) لا يحتاج الى تخصيص بعض دون بعض) .

والخلاصة :

ان الخارقه التى وقعت فيه وفى حماره آية ، أى كونه مات مائة عام ثم بعثه الله هذه هى الخارقة ، أما التفصيل فى أن الآية تكمن حين رجع شابا الى قومه ، أو أن الآية هى أنه قرأ التوراة ، أو ما الى ذلك كما مر بنا فليس هو المقصود كما يبدو . . اذ أن أمره غير عادى حيث يموت مائة عام ثم يحيا ، وسنة الله فى خلقه هى أن يتوفاهم حين ينتهى أجلهم وينتهى أمرهم الى أن يبعثهم الله يوم القيامة . أما أمثال تلك الخارقة اذا حدثت لأمر يريده الله كقصة أهل الكهف مثلا فقد أخبر عنها سبحانه فى القرآن الكريم حيث أنها ليست بالأمر العادى وهكذا فقد أخبر سبحانه عن صاحب قصتنا مع حماره .

---

(١) انظر البحر المحيط ص ٢٩٣ جـ ٢

أما كيف وقعت تلك الخارقة لذلك الرجل الذى مر على القرية الخاوية على عروشها (فكما تقع كل خارقه ! كما وقعت خارقة الحياة الأولى .

الخارقة التى تنسى كثيرا انها وقعت ، واننا لا ندرى كيف وقعت ! ولا ندرى كذلك كيف جاءت الا انها جاءت من عند الله بالطريق التى أرادها الله)[1] .

واذا عدنا الى الملابسات التى وقعت فى تلك الخارقه : فمثلا طعامه وشرابه ظل طوال تلك الفترة التى مرت مائة عام ، وكأنه قد تركه لتوه مع تداعيه الى الفساد حيث أنه كما قيل كان الطعام تينا وكان الشراب عصير عنب أو لبن لكنه لم يتعفن (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه) والرجل وحماره أموات ! لكن الرجل لم يحدث له أى تغير أما حماره فقد أصبحت عظامه متفرقة تلوح بيضا ، وحتى لو لم يمت حماره على قول البعض حيث وجده مربوطا كما تركه يوم مات فيكون هناك اختلاف : هذا يموت مائة عام وذاك يبقى حيا مائة عام !

بماذا يمكن أن يفسر ذلك ؟ حيث ينال البلى شيئا ويترك شيئا ، فى مكان واحد وفى ظروف واحده !

(ان خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجعها كذلك لا تفسر هذا الاختلاف فى مصائر أشياء ذات ظروف واحدة . ان الذى يفسر هذه الظاهره هو طلاقة المشيئة . . طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانونا كليا لازما

---

(١) ٣/ ٤٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

ملزما لا سبيل الى مخالفته أو الاستثناء منه !

وحسبانا هذا خطأ بالقياس الى المشيئه المطلقه : خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقليه أو (العلميه)[1] على الله سبحانه !) .

فالى جانب ما تقرره هذه التجربة من حقيقة الموت والحياة ورد هما الى الله فهى تقرر أيضا (حقيقة طلاقة المشيئة التى يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها فى ضمائر المؤمنين به ، لتتعلق بالله مباشرة . من وراء الأسباب الظاهرة ، والمقدمات المنظورة . فالله فعّال لما يريد . وهكذا قال الرجل الذى مرت به التجربه[2]) : " فلما تبين له ، قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير " أى لما اتضحت له قدرة الله على احياء الموتى وضوحا تاما قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير لا يستعصى عليه أمر من الأمور ، فكل الأشياء وكل الأحياء تحت قضاءه وقدره وتصرفه ومن جملة تلك الأشياء ما شاهده ذلك المار فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ، ونرى أنه آثر صيغة المضارع فى قوله : (اعلم ان الله على كل شىء قدير) : (للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا الى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل وانما تبدل بالعيان وصفه وفيه اشعار بأنه انما قال ما قال بناء على الاستبعاد المعادى ،

---

(١) انظر ص ٤٤ - ٤٥ من ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٢ ط ٢

(٢) ٢/٤٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢ .

واستظهارا للأمر . وقد قيل فاعل (تبين) مضمر يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ، فتدبر وقرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال : اعلم على صيغة الأمر) (١) .

. . . . . .

---

(١) المجلد الأول جـ ١ / ٢٥٥ تفسير أبى السعود .

الغرض البياني والتربـــــوي

من ذكر الحمار فـي قوله تعالـى

" أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال : أنّى يحـى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم قال : بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية وأنظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ".(١)

بما أن هذه الآية الكريمة كانت - كما أسلفنا - ضمن ثلاث آيات تتناول موضوعا واحدا فى جملته ألا وهو : " سر الحياة والموت " أو " حقيقة الحياة والموت وتثبت قدرته سبحانه على اماتة الأحياء واحياء الموتى " فقد جـــاء ذكر الحمار فى هذه الآية الكريمة أيضا لاثبات ذلك باعتبار أنه كائن حـــي فوقعت فيه الخارقة كما وقعت فى صاحبه حيث قال سبحانه لصاحب ذلـــك الحمار بعد أن بعثه من موته الذى استمر مائة عام : (وانظر الى حمارك) فكان ذكر الحمار هنا واضحا ثم ذكر الحمار مرة أخرى بطريقة وان لم يكـــن لفظ الحمار فيها واضحا الا أن المفسرين يميلون الى أن المقصود بها هـــو الحمار نفسه المذكور أولا وذلك فى قوله تعالى : (وانظر الى العظـــام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) حيث أن المأمور به فى الآية الأولى - كما ذكرنا

سابقا - (وانظر الى حمارك) هو النظر الى عظام الحمار من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد .

أما المأمور به فى الآية الثانية : (وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) فهو النظر الى عظام الحمار من حيث تعتريها الحياة والحركة بعد الموت والسكون .

اذا فذكر الحمار فى هذه الآية الكريمة قد ضرب الله به مثلا على قدرته سبحانه على الحياة والموت ، فأماته مع صاحبه مائة عام حتى تفرقت عظامه ونخرت وهذا هو الدليل على قدرته سبحانه على الموت ، ثم أحياه مع صاحبه وركب عظامه - تلك التى قد تفرقت وبليت وذهب بها الطير والسباع كل مذهب - تركيبا لائقا بها وكساها لحما . (روى أنه نودى أيتها العظام البالية ان الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها الى بعض ، والتصق كل عضو بما يليق به الضلع بالضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فاذا هو قائم ينهق)[1] .

أما القول بأن معنى قوله تعالى : (وانظر الى حمارك) أى انظر اليه سالما كما ربطته منذ مائة عام لا يزال واقفا فى مكانه فلا يخلو ذلك المعنى من أن كونه قد بقى مائة عام سالما من غير علف ولا ماء لا يخلو من أن تلك

---

(١) المجلد الأول جـ ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥ تفسير أبى السعود .

أيضا خارقة ، حيث تتضح فى هذا المعنى قدرة الله سبحانه أن أبقى ذلك الحمار مائة عام من غير علف ولا ماء فذلك من أعظم الآيات !

فسبحان الله القادر على كل شىء ...

.....

الملامح البلاغية للنص الحكيم

في معجزة الحمار الذي مات مع صاحبه مائة عام

١ - من الملامح البلاغية في هذا النص العطف بـ " أو " في قول الحق " أو كالذي " وهي فيما أرى للتنويع لأن في الآيات الثلاث : آية الذي حاج ابراهيم ، وآية المارّ هذه ، وآية ابراهيم الثالثة لهما ، في الآيات الثلاث واجه القرآن المعجز ثلاث مواقف متآلفة متخالفة. فالذي حاج أدعى القدرة المساوية لقدرة الله . والمارّ استبعد احياء الله القرية وابراهيم عليه السلام طمع في أن يريه الله معاينة احياء الموتى أو كيفية ذلك الاحياء فكانت آية المار هو النوع الثاني من هذه المواقف التي قد واجهها القرآن في حسم واحكام . فأو هذه للتنويع كما يبدو .

٢ - ومن تلك الملامح هذا الايجاز البديع في " كالذي مر على قرية . . " فطوى اسم الرجل واسم القرية لأن القرآن الحكيم يركز دائما في مثل هذه الأمور على الأحداث والوقائع التي هي موضع العبرة والاتعاظ، ولا يشغل السامع بتفصيلات لا دخل لها في احداث المطلوب . فحذف الفضول والتركيز على مواضع الاعتبار في ذكر القصص والوقائع سمة مطردة من سمات البلاغة القرآنية .

٣ - وفى قوله تعالى : " وهى خاوية على عروشها " كناية لطيفة عن الدمار والخراب الذى حل بالقرية ، ان فسرنا خاويه بمعنى ساقطة ، وعروشها بمعنى سقوفها أى سقطت سقوفها ثم سقطت حيطانها عليها .

وقد ورد هذا فى تفسير ابن عطية (١) .

وهذا يستلزم خلوها من السكان لاستمرار دمارها وخرابها . ولخاصة الكناية - هنا - لما فيها من ايحاء وتصوير لحالة القرية المرور بها .

٤ - ومنها الاستفهام بـ " أنّى " فى قوله تعالى :

" أنّى يحى هذه الله بعد موتها " ؟! فالتعبير بأنّى أول على الاستبعاد الذى كان يتصوره الرجل المار من أية أداة أخرى . وهذا يقوى الرأى القائل بأن المار كافر . فكأنه قال : استبعد أن يحى الله هذه ويقوى هذا أن الاستفهام من جانب ابراهيم - عليه السلام - كان بـ " كيف تحى الموتى " لأن ابراهيم عليه السلام مؤمن بقدرة الله على كل شىء ومنها الاحياء وانما طلب معرفة الكيفية . أما المار فمنكر لما استفهم عنه .

٥ - وفى تقديم المفعول " هذه " على الفاعل " الله " اشارة الى أن الرجل قد استبعد " احياء القرية " فالانكار منصب عليها هى بالدرجة

---

(١) المحرر الوجيز جـ ٢/ ٢٠٨ ط١ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة .

الأولى فكأنه كان يرى ان قدر الله على احياء " موات " فلن يقدر على احياء هذه لما أصابها من الخراب البالغ والدمار الشنيع وقد قرر علماء المعانى ان محط الانكار هو الذى يلى الاستفهام ، وهذا قول صائب تؤيده مئات الشواهد .

٦ - ومنها العطف بالفاء فى (فأماته) وبثم فى " ثم بعثه " وهذا تصوير أمين للواقع ، لأن الاماته وقعت عقيب قول المارّ مباشرة لأن الفاء تدل على الترتيب وعلى التعقيب . ولما كان الاحياء والبعث قد حدث بعد مائة عام ناسب العطف بثم المفيد للتراخى الزمنى هنا وللترتيب . فالاحياء والبعث حدث بعد الاماته ، ولكن بعد مرور فترة من الزمان دل عليها العطف بثم كما دل عليها التصريح بذكر العدد " مائة عام " .

٧ - ومنها الاضافات الآسرة فى قوله تعالى : " فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك " فقد أضاف الطعام والشراب والحمار الى ضمير المخاطب " الرجل المارّ " وهو قد أميت مائة عام ، اذا فهى كانت معه منذ مائة عام ولم يتغير طعم الماء ولم يفسد الطعام وكذلك الحمار قد مات معه منذ مات هو ، فكانت المعجزة فى احياءه هو بعد مئة عام وفى بقاء طعامه وشرابه صالحا كأنه صنع ليومه ، وفى احياء حماره وهو ينظر ويعاين ولو خلت هذه الثلاث من الاضافه لما

لزم أن يكون الطعام والشراب والحمار من مصحوبات الرجل منذ مات ولكانت المعجزة فيهن جميعا ، والنظر المأمور به أولا للطعام والشراب صالحين غير فاسدين وللحمار ميتا أما النظر الواقع على الطعام فلكى يريه الله كيف يحى حماره الذى نخرت عظامه ويليت ولو لم يمت الله حمار الرجل لما علم الرجل - يقينا - انه كان قد مات منذ مائة عام ولكان بقاء الطعام والشراب صالحين غير فاسدين معوانا له على أنه نام يوما أو بعض يوما . فقطع الله هذا الظن ببقاء حمار المار ميتا ثم أجرى عملية الاحياء أمامه فحدث له اليقين الذى انطقه فقال : " أعلم أن الله على كل شىء قدير ".

٨ - أما التعبير بالمضارع " أعلم " فهو - والله أعلم - لله لالة على العلم الذى نشأ له فى " الحال " مع استمراره لأن اليقين يعصم صاحبه من الشك بعد حصوله مهما تقلبت الأحوال .

---

٦ - حيـة موسى - عليه السـلام

سبق الحديث عنها عند الحديث عن ثعبان موسى - عليه السلام - .

١٠ - الطير (١)

التى ذبحها سيدنا ابراهيم عليه السلام وفرقها على قمم الجبال فبعثها الله تعالى من الموت !

فى قول الله تبارك وتعالى :

" واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموت ؟ قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ". (٢)

قلنا فى شرح الآية التى سبقت هذه الآية أنها واحدة من ثلاث آيات تتناول موضوعا واحدا فى جملته :

سر الحياة والموت ، وهذه هى الآية الثالثة التى تضمنت ذلك السر ، انها تجربة شخصية ذاتيه مرت بسيدنا ابراهيم عليه السلام حين طلب معاينة احياء الموتى : (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى) قال صاحب البحر (مناسبة هذه الآية لما قبلها فى غاية الظهور اذ كلاهما أتى بهما

---

(١) الطير : جمع طائر والطائر من الحيوان كل ما يطير فى الهواء بجناحين ويجمع أيضا على أطيار وطيور .

(٢) ٢٦٠ البقرة ٢

دلالة على البعث المنسوب الى الله تعالى فى قول ابراهيم لنمرود (ربى الذى يحى ويميت) لكن المار على القرية أراه الله ذلك فى نفسه ونفس حماره ، وابراهيم أراه ذلك فى غيره وقدمت آية المارّ على آية ابراهيم - وان كان ابراهيم متقدما فى الزمان على المارّ - لأنه تعجب من الاحياء بعد الموت وان كان تعجب اعتبار فأشبه الانكار وان لم يكن انكارا فكان أقرب الى قصة النمرود وابراهيم ، واما ان كان المار كافرا فظهرت المناسبة أقوى ظهور ، وأما قصة ابراهيم فهى سؤال عن كيفية اراءة الأحياء ليشاهد عيانا ما كان يعلمه بالقلب وأخبر به نمرود)(١) . فى قوله : (ربى الذى يحى ويميت) .

أما ابو السعود فيقول عن علاقة الآية بما قبلها :

ان هذه الآية : (دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجه لهم من الظلمات الى النور وانما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذى قال الخ لجريان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجه ولأنه لا دخل لنفسه - عليه السلام - فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فان ما جرى عليه من احيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته)(٢) .

---

(١) ص ١٩٦ - ٢٩٧ البحر المحيط جـ ٢

(٢) ص ٢٥٥ - ٢٥٦ تفسير ابى السعود جـ (المجلد)

أما (اذ) فى بداية الآية فهى ظرف منتصب بمضمر اى (واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى تقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته)[1].

أما صاحب البحر[2] فيقول : ان العامل فى اذ على ما قالوا محذوف تقديره واذكر (اذ قال) وقيل العامل مذكور وهو ألم تر المعنى اذ قال ، وهو مفعول بتر والذى يظهر أن العامل فى اذ قوله قال أو لم تؤمن كما قررنا ذلك فى قوله : (واذ قال ربك للملائكة)[3] .

اما ياء الاضافة فقد حذفت فى قوله (رب) اجتزاء بالكسر وفى اللغة الفصحى فى نداء المضاف لياء المتكلم واما حرف النداء فقد حذف للدلالة عليه ، أى أن ابراهيم قصد نداء ربه وأراد يارب أرنى كيف تحى الموتى .

وقوله (أرنى) سؤال رغبة وهو معمول لقال . والرؤية هنا بصرية متعديه الى واحد ويدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهاميه فانها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى اجعلنى مبصرا .

وجملة (كيف تحى الموتى) فى موضع نصب أراد أن يحى له الموتى

---

(١) ص ٢٥٦ تفسير ابى السعود جـ (المجلد)

(٢) ص ٢٩٧ البحر المحيط ٢ جـ ٢

(٣) ص ٢٩٧ البحر المحيط جـ ٢

وهو ينظر اليها فيعاين بنفسه كيفية احيائها .

(انه التشويق الى ملابسة سر الصنعه الالهية . وحين يجيء هذا التشوق من ابراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل . . حين يجيء هذا التشوق من ابراهيم فانه يكشف عما يختلج أحيانا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الالهية في قلوب أقرب المقربين) (١) .

ان طلب رؤيته عليه السلام ليد القدره وهي تعمل لم يكن ناتجا عن تزعزع في الايمان فقد كان عليه السلام مؤمنا ايمانا ليس بعده ايمان ، أجل وهو النبي والخليل . . ، اصطفاه ربه وهداه اليه حيث كانت الأصنام والكواكب تعبد من دون الله فأبى تلك العبادات كلها لطهارة قلبه وسمو نفسه وقال : (لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين) اذا لما كان طلبه (أرني كيف تحي الموتى) ؟

(ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها ويطمئن قلبه بها) (٢) وتسكن نفسه لها .

أما قوله تعالى : (قال : أولم تؤمن ؟) فهو استئناف ولكن هل كان الله جل جلاله وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما

---

(١) ٤٥/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) ٤٥/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

تكن النفوس لأنه أقرب الى الانسان من حبل الوريد هل كان من حاله كذلك - سبحانه - غافلا عما يكنه قلب خليله وما يقصده من سؤال ؟

حاشا أن يكون من يعلم ما في النفوس - قبل أن تعلم النفوس بحالها - أن يكون كذلك . . اذا لماذا كان السؤال لعبده الأواه : (أولم تؤمن ؟) .

الجواب: لأنه كان (سؤال الكشف والبيان والتعريف بهذا الشون واعلانه ، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم مع عبده الأواه الحليم المنيب)[1] .

فقد أراد سبحانه أن يجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين .

اذا فالسؤال هنا سؤال تقرير لأن الهمزة للتقرير كما في قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ؟) أي قد شرحنا لك صدرك . وهكذا كان السؤال لسيدنا ابراهيم عليه السلام : لتقرير الايمان بالاحياء عنده أي انك قد آمنت بأني أحي الموتى .

وهكذا كان جواب ذلك النبي الأواه : (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) . . و (بلى) ايجاب لما بعد النفي معناه : بلى آمنت ولكنه يريد أن يضيف الى كمال ايمانه الذي ليس بعده ايمان يضيف اليه (الاطمئنان) فيكون هادئا قويا مطمئن القلب . . . (لقد كان ينشد اطمئنان الأنس الى رؤية يد الله

---

(١) ص ٤٦ في ظلال القرآن جـ ٣ ط ٢

تعمل ، واطمئنان التذوق للسر المحجبوهو يجلى ويتكشف ، ذلك ان علم سيدنا ابراهيم عليه السلام بقدرة الله على الاحياء والاماته ظاهر وواضح فى قوله عليه السلام للذى حاجّه فى ربه : (ربى الذى يحى ويميت) ولما كان كذلك فقد طلب من الله تعالى رؤية ذلك لما فى معاينة ذلك من رؤية اجتماع الأجزاء المتلاشية والأعضاء المتبدّده والصور المضمحله واستعظام باهر قدرته تعالى) (١) . فيزداد قلبه ايمانا مع ايمان واطمئنانا مع اطمئنان . .

(وأما ما قيل من أن نمروذ لما قال : أنا أحى وأميت . قال ابراهيم عليه السلام : ان احياء الله تعالى برد الأرواح الى الأجساد . فقال نمروذ : وهل عاينته ؟ فلم يقدر على أن يقول نعم ، فانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك ، فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان) (٢) .

واستجاب الله لنداء خليله فى ذلك الطلب - كما استجاب كثيرا من الطلبات فى مواضع أخرى - استجاب طلبه ليطمئن قلبه الطاهر ويريح نفسه البريئه ، وتلطّف معه فى الاجابة تلطف السيد الكريم الودود الرحيم العالم بصفاء قلب خليله وكمال ايمانه وصدقه وشدة تقواه فمنحه التجربة الذاتية المباشرة

---

(١) ص ٢٩٧ البحر المحيط لأبى حيان جـ ٢ المجلد ٢

(٢) ص ٢٥٦ تفسير أبى السعود جـ ١ المجلد ١

حيث(قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم) وهذه التجربة الذاتية المباشرة هي مجال بحثنا من حيث أنها وقعت في (الطير) فقد رأى سيدنا ابراهيم عليه السلام السر الالهي يقع بين يديه في (أربعة من الطير) حيثما فعل بهن ما أمره سبحانه :

(فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك) .

ولم تذكر الآية تعيين الأربعة من أي جنس هي من الطير لأن ذكر اسمائهن لا تزيد من العبره التي تمثلها الآية شيئا فالمعجزة ليست في أسمائهن وأجناسهن وانما في عملية احيائهن كمخلوقات حيه . ويحتمل (أن يكون المأمور به معينا وما ذكر تعيينه ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة أي أربعة كانت من غير تعيين اذ لا كبير علم في ذكر التعيين)[1] . ونظرا لذلك - لأن الآية لم تسم تلك الأربعة من أي جنس هي من الطير[2] - فقد اختلف المفسرون في تلك الأربعة التي ذبحها سيدنا ابراهيم :

---

(١) ص ٢٩٩ البحر المحيط ج ٢

(٢) انظر ص ٣٨ - ٤٩ من كتاب : قصص الحيوان في القرآن ، أحمد بهجت ط١ : ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ . فقد روى فيه قصة (الطير التي ذبحها ابراهيم على لسان الحمام وهو بذلك يقول ان الحمام كان واحد من الأربعة من الطير التي ذبحها ابراهيم .

فقال ابن عباس أخذ (طاووسا ونسرا أو ديكا وغرابا . وقال مجاهد وعكرمه وعطاء وابن جريح وابن زيد كذلك الا أنهم جعلوا " حمامه " بدل النسر)[1] .

الى غير ما هنا لك من أسماء ليست ذات أثر فى اجراء التجربة الذاتية المباشرة لسيدنا ابراهيم عليه السلام كما ذكرنا ، المهم هى تلك التجربة فى حد ذاتها : (ان يحى الله له طيورا فارقتها الحياة ، بل وقد قطعها سيدنا ابراهيم ومزقها كما أمره سبحانه ، وأن يريه ذلك السر العظيم يقع بين يديه عليه السلام) باجتماع حاسة الرؤيا وحاسة اللمس حيث رأى عليه السلام ما حدث بعينيه ، ولمس بيديه ذبحهن وتفريقهن كما أمر فى أماكن متباعده ، حيث أن معنى (فصرهن اليك) : قطعهن قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما وقال غيره اضممهن ، وقرأها ابن عباس رضى الله عنهما بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء .

والأمر بضمه وتقريبه لهن حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التى لا يخطىء معها معرفتهن .

(ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) فاذا كان معنى فصرهن) أن قطعهن فيكون اكمال التجربه أن يجعل على كل جبل منهن جزءا بعد عملية التقطيع .

---

(١) البحر المحيط ٢٩٩/٢

وان كان معنى (فصرهن اليك) أى أضممهن اليك فاكمال التجربة أيضا أن يجعل على كل جبل منهن جزءا ، وكيف يجعل على كل جبل منهن جزءا الا بأن يقطعهن وهذا يفهم من السياق حيث لم يقل اجعل على كل جبل منهن واحدا وانما قال جزءا والجزء هو قطعة من الشيء .

(ثم اجعل) أى ألق أو : ضع على كل جبل جزءا منهن بعد ذبحهن وخلط لحومهن ودمائهن وريشهن فقد (روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رءوسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى :

(ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) (١) .

أن جزئهن وفرق أجزاءهن على ما بحضرتك من الجبال وقد اختلف المفسرون أيضا فى عدد الجبال التى وضع عليه السلام عليها تلك القطع من الطير فمنهن من قال : انها أربعة جبال ، ومنهن من قال : أنها سبعة ، ومنهن من قال : انها عشرة ، فيكون تقسيم الطيور على حسب عدد الجبال ، فاذا كانت أربعة يكون ربع من كل طير على كل جبل ، واذا كانت سبعة يكون سبعا واذا كانت عشرة يكون عشرا . . . لكن هذا أيضا لا علاقة له بتلك التجربة الشخصية الذاتية التى عاشها عليه السلام ، ويكفى أن نعرف

---

(١) ص ٢٥٧ تفسير ابى السعود جـ ١ المجلد ١

ما ذكره القرآن من أنه وضعها في أماكن متباعدة وكانت تلك الأماكن جبالا : (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا) وان تلك الأماكن أو الجبال كانت على مرأى منه ليراقب ويسرد ما يحدث وهكذا فعل عليه السلام .

وهكذا كانت المعجزة . . .

هكذا وقع السر الالهي بين يديه عليه السلام :

دعاهن بقوله - كما قال المفسرون - تعالين باذن الله أمره سبحانه بدعائهن وهن أموات ليكون أعظم له في الآية ولتكون حياتها متسببة عن دعائه ولذلك رتب على دعائه اياهن اتيانهن اليه ، فاذا بتلك الأجزاء المتفرقة المتباعدة تتجمع مرة أخرى وتصبح طيورا سويه ترتد اليها الحياة ويعدن اليه ساعيات ، وهذا (أبلغ في الآية اذ ايتانهن اليه من الجبال يمشين مسرعات هو على خلاف المعهود لهن من الطيران ، وليظهر بذلك عظم الآية اذ أخبره أنهن يأتين على خلاف عادتهن من الطيران فكان كذلك ، وجعل سيرهن اليه سعيا اذ هو مشية الجد الراغب فيما يمشي اليه ، لاظهار جدها في قصد ابراهيم واجابة دعوته . وانتصاب سعيا على أنه مصدر في موضع الحال من ضمير الطيور أي ساعيات)(١)

---

(١) ص ٣٠٠ البحر المحيط جـ ٢

وعن اتيانهن سعيا روى أنه عليه السلام (نادى : أيتها العظام المتفرقة واللحوم المتفرقة والعروق المتقطعة اجتمعى بإذن الله تعالى فيكن أرواحكن فوثب العظم الى العظم ، وطارت الريشة الى الريشة ، وجرى الدم الى الدم ، حتى رجع الى كل طائر دمه ولحمه وريشه ثم أوحى الله تعالى الى ابراهيم : انك سألتنى : كيف أحى الموتى ، وانى خلقت الأرض وجعلت فيها أربعة أرواح : الشمال والصبا والجنوب والدبور حتى اذا كان يوم القيامة نفخ نافخ فى الصور فيجتمع من فى الأرض من القتلى والموتى كما اجتمعت أربعة أطيار من أربعة جبال ثم قرأ :

(ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) (١) .

ولكن ! لماذا كان (الطير) هو موضع لتلك التجربة التى منحها الله سبحانه لسيدنا ابراهيم عليه السلام ليريه كيف يحى الموتى ؟ لماذا خصص الطير بذلك ؟ ليس هناك سبب هام لذلك التخصيص سوى انها من المخلوقات الحية التى لها أرواح فيمكن أن تفارق الحياة وأن تعود اليها الحياة متى أراد الله وكيف أراد الله بأمر من الله ، وكان طلب سيدنا ابراهيم عليه السلام هو : (رب أرنى كيف تحى الموتى ؟) لم يخصص نوع أو جنس بعينه ، فأراه الله معاينة ذلك فى الطير .

---

(١) ص ٢٩ تفسير روح المعانى المجلد ١

وقيل : ان سبب التخصص هو أن الطير (أقرب الى الانسان باعتبار طلبه المعاش والمسكن ولذلك وقع فى الحديث (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) ولأنه أجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة لما فيه من مزيد أجزاء من الريش ففى احيائها مزيد ظهور القدرة ولأن صفته الطيران فى السماء وكان من همة ابراهيم عليه الصلاة والسلام الميل الى جهة العلو والوصول الى الملكوت فكانت معجزته مشاكل لهمته) (١) .

وترى الباحثة أن الطير يجمع بين صفتين لا وجود لهما فى غيره من مخلوقات الله ، وهى الدب على الأرض (المشى) ثم الطيران فى الفضاء فاجراء التجربة عليها هو اجراء على جميع أنواع المخلوقات : الماشية ، والزاحفة ، والطائرة .

لذلك أرجح أن هذا - والله أعلم - سبب وقوع التجربة عليها .

وقد لاحظنا فى الآية الكريمة : (أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال : تعالين باذن الله فجعل كل جزء منهن يطير الى صاحبه حتى صارت جثثا ، ثم أقبلن الى رؤسهن فانضمت

---

(١) ص ٢٩ تفسير روح المعانى المجلد ١

كل جثة الى رأسها فعادت كل واحدة منهن الى ما كانت عليه من الهيئة للايذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له الى الذكر أصلا . وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ، ويمن الضراعة فى الدعاء ، وحسن الأدب فى السؤال ، حيث أراه الله تعالى ما سأله فى الحال على أيسر ما يكون من الوجوه وأرى عزيرا ما أراه بعد ما أماته مائة عام)(١) .

نعم : تلك هى التجربة الشخصية الذاتية التى منحها الرب الودود اللطيف لعبده الأواه الحليم وخليله النبى الكريم : ابراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وتلك هى المكانه الرفيعة التى منحها الله جل جلاله اياه وذلك هو السر الالهى الذى وقع بين يديه عليه السلام : (سر هبة الحياة) وهكذا تضمنت هذه الآية سر الحياة - كما أسلفنا -

وهكذا يكون الغرض البيانى والتربوى من ذكر الطير فى هذه الآية الكريمة ألا وهو :

اثبات قدرة الله جل جلاله على الحياة والموت حيث أمات تلك المخلوقات الأربعة من الطير ثم أحياها ثانية على مرأى من سيدنا ابراهيم عليه السلام

---

(١) ص ٢٥٧ تفسير أبى السعود جـ ١ المجلد ١

تلبية لطلبه حيث قال : (رب أرنى كيف تحى الموتى) فأراه سبحانه يده تعمل ، أراه السر الالهى يحدث أمامه فاذا بتلك الطيور الأربعة - وقد فارقتها الحياة على يد سيدنا ابراهيم حيث ذبحها وقسّمهـــا - تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود اليه سعيا !

ولكن : كيف ؟

صحيح ان سيدنا ابراهيم عليه السلام رأى الطيور وهى تدب فيها الحياة بعد أن فارقتها / الحياة ، وكان ذلك تلبية لطلبه . ولكن كيف كانت الطريقة التى عادت بها الحياة اليهن ؟

ما هى طبيعة ذلك السر الالهى ؟

هذا ما تجيب عليه نهاية الآية حيث ذيلت بقوله جل شأنه :

(واعلم أن الله عزيز حكيم) ..

(عزيز) غالب على أمره لا يعجزه شىء فى السماء ولا فى الأرض لأنـــه خالق كل شىء وحاشا أن يعجزه شىء من خلقه وهو (حكيم) صاحـــب حكمة بالغة فى أفعاله وليس من شىء خلقه عبثا ، بل كل أمر بحكمة . وليس (بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن ايجادها بطريق آخـــر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح) (١) . ولكنه اذا أراد أن

---

(١) ص ٢٥٧ تفسير أبى السعود جـ ١ المجلد ١ .

تكون هناك أمور غير عادية كما حدث لسيدنا ابراهيم عليه السلام فانه سبحانه يقول : " كن فيكون " فما دام أن كل شيء بتدبيره وتصريفه فالأمر الخارق للعادة بالنسبة للبشر يكون عاديا بالنسبة لمن يصرفه ويصرف غيره من الأمور .

نعم : هذا هو السر الذى لم يطلع سبحانه عليه أحدا من خلقه (كيف) كيف يعيد الحياة للموتى ؟

هذا هو السر الذى يعلو على التكوين البشرى ادراكه ! انه قد يراه كما رآه ابراهيم ، وقد يصدّق به كما يصدّق به كل مؤمن . ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته ! انه من أمر الله . والناس لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه ، لأنه أكبر منهم ، وطبيعته غير طبيعتهم ، ولا حاجة لهم به فى خلافتهم ، انه الشأن الخاص للخالق ، الذى لا تتطاول اليه أعناق المخلوقين ، فاذا تطاولت لم تجد الا الستر المسدل على السر المحجوب وضاعت الجهود سدى ، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلام الغيوب ! (١)

فهو وحده " العزيز الحكيم " لا شريك له .

---

(١) ٣/٤٦ - ٤٧ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

الملامح البلاغية فى النص الحكيم

لمعجزة الطير التى ذبحها ابراهيم - عليه السلام -

وفرقها على قمم الجبال فبعثها الله - تعالى - من الموت

كانت آية ابراهيم - عليه السلام - الثالثة فى تبيان قدرة الله على كل شىء ومنها الاحياء والاماته ، وكان النسق القرآنى حكيما فى ترتيب هذه الوقائع الثلاث شأنه فى البيان فالذى حاج ابراهيم كافر بالاجماع والسارّ على القرية مختلف فيه أمؤمن هو أم كافر .

أما ابراهيم - عليه السلام - فهو امام فى الايمان . فواجه البيان القرآنى أولا باطل الكفر ودحضه . ثم جعل مواجهة من لم يصرح بايمانه أو كفره واسطة العقد ، وختم بموقف المؤمن الكامل الايمان . وفى هذا تدرّج بالغ الروعة ، فهدم الكفر قد يؤدى الى التردد بينه وبين الايمان ، ثم ينتهى المتردد الى الايمان الكامل متى انتفع المتردد بدلائل الايمان الصحيح .

وفى هذه اشارة الى العاقبة المحمودة التى ينتقل فيها من الكفر الى التردد فالايمان . وهذه اللمحه الحكيمة خاص بالتراكيب من حيث ترتيب ما وقعت فيها من أحداث ومواقف ، وفوق هذا فاننى ألمح كثيرا من الأسرار البلاغية والبيانية فى جزئيات التركيب : -

١ - منها أن فاصلة الآية الثانية كانت " قال أعلم أن الله على كل شيء قدير " فدلت على انقطاع شبهات الريب ثم مهدت لموقف الايمان الكامل في آية ابراهيم - عليه السلام - .

٢ - ومنها عطف موقف ابراهيم - عليه السلام - بالواو وهي لمطلق الجمع لا تفيد ترتيبا ولا تقصيا . فلم يكن موقف ابراهيم - عليه السلام - ناشئا في الوقوع عن أي من الموقفين السابقين عليه وانما جمع بينهما البيان الحكيم للسر الذي أشرنا اليه - والله أعلم - بسر كتابه .

٣ - ومنها ايثار النداء بـ " رب " مضافا الى ياء المتكلم المحذوفة المجزوء عنها بالكسر . ولم يكن " يا الله " مثلا لأن الربوبية - والله أعلم - تشعر بمعنى التكوين والتربية وهي هنا تربية روحية ايمانية أراد ابراهيم أن ينتقل فيها من الايمان النظري الناشيء عن الثقة الكاملة في " الرب " الى الايمان البرهاني اليقيني الناشيء عن المعاينة والتجربة الحسية الراسخة .

٤ - ومنها : الاستفهام الموجه من علام الغيوب الى ابراهيم - عليه السلام - " قال أولم تؤمن " ؟ وسره البلاغي - كما أرى - أن الله أراد أن ينفي عن ابراهيم - عليه السلام - شبهة الانكار أو التردد ليجيب ابراهيم بما أجاب فتحصل البراءة المطلوبة .

وقد تكفلت اجابة ابراهيم ـ عليه السلام ـ بالمطلوب:

" قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى " وللامام السكاكى ذوق مرهف وأدب جم حينما سمى نظائر هذا فى القرآن بـ " سوق المعلوم مساق المجهول " فرارا من ايهام نسبة الجهل لله العلى القدير لو أطلق عليه " تجاهل العارف " كما سمى البلاغيون أمثاله فى أدب البشر .

٥ - ومنها حرص البيان القرآنى الحكيم على اظهار كناية المفعول فى " أدع " و " يأتين " فكان مفعول "أدع" هن العائد على الطير " أدعهن " .

وكان مفعول " يأتين " كاف الخطاب العائد على ابراهيم ـ عليه السلام ـ " يأتينك " ولو لم يذكر المفعول فى الموضعين لتوزعت الدلالة فى مقام يراد فيه الدقة والاحكام ولاختلف المراد فى " ادعو ابراهيم " من هو ؟ هل هو الله مثلا فيكون ابراهيم قد توجه الى الله بأحيائهن . ولما ظهر المفعول تحدد المدعو ، وفى هذا اشارة الى أن الله جلت حكمته أراد أن تقع التجربة وقوعا مباشرا من ابراهيم ـ عليه السلام ـ والطيور التى ذبحها . وهذا أوقع فى احلال اليقين فى قلب ابراهيم عليه السلام .

ولو حذف المفعول فى الموضع الثانى لكان المتبادر الى الذهن أن يطير تأتى مجرد ايتاء أى تحيا بعد الموت ويذكر المفعول تحدد المأتى : أى يأتينك أن يا ابراهيم ساعيات مسرعات نحوك استجابة لدعائك اياهن حين اذن الله فى ذلك .

٦ - ومنها معاملة الطير وهى مما لا يعقل معاملة من يعقل فلم يقل : ادعها أصرها وانما قال : وتأتى وقال : " فصرهن " ثم اجعل على كل جبل منهن . وسره البلاغى - والله أعلم - أنها لما كانت مهيأة لتعمل عمل العقلاء من فقه النداء والاستجابة نزلت منزلة العاقل فعوملت معاملته والله أعلم .

.....

١١ - طـــير عيســـى - عليه الســـلام

في قول الله تبارك وتعالى :

" اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيـــه فيكون طيرا باذني ....." (١)

وفي قول الله تبارك وتعالى :

" ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم انّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ....." (٢)

لما كانت المعجزات هي الخوارق التي لا يستطيع انكارها الناس حين تقـــع سواء بطلب منهم أولا لأنها دليل محسوس على قدرة الله ، وهي بالنسبة لقدرة الله مظهر من مظاهر طلاقة المشيئة الالهية التي لا تقيد بمألوف البشر الذين يحسبون أن المألوف لديهم قانونا لا سبيل الى خلافه ..

أقول لما كانت المعجزات هي الدليل المحسوس على قدرة الله وعلى أحقيـــة الله في العبادة والتوجه اليه لأنها خارجة عن قدرة البشر بل وعن تصـــور

---

(١) ١١٠ المائدة ٥
(٢) ٤٩ آل عمران ٣

البشر وقانونهم فهي اذا من صنع الله الذي خلق البشر وخلق ما يألوف ولا يعجزه أن يخلق مالا يألوف ، وهي من ثم دليل على صدق من تقع على يده . ومن الناس من يؤمن بها ومنهم من يقول أنها سحر ! لأنه لا يريد أن يعترف بالواقع فيؤمن ويصدق من أرسله الله اليه من الرسل ، وهي في نفس الوقت واقع ماثل أمامه فليس له الا أن يقول ان هذه الآيات ما هي الا سحر مفترى . .

وسواء آمنوا بها أم لم يؤمنوا فحسابهم على الله وانما الذي نود قوله ان الله جل جلاله قد أيد أنبياءه بالمعجزات فكان لكل نبي معجزة أو معجزات عندما نعرفها ونعيش معها نحس أن الله جل جلاله قد أحب نبيه هذا ولم يحب غيره أحد من الأنبياء حيث منّ عليه بهذه المعجزة . . فمن معجزات ابراهيم عليه السلام الى معجزات موسى (التسع آيات) الى معجزات عيسى عليه السلام الى غير ما هنالك من معجزات للأنبياء وخاتمة المعجزات معجزة القرآن لسيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام حيث تكمن معجزته في اخراج الناس من الظلمات الى النور وأنه كتاب كامل شامل لكل احتياجات البشر منذ أن بعث به محمد صلى الله عليه وسلم الى أن تقوم الساعة فهو نبع فياض لكل الأجيال ولكل الأقوام ولكل الناس على وجه البسيطة وليس خاصا لقوم دون قوم أو زمان دون زمان ،

وهو كما نعته بعض الناس بأنه كالجوهرة التى تشع من كل جانب فكلما نظر اليه باحث وجد فيه أشياء جديدة لم يسبقه اليها أحد وهكذا الى أن تقوم الساعه نبع لا يجف !!

وبالرغم من ذلك كله فقد كان لهذه المعجزة نصيب من التصديق والتكذيب كغيرها من الخوارق التى وقعت للأنبياء ، ذلك أن الله جعل الجنة وجعل النار ولكل منهما نصيب أيضا من الناس بل أن الجنة تقول (هل من مزيد) ومن ثم قال الذين كذبوا بآخر المعجزات (القرآن) وخاتمة الرسالات الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم أو ابو الاعتراف بسحره اعتزازا بنسبهم وما لهم وأولادهم وتكبرا لأن يسلموا لمحمد قالوا :

" ان هذا الا سحر يؤثر " وقالوا ماهذا الا سحر مفترى ".

وليس هذا مجال بحث معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - فالحديث عنها يطول ... وما يهمنا فى بحثنا هذا تلك المعجزات التى وقعت على أيدى الأنبياء حول الحيوان ، وقد رأينا فيما مضى معجزة مشابهة لهذه التى نحن بصددها : معجزة طير ابراهيم نبى الله - عليه السلام - وها نحن بصدد معجزة طير عيسى نبى الله - عليه السلام - كانت الأولى حين سأل ابراهيم ربه : " رب أرنى كيف تحى الموتى " وذلك حين قال للملك الذى حاجه فى ربه : " ربى الذى يحى ويميت " (١) . فقال له الملك وكيف يحى

---

(١) ٢٥٨ البقرة ٢

فكان سؤال ابراهيم - عليه السلام - لربه أن يريه كيف يحى الموتى فأراه جل جلاله بالدليل المحسوس أنها تحيا بعد أن أمره بأن يجعل على كل جبل منهن جزءا بأن أتينه سعيا ولكن كيف أحياهن الله ؟ بقى ذلك سرا خارجا عن طاقة حدود البشر فى معرفته حتى لو كانوا أنبياء أما هذه المعجزة فقد وقعت لنبى الله عيسى - عليه السلام - حين أراد سبحانه أن يؤيده بالآيات عندما أرسله الى بنى اسرائيل وقد ذكرت فى هذه الآيات فى قوله تعالى :

" ورسولا الى بنى اسرائيل أنّى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وابرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى باذن الله ، وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم. ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ".(١)

وكما قلت ما يهمنا من معجزات عيسى عليه السلام هو خلقه من الطين كهيئة الطير ونفخه فيه فكان طيرا باذن الله ، وقد تكرر ذكر هذه المعجزة (خلقه الطير ..) فى سورة أخرى باعتبار أنها من نعم الله جل جلاله على عيسى - عليه السلام - وذلك فى قوله تعالى : " اذ قال الله : يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من

---

(١) ٤٩ آل عمران ٣

الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فيكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمة والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين ".(١)

فنهاية هذه الآية تبين لنا - بعد أن ذكر الله فيها عيسى بنعمه - نتيجة هذه النعم أو هذه الآيات التى وهبها الله لعيسى فالمفروض أن تكون دليلا على صدق المرسل من عند الله وهو عيسى - عليه السلام - هنا لأنه بشر ولا يستطيع فعل هذه الخوارق لكن الناس انقسموا الى قسمين عندما أتاهم عيسى - عليه السلام - بتلك الخوارق : فمنهم من كفر وكذب أشد التكذيب وأقبحه وقال انها سحر : " فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين ".

وهذا الطراز من الناس تكرر لدى الكثير من الأنبياء الذين جعل الله على أيديهم المعجزات فقالوا انها سحر مفترى .

ومنهم من (ألّهوه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه - مريم - التهاويل . . . . وفتن به وبالآيات التى جاءت معه من فتن وألّهوه مع الله من أجل هذه الآيات وهى كلها من صنع الله الذى خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات)(٢) .

---

(١) ١١٠ المائدة ٥

(٢) ٧/٦٧ - ٦٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وقد حرص النص القرآنى على (أن يذكر على لسان المسيح عليه السلام - كما هو مقدر فى غيب الله عند البشاره لمريم ، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى - ان كل خارقه من هذه الخوارق التى جاءهم بها ، انما جاءهم بها من عند الله . وذكر اذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلا وتحديدا ، ولم يدع القول يتم ليذكر فى نهايته اذن الله زيادة فى الاحتياط ! وهذه المعجزات فى عمومها تتعلق بانشاء الحياة أوردها ، أورد العافية وهى فرع عن الحياة . ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية . . وهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى ، ومنحه الوجود والحياة على غير مثال الا مثال آدم - عليه السلام - واذا كان الله قادرا على أن يجرى هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال - ولا حاجة اذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رد الأمر الى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الانسان الله - سبحانه - بمألوف الانسان !)(١)

والعكس صحيح : أى أن القادر على خلق عيسى - عليه السلام - من غير مثال الا مثال آدم - عليه السلام - قادر على أن يجرى هذه المعجزات على يده حيث أنشأه أساسا من غير أب. والواقع أن هذا الذى نعرفه

---

(١) ٣/١٩٣ - ١٩٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

بأنه أسهل أو أصعب مقياسنا نحن البشر حسب مألوفنا بأن يكون هنـــاك صعب وأصعب وسهل وأسهل لكنها بالنسبة لقدرة الله سواء فقد خلـــق السماء كما خلق الأرض وخلق عيسى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق الخلق كله والكون جميعه وخلق الطير على يد عيسى من طين وخلق الحيوانات الضعيفة والمستحقره كما خلق الحيوانات القوية والضخمة فكلهـــا فى الاعجاز سواء وكلها بالنسبه لنا نحن البشر معجزات لأننا لم نملـــك خلق أنفسنا ولا نملك اطعامها اذا لم يهيئ لنا الله ذلك ولا نملك رد الهلاك عنها اذا أراد الله لنا ذلك ومن هنا تبقى معجزة خلق عيسى مـــن الطين كهيئة الطير ونفخه فيه فكان طيرا باذن الله معجزة خارقة بالنســـبة لنا نحن البشر وهى معجزة لأنها لم تقع على يد بشر الا عيسى ـ عليه السلام ـ لأن الله أراد ذلك .

وقد جاء السياق مرة بقوله : " فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى "(١)

ومرة على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله "(٢)

أما الأولى (فتنفخ فيها) فالضمير (للكاف لأنها صفة الهيئة التى كـان يخلقها عيسى ـ عليه السلام ـ وينفخ فيها ولا يرجع الى الهيئة المضاف اليها

---

(١) ١١٠ المائدة ٥

(٢) ٤٩ آل عمران ٣

لقد كان خلق عيسى - عليه السلام - أمرا مقضيا : " كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون " .

هكذا شاء أن يخلق عيسى من غير أب وهكذا أيضا شاء أن يخلق عيسى من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه عيسى باذنه سبحانه فيكون طيرا ولا شك أن الخلق الأول أشد وأعظم فى الاعجاز - من وجهة نظرنا نحن البشر - لكننا بصدد معجزة طين عيسى الذى تحول الى طير باذن الله يطير كباقى الطيور وأصبح فى عداد الحيوانات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والتى نحن بصدد البحث عنها - بعد أن كان طينا - طينا هامدا لا حراك له ولا حياة ، والطين هو التراب المختلط بالماء ، وقد يسمى بذلك وان زالت عنه رطوبة الماء ولكن حين تشكيله الى أشكال لابد وأن يكون طريا أى مختلطا بالماء وهكذا شكل عيسى - عليه السلام - قطعة من الطين من أرض فلسطين كهيئة الطير أى على شكل طير حينما بعثه الله الى بنى اسرائيل فى فلسطين فكان تشكيله لهذا الطين ونفخه فيه حيث أصبح طيرا باذن الله آية من آيات الله ليصدق بها بنى اسرائيل : " انى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله " آية حين كانوا يتصورون - كما يتصور غيرهم من الناس فى كل زمان - (أن المرء اذا مات وعاد لطين الأرض لم يعد هناك من يقدر على بعثه . . . . . .

انتهى الأمر وضاعت الروح مع الدم وذهبت حين ذهب . . .

كان الناس يحدثون عيسى بهذا . . . . وكان يسمع جهل الجاهلين فلا يتغير وجهه ، وذات يوم جلس عيسى جوار شجرة الورد . والتف حوله جمع هائل . . كانوا يحدثونه فى الروح ، ويبدون شكوكهم حول القيمة التى يتصورها عيسى للروح . .

نظر عيسى حوله ثم انحنى على الأرض ، أمسك بيديه الكريمتين قطعة من الطين هى انا (١) . . ارتفعت عن الأرض للمرة الأولى فى حياتى . . راح عيسى يستمع الى كلماتهم وهو يضغط عليّ . . كنت أحس أن ضغطاته تملؤنى بشىء جديد . . رفع عيسى يده بقطعة الطين وسأل من حوله :

- ما هذه ؟

- قال الناس : هذه قطعة من طين الأرض . .

- سأل عيسى : هل تستطيع هذه القطعة الطينية أن تطير فى السماء ؟

- أجابوا : لا تستطيع !! سألهم لماذا ؟ صمتوا فلم يجيبوا . .

- قال عيسى لأنها تخلو من الروح . . لو صنعت منها طيرا كالبلبل . . لو نفخت فيها سائلا الله أن يولد فيها الروح ألا تطير عندئذ ؟

كان عيسى يتحدث وهو يصنع منى كهيئة الطير حتى اذا ما انتهى نفخ فى جسدى فتحولت الى بلبل . . طرت بعيدا وأنا أنظر الى عيسى والجمع المحتشد حوله . . (٢)

---

(١) هذه القطعة يحكيها أحمد بهجت على لسان طين عيسى - عليه السلام - حكاية طريفة .

(٢) ١٨٨ قصص الحيوان فى القرآن - أحمد بهجت ط١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م دار الشروق .

الغرض البياني والتربـــــــوي

من ذكر طين عيسى - عليه الســـلام - الذى تحول الى طير - باذن اللـــه -

ان خلق عيسى من الطين كهيئة الطير ونفخه فيه فكان طيرا - باذن الله - من خارق المعجزات التى لا يقدر عليها بشر الا باذن الله .

وقد قدر الله - سبحانه - لعيسى هذه المعجزة لأنها تتسق مع مولده - عيسى - ، حيث منحه الوجود والحياة على غير مثال الا مثال آدم - عليه السلام - وحيث أثار مولده الضجة والتساؤل والاستغراب والشكوك فأراد سبحانه أن يبين للناس أن الخلق كله بيده ولا يعجزه خلق عيسى - عليه السلام - من غير أب وها هو الدليل على قدرته سبحانه : يوحى لمن خلقه أن يصنع لهم كهيئة الطير فينفخ فيها باذن الله فتكون طيرا ، جعل هذه المعجزة على يد من يشكون فى خلقه أو مولده من غير أب ليقتنعوا أن من وهبه هذه المعجزة بأن يخلق من الطين كهيئة الطير قادر على أن يهبه الروح من غير أب ، فعيسى خلق من خلقه جعله يخلق طـــيرا باذنه وكأن هذه المعجزة تقول لهم هذا الذى تشكون فى مولده يخلق لكم روحا باذن الله وفوق كل ذى قدرة قدير .

وهكذا كان الغرض البياني والتربوي من ذكر الطير في هذه الآية حيث انه روح كان طينا لا حياة له ولا حراك ثم صار طيرا له روح وحياة وحراك ويطير كباقي الطيور . .

ومعجزة الطين الذي تحول الى طير هي المعجزة التي تتعلق بانشاء الحياة سواء بدء أو بعد أن يموت المرء ويعود لطين الأرض حيث ظن الكثير من الناس ممن لا يؤمنون بالبعث أن المرء اذا مات وخالط الطين فلا يعود للحياة ثانية ومن هنا وردت قصة هذه المعجزة في القرآن ليحكيها محمد صلى الله عليه وسلم للناس فيوقن منكرى البعث بأن الله قادر على بعث الناس من الطين كما قدر على خلق الطير من الطين وجعل له الروح فطار كباقي الطيور وتحقق فيه السر الذي لا نعلم من أين ولا كيف جاء ، السر اللطيف الخافي على الأفهام ليس افهام الناس العاديين فحسب بل وحتى الأنبياء الذين اصطفاهم من خلقه ، بقي ذلك سرا له وحده سبحانه : " ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا " (١) .

كل الذي عرفه عيسى - عليه السلام - ونعرفه نحن البشر أن الحياة التي تنشأ شيء آخر (غير التراب وغير سائر المواد الميته في هذه الأرض شيء زائد . . وشيء مغاير . وشيء ينشيء آثارا وظواهر لا توجد أبدا في التراب ولا في مادة ميتة على الاطلاق) (٢) .

---

(١) ٨٥ ك الاسراء ١٧

(٢) ١٩٠/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

جرت على يده ـ عليه السلام ـ المعجزة وشكل بيده الكريمتين الطين على هيئة طير ونفخ فيه ولكنه لم يكن يعرف كيف ومن أين جاءت الروح فى هذا الطين ولكنه يعلم أنها (باذن الله) أى أن الله هو الذى وهب الطين الروح فصار طيرا أما لم كان الطير هو الذى وقعت فيه المعجزة على يد عيسى ـ عليه السلام ـ ؟

فلأن الطير ـ والله أعلم ـ يطير ويحلق فى السماء فيراه القاصى والدنى ، يرى هذه المعجزة التى وقعت على يد عيسى فلا ينكرها حيث كانوا ينظرون اليه وهو يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا باذن الله . . طيرا يحلق فى السماء ولا ينكره أحد فحركة طير يطير فى السماء لا تنشأ الا عن طائر له روح ولو كان حيوانا لا يطير لما أمكن أن يراه الجميع فى آن واحد لكن الطير له حجم مناسب وقدرة فائقة على الطيران تمكن الناس من رؤيته ، ثم ان الطير خلق من خلق الله معرض لأن تقع فيه المعجزات كما تقع فى غيره فسبحان القادر على كل شىء الذى اذا أراد أمرا قال له : " كن فيكون " دون تعليل أو تبرير .

. . . . . .

*

الملامح البلاغية فى النظم الحكيم

لطير عيسى - عليه السلام -

من الملامح البلاغية فى قول الله تعالى : " ياعيسى ابن مريم " وصف عيسى عليه السلام بأنه ابن مريم ، ولم يكتف النظم الحكيم بنداء عيسى فحسب. وهذا فيما أرى احتراس بليغ لدفع شبهة النصارى حين ادعوا أن عيسى ابن الله .

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وكذلك اعادة الظرف فى " عليك وعلى والدتك " ولم يكتف النظم الحكيم بأن يقول : عليك أنت ووالدتك . وذلك اعتناء باظهار النعمة ، وقدم ضمير عيسى - عليه السلام - " عليك " وعطف عليه والدته لأن الخطاب موجه الى عيسى فهو أولى بالرعاية ، ولأن النعمة فى جانب عيسى أعظم من النعمة فى جانب والدته . فهو رسول من عند الله ، وهى صدّيقه ومقام الرسالة فوق مقام الصديقين فكل رسول صدّيق وليس كل صدّيق رسولا . ثم ابدل من عموم النعمة على عيسى تأييد الله له بروح القدس وتكليمه الناس وهو صغير فى المهد وفى حالة الكهولة والمراد أن كلامه فى الصغر مثل كلامه فى الكهولة مستو فى القوة والحكمة وعطفت جملة " اذ علمتك الكتاب " على " اذ ايدتك " لأنها قسيمتها فى تفصيل الاجمال والاعراب فهى منصوبة بما نصبت به المعطوف عليها . وكذلك ماعطف

بعدها . وقد عاد النظم للاحتراس فى المواضع الحساسة فى خلق الطير من طين ونفخ الروح فيه .

فهذه ليس لعيسى فيها تأثير وانما الخالق والنافخ هو الله وما جرى على يد عيسى - عليه السلام - انما هو معجزات أيد الله بها عيسى . ولهذا قال - سبحانه - عقيب كل منهما : " باذنى " . وفصلت جملة " تكلم الناس " عما قبلها لأنها استئناف مبين لتأييده - عليه السلام - أو هى حال (١) .

هذه فى حال مخاطبة الله عيسى - عليه السلام - وكذلك جاء الاحتراس فيما حكاه القرآن الأمين عن عيسى نفسه وذلك فى قوله تعالى :

" ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله " (٢) .

فقد صرح - عليه السلام - بأنه جاء بنى اسرائيل بآية من ربهم ، ثم فسر هذه الآية بمعجزة الطير والمراد بالخلق هنا : التصوير والتشكيل أما كينونة ما صنعه وصوره على هيئة الطير طيرا بعد النفخ فيه فذلك هو عمل الله وليس عمل عيسى - عليه السلام . وتصوير الطين على هيئة طير لا اعجاز فيه . انما الاعجاز فى بعث الحياة ذلك السر الأبدى الذى لم يطلع عليه أحد من خلق الله فهو الخالق وحده جل جلاله !

---

(١) انظر تفسير ابى السعود ١٤٦/٢

(٢) ٤٩ آل عمران ٣

١٢ - ناقـة اللـــــه

معجزة وآية من الله لسيدنا صالح

عند قومه (ثمـود)

فى قول الله تبارك وتعالى : -

١ - " والى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم مـن اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروهـــا تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون مـــن سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذيـن استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صـــالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين "(١).

---

(١) الأعراف ٧ ٧٣ - ٧٩

وقول الله تبارك وتعالى :

٢ - " كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها "(١)

وقول الله تبارك وتعالى :

٣ - " كذبت ثمود المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ، انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر أن أجرى الا على رب العالمين ، أتتركون فى ما ها هنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله واطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا : انما أنت من المسحرين ، ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم ".(٢)

---

(١) ١١ - ١٦ ك الشمس ٩١

(٢) ١٤١ - ١٥٩ ك الشعراء ٢٦

٤ - وقول الله تبارك وتعالى :

" وما منعنا أن نرسل بالآيات الاّ أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الاّ تخويفا ".(١)

٥ - وقول الله تبارك وتعالى :

" والى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ، قال : ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تحسير ، ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ".(٢)

---

(١) ٥٩ ك الاسراء ١٧

(٢) ٦١ - ٦٨ ك هود ١١

٦ - وقول الله تبارك وتعالى :

" كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا في ضلال وسعر ، ءالقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ، انّا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، انّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر " . (١)

تلك ستة مواضع في خمس سور من القرآن الكريم ورد ذكر (ناقة الله) فيها حيث كانت معجزة لسيدنا صالح - عليه السلام - حين كذبه قومه وآية لهم من الله استحقوا بسببها العذاب والهلاك حين اعتدوا عليها فقد أرسله الله اليهم بعد أن ضلوا الطريق وانحرفوا عن التوحيد انحرفوا بفعل العوامل المتشابكة في تكوين الانسان ذاته وفي العوامل التي يتعامل معها . . لقد كان قبلهم قوم عاد كما يقص علينا القرآن وقبل عاد قوم نوح الى آدم - عليهم السلام - نجد في سورة الأعراف قصص أولئك الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وبيان سوء مصيرهم وما آلت اليه حالهم . في هذه السورة نلتقي بموكب الايمان يرفع أعلامه رسل الله الكرام : نوح . وهود . وصالح . ولوط . وشعيب وموسى . ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - في

---

(١) ٢٣ - ٣١ ك القمر ٥٤

هذه السوره (نشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم - بتوجيه الله وتعليمه - انقاذ الركب البشرى من الهاوية التى يقوده اليها الشيطان وأعوانه من شياطين الأنس المستكبرين عن الحق فى كل زمان ، كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال وبين الحق والباطل وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والانس ثم نشهد مصارع المكذبين فى نهاية كل مرحلة ونجاة المؤمنين بعد الانذار والتذكير)[١] . تلك هى طريقة القصص فى القرآن وان كان لا يتبع دائما ذلك الخط التاريخى ولكننا نراه فى هذه السورة يتبع هذا الخط حيث (يعرض سير الركب البشرى منذ النشأة الأولى ويعرض موكب الايمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماما عن معالم الطريق وقاده الشيطان كلية الى المهلكة ليسلمه فى نهايتها الى الجحيم !)[٢] .

ولكن رحمة الله وسعت كل شىء فكيف بعباده ؟

لقد كانت رحمته بهم دائمة على مدار تاريخهم البشرى - بالرغم من جحودهم وكفرهم به - حيث ينقذهم بارسال الرسل مبشرين ومنذرين كلما أشرفوا على الهلاك بانحرافهم عن التوحيد الذى هو دين الفطرة والذى يتركهم عليه رسولهم الذى أرسل لمن قبلهم .. انها سنة الله

---

(١) ٨/١٩٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) ص ١٩٩ المصدر السابق .

فى خلقه طريق خير وطريق شر وأنصار للخير وأنصار للشر على مدار تاريخ البشرية ، ولكن الطريق المؤدى الى الجنان والى رضوان الله الواحد المنان هو الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه طريق واحد لا محيد عنه ، ينير هذا الطريق تلك الرسالات بنور من عند الله وتعود هم اليه أولئك الرسل الذين يختارهم الله من بين أقوامهم لعلمه أنهم يريدون أن يسلكوا ذلك الطريق فيهيئ نفوسهم لحمل رسالته ويطهر قلوبهم ويمدهم بالعون والقوة من عنده ويجعلهم قادة يقودون الأمة على هدى وبصيره من ربهم ، أما من غضب الله عليه لعلمه بخبث نفسه فيضله عن ذلك الطريق ويجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يتصعد الى السماء من دعوة نبيه له فيؤثر الطريق الآخر ، طريق الظلام ، طريق الشر ، طريق الشيطان حيث يناديه الشيطان ويأخذ بيديه ويقوده فيه كما يقود المبصر الأعمى ويقنعه بوسوسته له انه أوفى صديق له وأطيب قرين ، ويؤكد له بأنه على حق وان هناك نهاية رائعة تنتظره ويجب أن يسلك طريق الشر (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) لأن وظيفته فى الأرض - بعد أن غضب الله عليه - أن يضل الانسان ضلالا بعيدا حتى يوصله الى الجحيم ويسلمه الى خزنتها حيث لا مفر ولا طريق آخر يسلكه للفرار فيقول له مودعا اياه : (انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين) ولم أتّبعتنى وتجاهلت عن

حقيقتى حيث أطلعك عليها رب العالمين : (وكان الشيطان للانسان خذولا) هكذا يغفل الانسان المسكين عن حقيقة الشيطان وطبيعة صداقته كما فعلت ثمود حيث جعلوه قائدهم وانصاعوا لوساوسه فخذلهم فى الدنيا قبل الآخرة حيث زلزلت بهم الأرض وأتتهم صيحة من السماء قطعت قلوبهم فهلكوا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . .

لقد نشأ بنو آدم الأوائل موحدين لرب العالمين - كما كانت عقيدة آدم وزوجه - ثم انحرفوا ، ثم جاء نوح - عليه السلام - فدعاهم الى توحيد رب العالمين بقوله : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) ولكنهم رفضوا الانقاذ وأبوا الا أن يغرقوا أنفسهم فى الشرك والضلال ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فأغرقهم بذنوبهم فى الطوفان ونجّا الله نبيه والذين آمنوا معه وعمرت الأرض بهؤلاء المؤمنين الموحدين لرب العالمين حتى اذا انتهى أجل نوح فيهم وطال عليهم الأمد انحرفوا كما انحرف من كان قبلهم فجاءتهم الرحمة من عند الله جاءهم هود بقوله : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) مرسل من عند ربه فكذبوه ولم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا فى هذا الطريق فيضيف هود لهم فى خطابه " أفلا تتقون " استنكارا لقلة خوفهم

من الله ومن ذلك المصير المرهوب وتذكيرا لهم بتقوى الله ولكنهم يأبون الا أن يحل بهم ما حل بمن سبقهم لتكذيبهم بنبيهم ويأتيهم العذاب والرجس والغضب ويقطع الله دابرهم كما قال سبحانه : (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين) وتمضى عجلة التاريخ فيخلفهم " ثمود " قوم صالح - عليه السلام ويطول عليهم الأمر فينحرفوا كسابقيهم ولكن رحمة الله وسعت كل شيء فيسعفهم بها ويهيئ لهم الفرصة ليغتسلوا من ذنوبهم ويتطهروا من رجسهم فيرسل لهم صالحا - عليه السلام - نبيا بقوله : " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " عودوا الى الطريق المستقيم طريق رب العالمين الذى دعى اليه من كان قبلكم وسيكون لمن بعدكم الطريق الوحيد الذى يسلك بهم الى الجنان والروح والريحان فيجدوا ربا غير غضبان يكلأهم بالرحمة والرضوان . ولكن !!

هيهات هيهات لأولئك القوم أن يستمعوا وينصاعوا لأمر الله فقد قست قلوبهم وعميت أبصارهم بل قلوبهم فانها لا تعمى الأبصار فى مثل هذه الأحوال ولكن تعمى القلوب . ويأبوا الا أن يكونوا صفحة أخرى سوداء من صحائف قصة البشرية صفحة نشهد فيها نكسة أخرى الى الجاهلية ، نشهد فيها اللقاء بين الحق والباطل ، نشهد فيها مشهد رائع تهتز له الأبدان وترتجف له القلوب المؤمنة من خشية الله ، نشهد مصرع

طاغوت الباطل من الرجفة التى أخذتهم فاذا هم (جاثمون) فى دارهم لا حراك لهم ولا حياة بل هلاك وعذاب ودمار وفناء !!

ذلك أن هؤلاء القوم زادوا على معصية الله بانحرافهم عن طريق الحق وعبادتهم غير الله بأن عبدوا الأصنام زادوا على كل ذلك معصية أخرى معصية تقشعر لها الأبدان وتوجل لها القلوب ، معصية لم يرتكبها من كان قبلهم رغم ما كان بهم من فساد فى العقيدة وغيرها ، معصية استحق من ارتكبها بأن يكون " أشقى الأولين " ترى ما هى هذه المعصية؟ وفيما كانت هذه المعصية ؟ حتى نالوا بسببها كل ذلك العذاب ؟ انها التعدى على حدود الله .. التعدى على آية الله التى بينها لهم .

وهذا يقودنا الى سؤال آخر : ما هى آية الله التى نالوا بسببها الرجفة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ؟

انها " ناقة الله " التى كانت معصيتهم فيها سببا فى الرجفة التى أصابتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين وتفصيل ذلك كما رواه المفسرون هو :

(ان عادا لما اهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا ، حتى ان الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته ، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش

فعتوا على الله وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله تعالى اليهم صالحا - عليه السلام - ، وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا ، فدعاهم الى الله تعالى فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم فى السنة ، فتدعو الهك وندعو آلهتنا ، فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا ، فقال لهم صالح نعم ، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم جندع بن عمر وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة : أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ، والمخترجه التى شاكلت النعت ، فان فعلت صدقناك واجبناك ، فأخذ صالح - عليه السلام - عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن ؟ قالوا : نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم نساس من رؤوسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعه

حتى تشرب كل ماء فيها ، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون . قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا ، وكانت الناقة اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم فتهبط الى بطنه ، واذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزه أم غنم وصدقة بنت المختار لما اضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى ، فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا ، وكان صالح قال لهم : ادركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه ، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فانجاه الله الى أرض فلسطين ، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا)[1] .

تلك هى خلاصة القصة التى رواها معظم المفسرين[2] فى هلاك ثمود

---

(١) ٢/٨٩ - ٩٠ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

(٢) ص ٢٤١ - ٢٤٢ - تفسير ابى السعود المجلد ٢ ، وانظر ص ٢٨-٢٦ من قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت حيث جعل (ناقة صالح) تقص قصتها بنفسها .

وسبب هلاكهم وان اختلفوا بعض الشيء في الطريقة والأسلوب الا أن المضمون واحد ، فقد عرفنا المعصية التي ارتكبها القوم زيادة على كفرهم بالله ، عرفنا أنهم تعدوا على ناقة الله التي جعلها الله لهم آية (فعقروها) !!

اذا فقصتهم هنا تزيد على أمثالهم - ممن سبقهم وممن أتى بعدهم - بتلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح - عليه السلام - حين طلبها قومه للتصديق ، وتلك هي - المعجزة - محور بحثنا وما نريد القاء الضوء عليه مستعينين في ذلك بنور القرآن الذي يجلي الحقائق ويوضح الأمور فحيث نريد أن نلقي الأضواء على بعض النقاط فيه اذا به يملأ قلوبنا قبل أبصارنا نورا فما أحرانا أن نتبعه لأنه القول الفصل لهذا لا نريد أن نبتعد كثيرا عن ظلاله لئلا نبتعد عن الغرض الذي نرمي اليه ألا وهو : القاء الأضواء على (الحيوان في القرآن) فلنعد الى قصة الناقه المعجزة أو (ناقة الله) ، لنعيشها من خلال القرآن والآيات الست التي وردت في خمس سور منه ونربط بين أجزائها لنحصل على أحداث القصة متكاملة في ظلال القرآن ونفحاته العطرة ، وأسلوبه الرائع في سرد القصص وعباراته البليغه في التعبير عن الأحداث، لنرى كل ذلك وأكثر من ذلك في كلام الله وان عجزت أقلامنا عن

التعليق والتفصيل فى المعجزة فالمعجزة أكبر وأعظم من أن نحيطها بأقلامنا - وفى نظرى أنها أعظم معجزة حدثت فى الحيوانات التى ورد ذكرها فى القرآن - ولكن ما نرمى اليه هو معرفة تلك المعجزة باعتبار أنها من الحيوانات التى ورد ذكرها فى القرآن ثم معرفة الغرض من ذكر هذه المعجزة أو (ناقة الله) فلنستمع الى قول الله وهو يقص علينا تلك القصة ، يقص الحق وهو خير الفاصلين :

" والى ثمود أخاهم صالحا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) .

لقد جاء سرد قصة (ثمود) قوم سيدنا صالح فى مجال سرد القرآن لقصص الأقوام السابقة على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - باعتبار أنهم حلقة من تاريخ البشرية وصفحة من صفحاتها ، ولكن الهدف من ذكرهم وذكر غيرهم من الأقوام التى كانت حلقات من تاريخ البشرية يختلف حسب موضع الذكر فى السورة : فان كان فى مجال الترويح عن الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - يسرد النقاط التى تبين جحود تلك الأقوام بتكذيبهم لأنبيائهم وايذائهم لهم ليكون فى ذلك تعزية له فى قومه وتثبيت له - صلى الله عليه وسلم - حيث يعلمه

أنه كان فيمن قبلهم من هم على شاكلتهم أو أكثر عتوا : (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم) ، وان كان في مجال الانذار من عذاب الله والتخويف من نقمته - سبحانه - وبيان قدرته على اهلاك القرى فان السياق يتحرى مصارع المكذبين وتدميرهم ، وهكذا كان السياق في قصة ثمود في سورة الأعراف متناسقا مع ما جاء في أول السورة : " وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون " وقصة ثمود - سواء تلك التي جاءت في سورة الأعراف أو في غيرها من السور ، وكذلك غيرها من القصص في هذا المجال - انما هي تفصيل لهذا الاجمال في اهلاك القرى التي كذبت بالنذر تفصيلا يتمشى مع ظلال السياق التي جاءت فيه . . . تلك هي طريقة القرآن .

ولنشاهد تلك المشاهد التي يعرضها القرآن لقصة (ثمود) حيث غضب الله عليهم لتكذيبهم نبيهم بعقرهم (ناقة الله) معجزة الله وتعديهم على حدوده ، وذلك في السور التي ورد ذكر القصة فيها :

(والى ثمود أخاهم صالحا) عطف على ما سبق من قوله تعالى : (والى عاد أخاهم هودا) موافق له في تقديم المجرور على المنصوب . واسم (ثمود) قرئ بمنع الصرف (والى ثمود) بتأويل القبيله ، وقرئ بالصرف (والى ثمود) بتأويل الحي أو باعتبار الأصل لأنه

اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح . وقيل سميت (ثمود) لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل ، ولكن الأرجح أنها سميت (ثمود) نسبة الى اسم أبيهم الأكبر وكانت مساكنهم الحجر بين الشأم والحجاز الى وادى القرى (١) . وسبب تسميتها بهذا الاسم (ثمود) ليس مهما ولكن هناك شيء أهم نريد أن نعرفه عن (ثمود) فقد ذكرها الله فى القرآن فهذا يعنى أنها وجدت فى التاريخ البشرى ثم ذكر القرآن أنها بعد (قوم هود) وهذا يكفينا من حيث هم قوم وجدوا فى تلك الحقبة من التاريخ البشرى وأرسل لهم نبيا اسمه صالح . وقد عبر القرآن عن الرابطة القوية والعلاقة الوثيقة التى كانت تربط صالح بقومه حين اختاره سبحانه من بينهم نبيا لهم بقوله (أخوهم) وهذه الأخوة اما أن تكون تعنى الأخوة فى النسب حيث ان صالحا يرجع نسبه الى ثمود الأب الأكبر فهو (صالح بن عبيد بن آسف بن باسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود) أو ان هذه الأخوه تعبر عن الحب الذى كان يكنه قومه له حيث كان واحدا منهم عزيز الجانب فيهم ومن أوسطهم نسبا ، وهو فى الحالتين تعبير جميل رقيق يبعث فى النفس المحبه والمودة .

---

(١) ٢/٨٩ الكشاف للزمخشرى بتصرف - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م
(٢) ٣/٢٤١ تفسير ابى السعود - المجلد ٢

وقد كان صالح مهيأ لحمل الرسالة ذلك أن قومه كانوا يعبدون الأصنام و (لم يكن المجتمع كله منغمسا فى هذه الخطيئة المروعة . كان هناك من يرحل بعقله فى الكون حوله ويعود مؤمنا بالله . . . ولكن الأغلبية كانت قد انجرفت الى عبادة المصالح الخاصة والذهب وكل أوثان النفس ورغباتها التى لا تحد . . . ثم شاء الله تعالى أن يبعث نبيا الى ثمود . . اصطفى منهم أكثرهم توحيدا ونقاء وصلاحا وبعثه الى قومه)(١) وهو صالح ولعل هذا هو التأهيل لحمل الرسالة ولعل اسمه هو العلم الذى يحمل حقيقة جوهره . . كان صالحا واسمه صالح .

" قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " نفس الرسالة ونفس المضمون الذى حمله صالح - عليه السلام - حمله قبله وبعده أنبياء الله الذين أرسلهم الى عباده ، رسالة تتضمن كلمة لا محيد عنها ولا تبديل لها فاما اتباعها أو الهلاك والفناء بأى لون يحبون أو يكرهون ، ذلك أن هذه الكلمة : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) هى قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد الا بها وهى عماد الحياة الانسانية الذى لا تقوم على غيره ، وهى ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط وهى الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم

---

(١) ص ٣٠ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت

من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد (١) .

أرسل الله صالحا الى ثمود بتلك الرسالة لتزيل عن أعينهم الغشاوة بل العمى ، ليعلمهم بأن ما ذهبوا اليه من عبادة الأصنام وغيرها ما هى الا عبادة باطلة فليس لهم من اله غيره ، هو وحده المستحق للعباده ، هو وحده الذى يجب أن يتوجهوا اليه فى عباداتهم (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) وهو جواب عنه بطريق الاستئناف حيث أن الأخبار بارساله - عليه السلام - اليهم مظنه لأن يسأل ويقال فماذا قال لهم فقيل جوابا عنه بطريق الاستئناف : (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) . والدليل على صدق نبوتى وانى مرسل من عند الله هو أنها (قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) (٢) . وفى سورة هود (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) (٣) . ونأتى الى مطلبنا فى بحثنا : (الناقه) التى كانت بينة من الله ولهذا شرفها الله باضافة اسمها الى اسمه الجليل (ناقة الله) وهذا هو اسمها فى كتاب الله أى أنها لم تذكر باضافة اسمها الى اسم

---

(١) ٨/٢٠٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) ٧٣ك الأعراف ٧

(٣) ٦٤ ك هود ١١

صالح فلم يقل ناقة صالح وانما قال : (ناقة الله) أما باضافتها الى اسم صالح فهذا هو اسمها فى التاريخ البشرى وسر اضافتها الى الله أنه هو وحده الذى جعلها آية وليس صالحا عليه السلام . وانما يقنعهم صالح بأن دعوته الى الله صادقة وهى الدعوة الواجب اتباعها بدليل ما يمكن أن يفعله من يدعو اليه وهو (الله) جل جلاله ، لقد أرسل لهم بينة دليلا على صدق نبوة صالح والبينة هى : الآية الظاهرة المحسوسة والشاهد الذى لا يقبل الشبك . . ما هى هذه البينة ؟ انها المعجزة . . انها (ناقة الله) : (ناقة الله لكم آية) ولما كان السياق (يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ، ولعاقبة الايمان بها وعاقبة التكذيب ، لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة وكذلك لا يذكر تفصيلا عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم وأنها ناقة الله وفيها آية منه . ومن هذا الاسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية أو أنها أخرجت لهم اخراجا غير عادى . مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها الى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوته)[1] . وهى فى الوقت نفسه تخويف لهم لعلها تلين قلوبهم المتحجرة وتريهم الطريق الصحيح

---

(١) ٨/٢١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

فيؤمنوا بالله واحدا أحدا ، وذلك ان هذه الآية (ناقة الله) آيـــة عظيمة ، خارقة يجب أن تحدث المطلوب - الايمان بالله - خارقة صاحبت رسالة صالح لتخويفهم من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب فيؤمنوا أو يصدقوه ولكونها (آية عظيمة) - أرسلت لثمود ليؤمنوا بالله فكذبوا ولم تنفع معهم الخارقه الا أنها زادتهم اثما على كفرهم فكانت النهايـــة لهم والحكم عليهم بالعذاب - فقد ضرب الله بها المثل حين بين سبحانه السبب فى عدم اصطحاب رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتـــم الأنبياء بالخوارق حيث لا نفع من الخوارق مع القلوب المتحجرة فقـــال سبحانه : (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولـــون . وآتينا ثمود الناقه مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات الا تخويفـــا) (١)

فلعلمه سبحانه بذلك - عدم ايمانهم بالخوارق - لم يصحب دعوته - صلى الله عليه وسلم بـ بخارقة حتى لا يستأصل قومه - صلى الله عليه وسلم - : (قريش) كما استأصل غيرها ممن سبقها حيث أن من عادة الله فـــى الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب اليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال ثم ان الخارقه المادية تخاطب جيلا واحدا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل لذا فقد اقتضت حكمة الله أن تكـــون

---

(١) ٥٩ ك الاسراء ١٧

معجزة الاسلام هى القرآن حيث جعله منهجا كاملا للحياة الى يوم القيامة ، صالح لكل زمان ومكان ، يخاطب الفكر والقلب ويحترم ادراك الانسان الذى تتميز به بشريته والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه ويلبى الفطره القويمه ، ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعه تقرؤه وتؤمن به على مر العصور ، لكن قريش لم يكفها هذا الكتاب المعجز ، لم يكفها ما جاء فيه ، فأبوا الا كفورا : (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) اقترحوا كل هذه الآيات وأكثر اقترحوا أن تنقلب الصفا ذهبا واقترحوا احياء الموتى الى غير ما هنالك ولكن الله لم يجب طلباتهم ولم يلبى اقتراحاتهم وأخّر أمرهم الى يوم القيامه لعلمه - سبحانه - بأنهم لن يؤمنوا لو أتاهم بتلك الآيات التى طلبوها وسيقولون هذا سحر مبين كما قالوا فى مواضع أخرى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - واذا لم يؤمنوا فلا مفر من عذاب الله والقضاء عليهم كالأمم السابقه بأى لون من العذاب

المهلك فهذه هى سنة الله التى جرت فى الأمم السابقه - فى حالة طلبهم الآيات اما الايمان بها أو الهلاك - ولما أراد الله سبحانه أن تكون رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - هى خاتمة الرسالات ولعلمه سبحانه - أنه سيأتى من الناس من يكون أشد صلاحا وتقوى فقد أخر أمر الكافرين الى يوم القيامة ولم يقض عليهم بالعذاب المهلك ولو أراد أن يأتى لهم بالآيات التى طلبوها لم يعجزه ذلك وأكثر من ذلك وفوق ما يتصورون وهل يعجز من خلق الذهب فى الأرض مثلا أن يقلب الصفا ذهبا ؟ ولكنها رحمته سبحانه بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - : " وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ". وقد ضرب الله لهم المثل بثمود اعلاما لهم بأنه كان فى الأمم الغابره من هم على شاكلتهم ممن طبع على قلوبهم حيث أرسل لهم الآيات فكذبوها : (وآتينا ثمود الناقه مبصرة) وجملة (وآتينا ثمود الناقه) عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتيناهم باقتراحهم ثمود الناقه . وكلمة (مبصرة) على صيغة اسم الفاعل أى بينة ذات أبصار . أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم

ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول وبفتح العين والصاد وهى نصب على الحاليه وقرئ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف .(١)

ولكن .. كيف كانت هذه الآية (ناقة الله) ما هى الصفات التى جعلتها خارقه للعادة ؟

لم يذكر السياق صفة لهذه الناقه التى أشار اليها صالح لتكون آية لهم وعلامة سوى أنه أضافها الى الله (هذه ناقة الله) ثم خصصها بأنها لثمود (لكم آية) .. هذا كل ما ذكره القرآن بشأن الناقه : -

١ - ناقة الله .

٢ - لثمود آية .

وفى هذه الاضافة ثم التخصيص ما يشير الى أنها كانت ناقة غير عادية ، ناقة ذات صفة خاصة مميزه يعلمون بها أنها آية لهم من الله (ونكتفى بهذا دون الخوض فى ذلك الخضم من الأساطير والاسرائيليات التى تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجئ)(٢) ، اذ لا يحق لنا الجزم بأن تلك الناقة قد خرجت من الصخر أى ولدت من أحضان الجبل وأنها كانت جزء من الصخور وأنها ولدت وليدا بعد

---

(١) ص ١٨١ تفسير أبى السعود المجلد ٣ جـ ٥

(٢) ١٢/٥٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

خروجها من الصخر بثلاثة أيام حيث لا دليل لكل ذلك وغيره مما ذكر بهذا الخصوص لا دليل من القرآن ، لم يذكر السياق القرآنى - فى الست آيات التى ذكرت الناقة فيها من الخمس سور - هذه الزيادات ولم يشير اليها أى اشارة فى القرآن كله لذا فلابد لنا من أن نقف فى حدود ما ذكر وفى ظلال الآيات التى ذكرت الناقه مع ايماننا الشديد والعميق من أن تلك الناقه كانت غير عادية أى أن الله - سبحانه - قد أخرجها لهم اخراجا غير عادى - كما سبق القول - والا لما كانت آية .. ولا بأس علينا أن نستلهم بعد وصف القرآن لها الرمز الذى ترمز اليه حسب ما يراه كل واحد منا .. فمن الناس من يرى أنها كانت رمزا للبراءه حيث يجعلها تقص حكايتها بنفسها : (لست غير محض لا يعرف الشرور . براءة البراءة .. هذه أنا لم أوذ أحدا قبل أن أولد ولم أوذ أحدا بعد أن ولدت . ورغم ذلك أدركنى الذبح بدون أى ذنب جنيت .. رغم تحذير الله لمن يفعل ذلك . رغم هذا ذبحت ، كان معنى ذبحى بشبه معنى ذبح البراءة على هذه الأرض .. وربما كان ذبحى هو بداية القانون الذى يحمى الخير أن يقدم دمه على مذبح الحياه) (١) .

---

(١) ص ٢٨ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت ط ١ .

ومن الناس من يراها (رمزا للأمة التى تلحقها الضراوة والكفر وأشباهها من الصفات ، بمن تقتحم نزعاته على الحقيقة الالهية وتلتبس عنده معانى الأشياء .. وليس فى قصة الناقة اذا هى أخذت من هذا المعنى ما يدعو الى المكابرة فى تفاصيلها على ما سبقت فى كتب التاريخ والآثار . فالعبرة فى مثلها ليست بالحقائق التجريبية بل فى رمزيتها الكلية التى تحتمل ما كان فيها من تسليم .

وأكرر وأوكد فى هذه النقطة أننا نؤمن كل الايمان أن هذه الناقة التى أرسلها الله لثمود قوم صالح - سواء كان ارسالها لهم بناء على طلبهم حيث كانوا يريدون اعجاز صالح عليه السلام فقالوا له : (فأت بآية ان كنت من الصادقين) ، أم كانت مرسلة من عند الله بغير طلب منهم أرادها سبحانه أن تكون لهم آية وفتنة - كانت ناقة غير عادية كانت ناقة خارقة والا لما أضاف الله جل جلاله اسمها الى اسمه الشريف ولما خصصها لهم بقوله (لكم آية) لو كانت ناقة كأى ناقة يرونها ويرعونها ويشربون لبنها لما كان فى الأمر شىء فالنوق جميعها من خلق الله ، لو كانت كذلك لما أنذرهم الله بالهلاك لو مسوها بسوء ولكن هذه ناقة غير عادية (ناقة الله) .. ولكن ..

---

(١) ص ٢٤٧ - ٢٤٨ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب - د. نجيب البهبيتى - ط ١

كيف كانت غير عادية ، هل كونها خارقة لأنها ولدت من صخرة ثم ولدت وليدها بعد ثلاثة أيام ؟

هذا ما لا علم لنا به من القرآن . . . لم يطلعنا عليه القرآن اذا كان صحيحا أم غير صحيح والله وحده أعلم بذلك ، فاذا أردنا أن يكون بحثنا نزيها متتبعا لما ورد ذكره من الحيوان - وما يتعلق به - في القرآن فيجب أن نعيش في ظلال القرآن وألا نجزم بكل ما يرد ذكره من غير القرآن - اللهم الا أن يكون حديثا صحيحا عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيجب أن نصدقه لأن الضابط فيه أنه - صلى الله عليه وسلم - لا ينطق عن الهوى ، أما ما عدا ذلك من أقوال المفسرين فليست مفصلة لما ورد ذكره في القرآن وانما هي مفسرة له ، والتفسير للقرآن يجب أن يكون في ظلال ما جاء في القرآن أولا ثم السنة الصحيحة - المصدر الثاني - ثانيا ، أما التفاسير التي تقوم على المأثور من التاريخ البشري أو ما الى ذلك من الاسرائيليات وغيرها فلا يؤخذ بها أخذا جازما . .

ولنعد الى قصة (ناقة الله) لنعيش بقية أجزائها في ظلال القرآن :

لقد عرفنا أنها (آية) أرسلها الله لثمود قوم صالح : (قال يا قوم هذه ناقة الله) وما دامت أنها (ناقة الله) وما دام أن الله سبحانه أضاف اسمها الى اسمه الشريف فمن الطبيعي أن تكون لها حرمة ، وقد

أكد الله سبحانه على هذه الحرمه لعلمه بما يكنه هؤلاء القوم من مواربه وما يضمرونه من كفر وعناد فلا تكون لهم حجة بعد هذا التحذير اذا هم تعدوا على حرمة الله فجاء هذا التأكيد تحذيرا واضحا صريحا حيث قال في سورة الأعراف (هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) وفي سورة هود : (هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) هذه هي آية الله لها حدود وحرمة اكتسبتها من اضافتها الى اسم الجلالة ، وهذا هو التحذير لمن يمسها بسوء (عذاب أليم) و (عذاب قريب) وفي سورة الشعراء عذاب يوم عظيم) .

فقوله (فذروها) أي اتركوها وشأنها فهو تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فان ذلك مما يوجب عدم التعرض لها والاّ فسيعاجلكم العذاب ، ويناسب هذه المعاجلة ويدل عليها فاء الترتيب في العبارة (فيأخذكم) ثم لفظ قريب (عذاب قريب) .

لم يشأ الله أن يأخذهم بغتة دون نذير حينما كفروا به فكذبوا برسالة نبيه صالح الذي أرسله اليهم وكان منطقهم منطقا معكوسا حيث كانوا يحبون صالح وكان مرجوا فيهم قبل أن يبعثه الله نبيا اليهم فلما بعثه الله اليهم كذبوه وقالوا كيف يكون بشرا من بيننا نبيا ولو كانت

هناك معجزة خارقه لصد قوه (فأت بآية ان كنت من الصادقين) (١) .

لقد كان تكذيبهم له كافيا لأن ينزل بهم العذاب ، لكنه أراد سبحانه أن يتيح لهم فرصة يتطهروا بها من ذنوبهم فيعفوا عنهم فهو العفو الغفور فأرسل لهم آية من عنده بلا أسباب معهوده ووسايط معتاده ليصدقوا رسوله ، وكانت هذه الآية هى الحد الفاصل بين الايمان والكفر بالنسبة لهم ،فاذا صدقوا برسالة صالح يجب أن يحترموا هذه الآية أما اذا لم يصدقوه فانها - الآية - معرضه لأن يفعلوا بها ما تسول لهم أنفسهم ، ولذلك أنذرهم الله تعالى بالعذاب اذا هم مسوا هذه الآية بسوء ليس عذابا فحسب وانما وصفه لهم - ليوقظ قلوبهم وينبه عقولهم - بأنه عذاب أليم أى شديد هو أقصى أنواع العذاب ثم وصفه لهم مرة ثانية بأنه (قريب) (عذاب قريب) لا يترككم تتمتعون كما تشاءون ، فيجب أن تتيقنوا أنه بمجرد مسكم الناقه بسوء سيقع عليكم العذاب لأن مسكم لها بسوء معناه أنكم لا زلتم على كفركم وتريدون أن تحاربوا الله بالتعدى على آيته لذا فسيقع عليكم العذاب يأخذكم أخذا بحركه أشد من المس أو الوقوع. ومرة ثالثه بأنه (عذاب يوم عظيم) :

---

(١) ١٥٤ ك الشعراء ٢٦

(ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١)) وكان بامكانهم أن يدرأوا عن أنفسهم ذلك العذاب بأنواعه المذكوره لهم لو كان لديهم الاستعداد للايمان بالله لو تركوا قلوبهم مفتوحه لشعروا بمدى الألم من عذاب الله ولخافوا منه وذلك بأن يتركوا (ناقة الله) آية الله وشأنها ، يتركونها ترعى فى أرض الله وتشرب ما قسم الله لها من الماء حيث قال لهم (فذروها تأكل فى أرض الله) وقال لهم : (ناقة الله وسقياها) لا تمنعوها من السقيا حيث قسّم الماء بينهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم وفى يوم شربها يحلبونها فيشربون لبنها بدلا من الماء فلا غضاضه عليهم ولا ظلم لهم من تلك القسمة (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (٢)) .

ما أسهله من عمل لو كانوا يؤمنون بأن تلك الأرض هى أرض الله وأنهم هم أنفسهم يأكلون منها بمشيئة الله بما ينبت لهم فيها وما ينبت لمواشيهم ، وان الماء من عند الله يرسله عليهم متى أراد ويمنعه عنهم متى أراد . لقد أراد الله أن ينبه عقولهم المتحجره ويكشف لهم تلك الحقيقة ويفهمهم أن الأرض ليست ملكا لهم وانما هى أرض الله (فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء) وتنكير (السوء) مبالغة فى النهى أى لا تتعرضوا لها بشىء مما يسوءها أصلا لا تطردوها ولا ترهبوها بشىء من الأذى عندما تريد أن تأكل أو تشرب اكراما لآية الله . . ولكن هيهات لهم ذلك وقد

---

(١) ١٥٦ ك سورة الشعراء ٢٦

(٢) ١٥٥ ك سورة الشعراء ٢٦

ذكر المفسرون (١) الأسباب التى دعتهم الى التضجر منها وعدم تركها تأكل فى أرض الله وتشرب كما قسّم الله شربها والعزم على قتلها ، وهى أن هذه الناقه مكثت (مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تتفحج (٢) فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون . قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقه فوجدته ستين ذراعا ، وكانت الناقه اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم فتهبط الى بطنه ، واذا وقع البرد تشتت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره ، فشق ذلك عليهم) .

ولا معنى لذلك الا تفجر الأزمة التى تفيض فيها الروايات وتنطلق فى احداها الناقه اذ كانت تقول اذا أصبحت : الهى كل من شرب من لبنى وآمن بك وبرسولك فزده ايمانا ويقينا ، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فاجعل ما يشرب من لبنى فى بطنه داء لا دواء ، انك على كل شىء قدير . قالوا فلما كانت تدعو بذلك صار القوم اذا شربوا لبنها اعترتهم الحكّة فى أبدانهم ، فاجتمعوا وقالوا ليس لنا فى هذه من خير واجمعوا على عقرها (٣) .

---

(١) الزمخشرى / الكشاف ص ٨٩ - ٩٠ جـ ٢ الطبعة الأخيرة
أبو السعود / فى تفسير ابى السعود ٢٤١ المجلد ٢ جـ ٣

(٢) الفحج تباعد ما بين الفخذين .

(٣) ص ١٥٥ - ١٥٦ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء د . لطفى عبد البديع ط ١ ١٩٧٦ م .

اذن فالعوامل الرئيسية التى جعلتهم يعزمون على قتل الناقه هى :

١ - خوفهم على مواشيهم فى المرعى وفى كونها تخرج ظهر الوادى فى الشتاء وتأتى الى ظهر الوادى فى الصيف هروبا من الناقة على زعمهم بينما كانوا يريدون أن تكون مواشيهم فى بطن الوادى شتاء وعلى ظهر الوادى صيفا .

٢ - الضيق الذى فى نفوسهم لعدم ايمانهم بالله انعكس على تصرفهم مع الناقه حيث ضاقوا بها ذرعا لكونها تشرب الماء الذى قسمه الله لها فى يومها مع أنها تخرجه لهم لبنا سائغا يشربون منه ويملأون أوانيهم ويصنعون منه ماشاؤا ويدخرون ماشاؤا الى اليوم الثانى حيث يكون شربهم . .

تلك هى العوامل التى جعلتهم يعزموا على قتل الناقه ولو أدركوا ما يترتب على انتقامهم من الناقه وعزمهم على مسها بسوء لتحملوا أضعاف الأضعاف من أمثال تلك العوامل وأكبر منها ولكن السواد الذى امتلأت به نفوسهم والكفر الذى تنطوى عليه قلوبهم حجب عنهم كل نور وجعلهم يتخبطون بتصرفاتهم فى الظلام والسواد الذى تكنه نفوسهم . .

(أرسل كبير الملأ الى كل ثمود ورؤسائهم . . ودخلوا صالة متسعه فى قصره وبدأ اجتماع تاريخى . . كان الحاضرون جميعا لا يؤمنون بصالح . .

قال رئيس القوم : ان وجود ناقه ترعى بحريتها قد نزع كل سلطان لنا على الموقف فى القبيله . وافقه الحاضرون على رأيه . . عاد أحدهم يقول : ان وجود الناقه تذكير مستمر للناس بآية الله وتصديق دائم بنوبة صالح ، استلقى السؤال أمامهم : ما هو الحل ؟

قال أشدهم قسوة : يجب التخلص من الناقة .

تم الوصول الى قرار . . كان القرار هو الذبح . . فى البداية فزع الحاضرون من فكرة الذبح وقالوا ان صالحا حذر من لمس الناقه بقصد ايذائها . . وحذر من ذبحها . وحذر من أى مساس بها وتوعد من يفعل ذلك بعذاب رهيب يحل بعد ثلاثة أيام . . وأعياهم الوصول الى حل . .

وأديرت كؤوس الخمر عليهم وشعشع الشراب فتخلوا عن مخاوفهم وقال قائدهم : ليس هناك حل غير ذبح الناقة ، ان وجودها يهدد النظام الحاكم كله . . بما فيه من شيوخ للقبيلة ورؤساء وأغنياء لهم مصالح . . ان المجتمع كله مهدد بسبب هذه الناقة . . مضى القوم يدورون حول هذه النقطة ، ومضت كؤوس الخمر تدور عليهم ، ومضت عقولهم تدور هى الأخرى . . بعد ساعات من حديثهم تحول المؤتمر الى مؤامرة . . وانخرط جميع الجالسين فى التدبير لهذه الجريمة . . بعد أن كان السؤال :

ماذا نفعل بالناقه . . صار السؤال : كيف نقتل الناقه . . ثم تطور الى الشكل التالى : من الذى نكلفه بقتل الناقه ؟

وراح التدبير ينسج نفسه من أعمق أعماق الشرور الانسانية . . انتهى الأمر وتم اتفاق الملأ مع تسعة من كبار المجرمين فى المدينة . . كان هؤلاء هم أداة الجريمة . . أما المنفذ فكان رجلا أشير اليه بوصفه "صاحبهم" (١) . قال تعالى : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر) (٢) (٣) .

وقد ذكرت كتب التفاسير أن أسمه كان (قدار بن سالف) وأنه أشقى الأولين .

روى أنه ولد على فراش سالف ولم يكن من ظهره فتجمعت فيه كل الصفات الذميمه وهو (أقبح رجل فى ثمود ، فى عينيه زرقه وكأنهما عدستان وأنفه أفطس ولحيته بطوله ، وكأن قبحه هو الذى أهله لأن ينهض بأقبح رسالة فى التاريخ حين (تعاطى فعقر) (٤) . وقد زينت له

---

(١) ص ٣٤ - ٣٦ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت ط١

(٢) وتعاطى : أى (اجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقه ، وقيل فتعاطى الناقه فعقرها أو فتعاطى السيف - ص٤٠ الكشاف للزمخشرى جـ ٤ الطبعة الأخيرة ، وقيل أن معنى تعاطى (أى قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها - ١٤٨ عبقرية العربية د . لطفى عبد البديع . أما العقر فلا يكون الا فى القوائم ، قال الأزهرى : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقرا لأن ناحر الابل يعقرها ثم ينحرها .

(٣) ٢٩ - ٣٠ ك القمر ٥٤

(٤) ص ١٥٦ - عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب د . لطفى عبد البديع ط ١

لهذه المهمه القبيحة امرأتان : عنيزه أم غنم وصدقه بنت المختار لما اضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشي ، أما عنيزه فقد (كانت عجوزا مسنه وكانت ذات بنات حسان وذات مال من ابل وبقر وغنم ، وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه ، فقالت له : أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقه ، فانطلق قدار ، فكمن فى أصل شجرة على طريقها فلما مرت به شد عليها بالسيف فعقرها فذلك قول الله تعالى : (فتعاطى فعقر) أى قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها فجرت ورغت رغاءة واحدة تحذر سقبها ، فانطلق السقب حتى أتى جبلا منيعا يقال له صفو ، وأتى صالح عليه السلام فقيل له : أدرك الناقه فقد عقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه يعتذرون اليه ويقولون يا نبى الله ، انما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال انظروا هل تدركون فصيلها ، فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله الى الجبل فتطاول فى السماء حتى ما يناله الطير.) (١) وفى رواية أخرى انه رغا ثلاثا عندما رقى جبلا اسمه قارة فانفجت الصخره بعد رغائه فدخلها . أما بالنسبة للناقه ففى رواية الكسائى قال : (وصاح قدار بأصحابه : هلموا ، فقدموا

---

(١) ص ١٤٩ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب د . لطفى عبد البديع ط ١

فأمرهم أن يقطعوا لحم الناقه فقطعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لا يعلم بذلك ...)[١] . وفى رواية أخرى أن الناقة تحولت مع وليدها الى جزء من صخور الجبل ، وبقى معنى البراءة مذبوحا على الأرض .[٢] ولنعد الى القرآن ونفحاته العطره لنرى الآيات التى ورد ذكر ثمود وطغيانهم وقصة ناقة الله فيها فنقف من خلالها على القول الفصل فالله خير الفاصلين :

قال تبارك وتعالى :

" كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها "[٣] .

وبداية الكارثة كما يحكيها القرآن بعد ارسال صالح اليهم تبدأ حين :

" قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا - لمن آمن منهم -: أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : انّا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقه وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين "[٤]

---

(١) ص ١٥٦ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب د . لطفى عبد البديع ط ١

(٢) ص ٣٦ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت ط ١

(٣) ١١ - ١٤ الشمس

(٤) ٧٥ - ٧٧ الأعراف

بدأت الكارثة باستهزاء ثمود بصالح والذين آمنوا به :

(أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ " سؤال للتهديد والتخويف ولاستنكار ايمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه (ولكن الضعاف لم يعودوا اضعافا ! لقد سكب الايمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم .... انهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدى السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين ؟)(١) لقد ألهم الله الفئة المؤمنه البلاغه فى التعبير النابعه من القوة فى الايمان بالله :

(انّا بما أرسل به مؤمنون) قطعوا عليهم الجدل انهم فئة سمت وترفعت عن تلك العبودية التى يخضع لها المستكبرون فهم مستكبرون فى الظاهر ولكنهم مستعبدون للأصنام .. ان هذه الفئة المؤمنه تطهرت من الأدناس، آمنت بالله الها واحدا وان صالحا مرسل من عند الله لذا فهى لا تريد أن يكثر الجدل بينهما وبين أولئك الكفره المستكبرين فبدلا من أن يردوا عليهم على سؤالهم الذى سألوه : (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) فيجيبونهم ثم يكون سؤالا آخر واجابة أخرى بدلا من ذلك قالت تلك

---

(١) ٨/٢١٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

الفئة المؤمنه جوابا لسؤال المستكبرين : (انّا بما أرسل به مؤمنـون) .

(فجعلوا ارساله أمرا معلوما مكشوفا مسلما لا يد خله ريب كأنهم قالوا العلم بارساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تد خله لوضوحـــه واثارته ، وانما الكلام فى وجوب الايمان به فنخبركم انّا به مؤمنـــون ، ولذ لك كان جواب الكفره (انا بالذى آمنتم به كافرون) فوضعـــوا آمنتم به موضع ارسل به ردا لما جعله المؤمنون أمرا معلوما واخـــذ وه مسلما)[١] .

لقد أعلن هؤلاء الكفره موقفهم فى صراحة تحمل طابع التهديد . (على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح ، والتى لا تدع ريبـــة لمستريب . . انها ليست البينة هى التى تنقص الملأ للتصديق . . انه السلطان المهدد بالد ينونه للرب الواحد . . انها عقدة الحاكمية والسلطان ، انها شهوة الملك العميقة فى الانسان انه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام ! واتبعوا القول بالعمل ، فاعتـــدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعـــواه ، والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم)[٢] .

---

(١) ٢/ ٩١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م

(٢) ٨/ ٢١٣ - ٢١٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

قدّموا الدليل على اصرارهم على كفرهم وتماديهم في طغيانهم :

(فعقروا الناقه وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) يا لغظاعتهم وبشاعتهم ! بل يا لتفاهتهم وحقارتهم أبو الا العناد والتمادى فى الكفر أبوا الا أن يمكثوا فى الوحل بكفرهم ويزيدوا ذلك الوحل دناسه ورجسا بعقرهم ناقة الله ، تعدوا على حرمة الله تعدوا على (ناقة الله) عقروها !! (فظلموا بها) عقروها (فأصبحوا نادمين) وماذا ينفع الندم بعد أن عتوا على أمر الله واعلنوها حربا مع (الله جل جلاله) (عقروا الناقه وعتوا عن أمر ربهم) والعتو هو قمة العصيان وقد عبر سبحانه عن عصيانهم بقوله (عتو) لابراز سمة التبجح فيها وليصور الشعور النفسى المصاحب لها . والذى يعبر عنه كذلك : ذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير) .(١)

لا جدوى من كل ما قيل لهم وكل الانذارات والتحذيرات لا جدوى من محاولة صالح ابعادهم عن غضب الله حيث حذرهم منه فقال لهم (هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) وقال لهم : (ناقة الله وسقياها)

---

(١) ٣١٤/٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

وقال لهم : (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) ،

وقال لهم : (هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض اللـــه ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها) ولا جدوى من أولئك القوم الذى طبع على قلوبهم لذا فقد كان باطن الأرض خيرا لهم مـــن ظاهرها ولكنها ميتة مخزيه حيث استحقوا غضب الله . . وكان وعد الله حقا لا يهمنا ما ورد فى التفاسير عن اسم عاقر الناقه من أنه (قدار بن سالف) فاسمه ليس مهما /ان هناك من قام بعقر الناقه من ثمود والأهم من ذلك أن الفعل كما أسند للذى عقرها - أى نفذ فعل العقر فيهـا فعلا بفصل قوائمها عن جسمها فى قوله تعالى (فتعاطى فعقر) - اسند للجميع ، اسند الى ثمود فى بقية الآيات كلها أما بقوله (فعقروا الناقه) أو (فعقروها) فالضمير يعود الى ثمود فى عقر الناقه فـــى أربعة آيات وفى الخامسة قوله (فظلموا بها) أى حين عقروها فالضمير يعود الى ثمود أيضا ذلك انه كان بامكانهم منع الجريمة قبل وقوعها - وان كانوا هم مدبروها - لكن قدار وحده لم يكن يستطيع أن يفعـــل تلك الفعله البشعه القبيحه التى عبّر عنها بأنها أقبح رسالة فى التاريخ وقد وصفه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بأنه أشقى الأولين حيث

سأل على كرم الله وجهه فقال : (يا علىّ أتدرى من أشقى الأولين؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : عاقر ناقة صالح ، أتدرى من أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : قاتلك)(١) .

فعقر الناقة وان استحق عاقرها بالفعل أن يكون أشقى الأولين - الا أنه أودى بثمود كلها الى الهلاك . . عقر الناقه جعل ثمود كلهـا صفحة سوداء فى تاريخ البشريه حيث أن عقرها كان نوعا من أنـــواع التعدى على حرمة الله .

عقر الناقه (شؤم فى شؤم ، تتداعى اليه النساء قبل الرجال والعجائز اللائى أدبر زمانهن دون الجوارى الحسان ، لكى تفوح منهن جميعـا رائحة الموت الذى يقترب من ثمود والهلاك الذى يزحف على الحجر ، حتى يكون العرس الذى تعرضه عنيزه لبناتها عرس الدم وزفافهن الـى قدار زفاف الفناء)(٢) لثمود كلها . . نعم انه عرس الدم ! فقد روى انه بعد ارتكابهم جريمة العقر باتوا ليلتهم (فلما أصبحوا تفجرت آثـــار وطء الناقه بعيون الدم وظهرت الصفرة فى ألوانهم فقالوا : يا صالح ما هذا التغيير فى أليواننا وبلادنا ؟

---

(١) ص٩٠ الكشاف للزمخشرى جـ ٢ الطبعة الأخيرة .

(٢) ١٥٦ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب د . لطفى عبد البديع ط١ ١٩٧٦م .

قال : غضب ربكم عليكم ، فأجمعوا على قتله وقالوا : اذا قتلنـــاه امتنع عنا سحره ولا تمكنه الاساءه الينا ، فتقدم التسعة الذين عقروا الناقه لقتله عندما أقبل الليل فوقف لهم جبريل ورمى كل منهم بحجر فقتله)(١) .

نعم لقد غضب الله عليهم وحق عليهم العذاب بما قدموا ، وكان هلاكهم بالعذاب الأليم والعذاب القريب فكان عذابهم (عذاب يوم عظيم)

فكيف كان هذا الهلاك الذى اجتمعت فيه كل أنواع العذاب ؟

لنتشفى فى أولئك القوم الكافرين بما حل بهم .

لنتشفى فى أولئك العتاه الذين تعدوا على حرمة الله بعقرهم (ناقة الله) .. كان عقر الناقه - كما جاء فى الروايات - يوم الأربعاء ولكن تحديد اليـوم لم يذكر فى القرآن وتلك هى بلاغة القرآن حيث لا يخوض فى التفاصيـــل وانما يعطينا (الزبده) كما يقولون .

فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وكان صالح - عليه السلام - قد أخبرهـــم بذلك وخرج هاربا منهم فشغلهم عنه ما نزل بهم من عذاب الله ، فجعـل

---

(١) ص ١٥٧ عبقرية العربية فى رؤية الانسان والحيوان والسماء والكواكب د . لطفى عبد البديع ط ١

بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم ، فلما أصبحوا /بأجمعهم أن صاحوا قد مضى يوم من الأجل ، فلما أصبحوا يوم الجمعه اذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل ، فلما أصبحوا يوم السبت اذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى الأجل وحضركم العذاب فحفروا لأنفسهم حفائر ولأهليهم وأولادهم ولبسوا الأنطاع وجلسوا فى الحفائر ينتظرون العذاب . . فلما كان يوم الأحد لما اشتد الضحى - وهو اليوم الموعود - أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقه وصوت كل شىء له يصوّت به فى الأرض ، أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه وآتاهم بشرارة من نار لظى ، وجعل يرميهم منها بجمر متوهج كأمثال الجبال وثمود باركة فى حفائرها ، وأخذ جبريل بتخوم الأرض فزلزلت بيوتهم وقصورهم ، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود وصاح صيحة فكانوا كما قال الله تعالى : (فكانوا كهشيم المحتظر) (١) . ثم أقبلت سحابة سوداء على ديارهم فرمتهم بوهج الحريق سبعة أيام حتى صاروا رمادا ، وفى اليوم الثامن انجلت السحابة وطلعت

---

(١) ٣١ القمر ٥٤

الشمس وجاء صالح بمن معه من المؤمنين فطاف بديارهم واحتملوا ما قدروا عليه من أموالهم وارتحل بقومه الى أرض الشام فنزل أرض فلسطين وأقام - عليه السلام - حتى مات . تلك هى نهاية القوم الظالمين نهاية ثمود وهلاكها وأنواع العذاب الذى حل بها كما رواها المفسرون .(١)

ولو قيل : كيف نوفق بين قوله تعالى : (فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب)(٢) وبين قوله تعالى : (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب)(٣) أى كيف قيل (قريب) ثم كان ثلاثة أيام ؟

والجواب هو : ان مكوثهم ثلاثة أيام لا يتنافى مع لفظ (قريب) حيث أن انتظارهم العذاب ثلاثة أيام كان نوعا من العذاب وكمقدمة للعذاب فقد جعلهم الله يغزعون ويترقبون كل حركة ويذوقون الموت كل يوم بلسون كما تتلون وجوههم وكان سبحانه - قادرا على أخذهم بغتة من اللحظة الأولى التى عقروا فيها الناقة . ثم ان الثلاثة أيام ليست بالأيام الكثيرة اذا ما قورنت بحياة القوم (ثمود) حيث يروى أنهم عمروا طويلا حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته وهذه كناية عن طول أعمارهم حيث ينهدم المسكن المحكم ولا يموت من بناه مما دفعهم الى أن ينحتوا من الجبال بيوتا وقد ذكر سبحانه ذلك أى نحتهم للجبال

---

(١) الزمخشرى / الكشاف ص ٨٩ - ٩٠ جـ ٢ الطبعة الأخيرة
ابو السعود / تفسير ابى السعود ص ٢٤٢ المجلد ٢ جـ ٣
عبقرية العربية د . لطفى عبد البديع ط١ ص ١٥٠ - ١٥٨ عن نهاية الأرب ١٣/ ٨٥

(٢) آية ٦٥ سورة هود . (٣) آية ٦٤ سورة هود .

بيوتا فقال يذكرهم بنعمته عليهم : (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)(١) فكيف بمن تكون تلك أعمارهم وتلك حضارتهم يمهلوا بعذاب بعد ثلاثة أيام ويطوون من صفحات التاريخ وأخيرا فان لفظ (قريب) يدل على تأكيد وقوع العذاب أى لا محالة من وقوعه وقوله (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) أى لا محالة واقع بعد ثلاثة أيام فكلاهما يؤديان معنى واحدا ! (قريب) و (ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) .

أما خبر هلاك (ثمود) فى كتاب الله فقد جاء مختصرا يليق بقوم كذبوا بالله وبآت الله فلا جدوى من أن يقف القرآن عندهم طويلا فليسوا أهلا لذلك وانما يذكرهم القرآن ويذكر خبر هلاكهم لأخذ العبرة منهم فقد كانوا أصحاب حضارة وعمران وعمروا القرون الطوال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فلما كذبوا بنبيهم وظلموا بالآية التى أرسلها الله اليهم وهى الناقه (فعقروها) أرسل الله (عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر)(٢) قيل أنها صيحة جبريل عليه السلام . وكل ما يستحقونه من وقوف هو تشبيههم بعد الصيحة الواحدة التى أرسلت

---

(١) آية ٧٤ سورة الأعراف ٧

(٢) آية ٣١ سورة القمر ٥٤

عليهم أنهم أصبحوا كالشجر اليابس المتهشم المتكسر الذى تتطـــؤه البهائم فى الحظيرة حيث أن معنى (المحتظر) الذى يعمـــل الحظيره وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتطؤه البهائم فيتحطـــم ويتهشم . وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار : أى الحظيره .

هذا هو مصيرهم فى سورة القمر .

أما فى سورة الشمس فيقول تبارك وتعالى :

(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها)(١)

(دمدم) أى أطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومـــة اذا ألبسها الشحم . أضيق عليهم العذاب فلا مفر منه . أطبق عليهـــم العذاب (بذنبهم) أى بسبب ذنبهم الذى اقترفوه وهو عقرهم الناقـــه حيث جعلها الله آية من عنده لهم . (فسواها) الضمير للدمدمـــه : (أى فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم (ولا يخاف عقباها) أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الابقاء . ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى فسوّاها بالأرض أو فى الهـــلاك ولا يخاف عقبى هلاكها ، وفى مصاحف أهل المدينة والشام فلا يخاف ، وفى قراءة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يخف . عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شىء طلعـت

---

(١) ١٥ - ١٦ سورة الشمس ٩١

عليه الشمس والقمر "(١).

فهلاك ثمود بينة الله - سبحانه - فى هذه السورة بأنه أطبق عليهم العذاب من كل جانب فسوى بهم الأرض وذلك هو جزائهم بما كذبوا واعتدوا على آية الله ناقة الله .

ويؤكد ذلك العذاب الذى أخذهم فى سورة الشعراء حيث يقول تبارك وتعالى : " فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم "(٢). انطوت صفحتهم من التاريخ بيسر وسهولة على الله فهو العزيز الذى لا يتطاول عليه كائن من كان الا أذله وسوى به الأرض ولا يبقى منه الا خبرا يروى يكون آية لمن يراه أو يسمع به !

وأخيرا لنشاهد هذا المشهد الأخير لثمود مشهد هلاكهم بالعذاب ولنتصور أنه ما دام أن الله قد سلط عليهم العذاب فستكون ألوانه وصوره لا حصر لها (عذاب) كلمة مفتوحه تعنى أى عذاب نشاهد هذا العذاب فى مشهد واحد من سورة الأعراف وسورة هود ففى سورة الأعراف يقول تبارك وتعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين)(٣)

---

(١) ص ٢٦٠ الكشاف للزمخشرى جـ ٤ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م

(٢) آية ١٥٨ - ١٥٩ سورة الشعراء ٢٦

(٣) ٧٨ الأعراف ٧

ونرى نفس المشهد فى سورة هو : (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود)[١].

(أخذتهم الرجفة) أى الزلزلة ، زلت بهم الأرض فجعلت عاليهم سافلهم وسوى بهم الأرض فأصبحوا جاثمين عاجزين عن الحراك حيث أن الذى أصابهم جعلهم يفزعون ولا يستطيعون حراكا وما أجدر المعتدى أن يعجز جزاء وفاقا فى المصير ويدعهم السياق على هيئتهم (جاثمين) فلا يستحقون أن يطيل الوقوف عندهم يتركهم ويرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه : (فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين)[٢] حتى صالح لم يطل الوقوف عندهم (تولى عنهم) جعلهم وراء ظهره ووبخهم وهم أموات (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين) انه الاشهاد على أمانة التبليغ والنصح ، والبراءة من المصير الذى جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب. وكذلك المشهد الذى فى سورة (هود) يتركهم على هيئتهم (جاثمين) ولا يعلق عليهم أكثر من قوله (كأن لم يغنوا فيها) أى كأن لم يقيموا ويتمتعوا ويبنوا القصور وينحتوا الجبال

---

(١) ٦٧ - ٦٨ هود ١١
(٢) ٧٩ الأعراف ٧

فاذا حياتهم كلها التى عاشوها قرونا وقرون شريط سريع كأن لم يغنوا فيها ، ثم يختم ذلك المشهد بتسجيل ذنبهم وتشييع اللعنة عليهم وَيطوى صفحتهم من الواقع : ومن الذكرى " ألا ان ثمود كفروا ربهم . ألا بعدا لثمود !) وهكذا طويت صفحتهم بموت مخزى وعذاب مدمر وزلزلة من الأرض وصيحة من السماء وبين هذا وذاك غضب من الرحمن نتيجته الفناء المخـــزى فى الدنيا والخسران فى الآخرة .

. . . . . .